طه حسين

شجرة البؤس



دار المعارف بمصر

ملتزم الطبع والنشر : دار المعارف بمصر

الإهداء

هذه صورة للحياة فى إقليم من أقاليم مصر آخر القرن الماضى وأول هذا القرن ، نقلتها من صدرى إلى القرطاس أثناء الرحلة فى لبنان .

فمن الطبيعى أن أهديها إلى هذا البلد الكريم ، اعترافاً بما أهدى إلىّ من معروف ، وما أسدى إلىّ من يد .

طه حسين

شجرة البؤس

١

فرغ الرجلان من صلاة العصر ، ومما تعودا فى أعقاب الصلوات من تسبيح وتحميد وتهليل وتكبير ودعاء، ثم تحولا عن مجلسهما إلى مصطبة فى ناحية من نواحى الحجرة لا تخلو من ترف ؛ فهى لم تتخذ من الطين واللبن ، وإنما اتخذت من الآجر ، وفرشت بالرخام ،وألقيت عليها بسط ونمارق ، كدأب البيوت التى كان يسكنها المترفون من التجار وأوساط الناس ، الذين كانوا يجدون شيئاً من الكبرياء فى تقليد السادة من الترك . لم يكد الرجلان يأخذان مجلسيهما حتى أقبل الخادم يحمل إلى أحدهما غليونه الطويل ، وأقبل الخادم آخر من ورائه يحمل إليهما القهوة . وكان واضحاً أن أحدهما ، وهو الذى حمل إليه الغليون ، لم يكن من أهل الإقليم ، وإنما كان من أهل القاهرة قد جاء إلى الإقليم زائراً لصاحبه ، أو زائراً وتاجراً معاً . وقد يقبل من القاهرة إلى الإقليم فى زيارته وتجارته مرة أو مرتين فى العام . ثم شرب الرجلان قهوتهما فى أناة وبطء ، لا يقول أحد منهما لصاحبه شيئاً . وأقبل صاحب الغليون على تدخينه ، واخرج الاخر من جيبه علبة بيضية الشكل فأمالها على بعض أصابعه ، ثم رفع أصابعه هذه إلى أنفه وتنفس تنفساً عميقاً ، ثم رد العلبة إلى جيبه وأطرق كأنما ينتظر شيئاً ، أو كأنما يريد أن ينعم فى تفكير عميق . ولكن صاحبه

القاهرىّ لم يتح له ذلك ، وإنما قال له فى أناة وصوت هادئ : ويحك أبا خالد ! أخشى أن نكون قد ظلمنا أنفسنا وأرهقنا هذا الفتى من أمره عسرا .

قال أبو خالد فى صوت لا تظهر عليه العناية بما سمع : وما ذاك أبا صالح ؟

قال أبو صالح : إنى لم أر ابنتى قط منذ كان هذا الزواج إلا رحمت الفتى وأشفقت عليه . فما رأيت امرأة أقبح من ابنتى شكلا ، ولا أبشع منها منظراً ، ولا أقلّ منها دعاء للرجال .

هنالك غضب أبو خالد وقال لصاحبه فى شىء من العنف : فإنا اجتهدنا لأنفسنا وأموالنا ، واجتهدنا لهذين الشابين ، ولا علينا بعد ذلك أن يسعدا أو يشقيا ، أحدهما أو كلاهما . إنها ابنتك الوحيدة ، وإنه ابنى الوحيد ، وإن لك ثروة ضخمة ، وإن لى تجارة واسعة ، وإن بيننا شركة بعيدة المدى ، وإخاء قديم العهد ، فلم يكن بد من أن يقترن هذان الشابان ومن أن يصير إليهما هذا المال .

وأظنك فى حاجة قبل أن يتقدم هذا الحديث إلى أن تعرف شيئاً من أمر هذين الرجلين اللذين كانا يتناجيان . فأما أبو صالح فقد كان رجلا من أهل القاهرة ، من هذه الطبقة المتوسطة التى أخذ شأنها يظهر شيئاً فشيئاً فى أواسط القرن الماضى حين رُدّ إلى المصريين شىء من حرية ، وحين أتاحت لهم النهضة المادية شيئاً من سعة العيش . وكانت أسرته تعمل فى التجارة منذ عهد بعيد . نشأ أبو صالح هذا عبد الرحمن ، فرأى أباه مصطفى تاجراً ، وتحدث إليه أبوه أنه رأى أباه تاجراً ، وأنه

لم يعرف أن أسرته احترفت شيئاً غير التجارة . ولكن تجارة الأسرة كانت يسيرة قريبة المدى ، حتى جاء مصطفى أبو عبد الرحمن فقدمها شيئاً ، ثم جاء عبد الرحمن هذا فقدمها كثيراً ، وتجاوز بها القاهرة إلى الأقاليم البعيدة والقريبة . وكان يتجر فى البن والسكر والأرز والصابون ، ولا يكاد يتجاوز هذه الأصناف إلى غيرها من العروض . وقد نشأ فى بيت الأسرة « بحى الحرنفش » نشأة قاهرية عادية ، فاختلف إلى الكتاب ، وحفظ شيئاً من القرآن ، ثم اختلف إلى الأزهر ووعى شيئاً من العلم ، ثم أعان أباه فى التجارة ، وتنقل بهذه التجارة فى الأقاليم ، ثم آلت إليه تجارة أبيه فنماها نمواً عظيما .

وكان عبد الرحمن قد اشترى من سوق الرقيق فى القاهرة جارية حبشية ، أو جارية زعموا له أنها حبشية ، ولكنها كانت سوداء على كل حال . وأكبر الظن أنها لم تخل من عنصر زنجى قليل أو كثير . وقد أحسن عبد الرحمن سيرته مع هذه الجارية ، فأعتقها واتخذها له زوجاً ، ورزق منها ثلاثة بنين : غلامين ، أحدهما صالح وبه كان يكنى ، وكان يعمل معه فى تجارته بعد أن نشأ نشأة أبيه ؛ والآخر محمد ، وقد وجهه أبوه وجهاً مدنياً ، فلم يحصل علماً ، ولم يمل إلى تجارة ، وإنما كان فتى متعطلا ، كان ضحية من هذه الضحايا التى تكثر فى أوقات التطور والتجديد ، حين تلتقى حضارة قديمة مستقرة بحضارة جديدة طارئة . والثالثة فتاة سماها نفيسة . وقد أراد الله أن يجمع ما كان يمكن أن تتوارثه هذه الأسرة من ناحيتيها من قبح الصورة ودمامة الشكل على هذه الصبية البائسة . وقد نشئت هذه الصبية تنشيئاً فيه كثير من الترف وكثير من

العناية . وكأن عبد الرحمن وامرأته السوداء قد رفقا بهذه الصبية واختصاها بكثير من العطف لما رأيا من قبح صورتها ودمامة شكلها . وكان استهزاء أخويها بمنظرها البشع وصورتها المنكرة يزيد رفق أبويها بها وعطفهما عليها ، فنشأت الفتاة وفى أخلاقها شىء كثير من التعقيد : تحب الترف وتكلفُ به لأنها نشئت عليه ، فأصبح لها طبيعة وأسلوباً فى الحياة . وتحس الأشياء إحساساً دقيقاً جدًّا ولا سيما حين تتصل بها من قريب أو بعيد ، وتتأذى بما يؤذى وما لا يؤذى ، ويخيل إليها أن فى كل حديث يساق إليها أو يساق عنها تعريضاً بها أو محاولة لإيذائها . فكانت سعيدة بين أبويها ، شقية بين أخويها وبين الناس ، مضطربة أشد الاضطراب إذا خلت إلى نفسها ، لا تعرف إلى أى الأمرين تستقر : إلى هذا الحب الذى يملؤه الحنان والعطف ، والذى تجده من أبويها كلما خلت إليهما بل كلما لقيتهما ، بل تحس آثاره حين لا تلقاهما ولا تخلو إليهما ، أم إلى هذا الازورار الذى كانت تجده من أخويها والتودد المتكلف الذى كانت تجده من الناس حين تلقاهم زائرين للأسرة ، أوتلقاهم حين كانت تصحب أمها فى بعض زياراتها . والشىء الذى لا شك فيه هو أن أخلاق هذه الفتاة لم تكن مطردة ولا منسجمة ولا ملائمة للمألوف من أخلاق أترابها ، وإنما كانت تثب من الرضا إلى السخط ومن السخط إلى الرضا ، وربما اضطرت إلى شىء بين ذلك ليس فيه اطمئنان ولا ثورة ، وإنما هو قلق متصل ، وضيق بكل شىء ، وإعراض عن كل شىء . وكان هذا كله يزيد عطف أبويها عليها ، وإيثارهما لها بالحب والحنان ، حتى كانت من غير شك آثرَ الثلاثة عند أبيها وأمها .

ثم امتحنت الأسرة بفقد ابنيها جميعاً فى خطوب لا أعرض لها الآن ، فأصبحت الفتاة وحدها مركزاً لكل ما كان الأبوان يملكان من حب وبر .

وقد ارتحل عبد الرحمن فى بعض شأنه التجارى إلى مدينة من مدن الأقاليم بعيدة عن القاهرة بعداً شديداً ، فى ذلك الوقت الذى لم تكن فيه القطر ولا السيارات ، والذى كان يرتحل الناس فيه على ظهور الدواب أو على ظهور السفن التى تشق بهم النيل مصعدة حيناً وهابطة حيناً آخر . وكان عبد الرحمن لا يسافر إلى الأقاليم إلا بعد أن يقدم بين يديه طائفة من السفن قد حملت ما شاء الله أن تحمل من عروض التجارة ، حتى إذا بعد عهده شيئاً بإقلاع هذه السفن وظن أنها قد كادت تبلغ غايتها سافر هو من القاهرة سفراً غير قاصد ، وبلغ الغاية قبل أن تبلغها السفن . وهناك يتلقى سفنه ويعمل فى تجارته ، فيبيع ويشترى ، ويأخذ ويعطى ، ويرد سفنه إلى القاهرة وقد تخففت مما كانت تحمل ، ولكنها أثقلت بعروض أخرى تحمل من الأقاليم إلى القاهرة . وكان هذا كله يضطره إلى أن يبقى فى مدن الأقاليم أوقاتاً تطول وتقصر ، فلم يكن له بد من أن يتخذ الأصدقاء من عملائه التجار ، ومن أن يتخذ الأصفياء الذين يؤوونه إذا كان فى هذه المدينة أو تلك ، والذين يؤويهم حين كانوا يهبطون إلى القاهرة لمثل ما كان يرحل له من البيع والشراء . وكان عميله فى هذه المدينة أبا خالد بن سلام . وكان على كصديقه وعميله تاجراً بعيد التجارة ، نشأ فى قرية من قرى الريف فى مصر السفلى ، وفى أسرة من هذه الأسر التى كانت تتجر بالماشية وتحصل من هذه التجارة مالا عظيما . ثم رأى أبوه سلام ذات يوم أن أهل القرى يستكرهون على امتلاك

الأرض واستثمارها ، وكان أبغض شيء إليه أن يكون صاحب أرض وزراعة ، يتعرّض لما يتعرض له الفلاحون من الظلم والعنف ، ومن القسوة والشدة ، ومن هذه السياط التي كانت تأكل أجسامهم حين يقصرون مع سادتهم أو مع الحكومة ، أو حين يتهمهم سادتهم وتتهمهم الحكومة ظلماً بالتقصير ، ففرّ سلام بأسرته وذهبه وفضته إلى مصر العليا ، واستقر في مدينة من مدنها ، واستأنف فيها حياة التجارة . ولكنه لم يتجر في الماشية ، وإنما اتجر في البن والسكر والأرز والصابون . وقد نمت تجارته ، واستطاع أن يترك لابنه عليّ ثروة ليس بها بأس . وكأن سلاماً هذا قد أورث ابنه ما كان يمتاز به من حب الحرية ، وتجنب السلطان ، والاجتهاد في ألا يخضع لحياة تفرضها عليه القوة أو النظام فرضاً . فقد شبّ عليّ فرأى الحكومة تريد أن تستكره الناس على أن يعملوا في الجيش ، فلم يتحرج من أن يطيح إبهامه ، حتى إذا تقدم للفرز رُدّ لأنه ليس صالحاً للخدمة العسكرية .

وولُد له ابنه خالد ، فدفعه إلى الكتاب كما دفعه أبوه هو إلى الكتاب . ولكنه رأى الحكومة تريد أن تستكره الناس على أن يتعلموا في المدارس النظامية ، وكان يرى هذه المدارس إثماً من الإثم وزوراً من الزور ، فهرّب ابنه من المدينة وجدّ في تهريبه حتى علمه التعليم الموروث ، فحفظه القرآن جالساً على حصر الليف ، ونزهه عن هذه المدارس التي لا يتعلم الصبيان فيها شيئاً ، وإنما يلوون ألسنتهم بالتركية وبلغة أخرى يسمونها لغة الفرنسيس . وكان عليّ يكره الترك كرهاً شديداً ، لا يتصور التركي إلا ظالماً غاشما ، لا يعرف عدلا ولا ديناً ولا قانوناً

ولا احتشاماً . وكان يكره الفرنسيس كرهاً شديداً ، يذكر ما كان الناس يتحدثون به عنهم من الشر ، ولكنه كان يحب الدنانير الفرنسية ويؤثرها على غيرها من النقد ولا يكاد يجتمع له شيء من ذهب أو فضة إلا استبدل به دنانير نابوليون .

وقد تقدمت السن بابنه خالد حتى كاد يبلغ العشرين . وهو لم يصنع شيئاً إلا أنه حفظ القرآن ، وجعل يعمل مع أبيه فى تجارته يقبل عليها حيناً وينصرف عنها أحياناً ، ويؤثر الاختلاف إلى المساجد يشهد فيها الصلوات ويسمع فيها للشيوخ والوعاظ ، فإذا كان الليل اختلف إلى مشايخ الطرق فشاركهم فى حلقات الذكر . وكان أبوه لا يكره منه هذا ، وإنما يرى فيه طاعة وتقوى ، وكان يجتهد فى أن يحبب إلى ابنه طريقة بعينها هى التى اتخذها لنفسه طريقة . وحمل صديقه القاهرىّ عبد الرحمن على أن يأخذ بها العهد عن شيخه . وقد وُفق علىّ من ذلك لما أراد ، فأصبح ابنه خالد يتعصب لشيخه وطريقته أكثر مما يتعصب للتجارة ، حتى أشفق الشيخ نفسه على هذا الشاب أن يغرق فى التصوف وينتهى إلى الانجذاب ، فقال لأبيه ذات ليلة بمحضر صديقه عبد الرحمن قبل أن يقيم الذكر بقليل : يا على . زوج ابنك ، وليعنك على ذلك عبد الرحمن ، فإنى أخشى عليه الولاية وهو لم يخلق لها . ثم تلا الآية الكريمة :

« إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُوماً جَهُولاً » .

وانصرف الصديقان عن الشيخ بعد أن تفرّقت حلقة الذكر ، لم يقل

أحدهما لصاحبه شيئاً فى شأن هذا الأمر الذى صدر من الشيخ إلى علىّ أن يزوج ابنه ، وإلى عبد الرحمن أن يعينه على هذا التزويج . وراح علىّ إلى أهله ، فلم يتحدث إليهم بشىء ، وإنما أتم حياته العاملة كما تعود أن يتمها فى كل يوم بركعتين كان يركعهما قبل أن يأوى إلى مضجعه ، وبآية الكرسى التى كان يتلوها إذا استقرّ فى فراشه . والتقى الرجلان حين نشرت الشمس رداءها الرقيق الرقراق على الأرض وألبست منه المدينة حللا رائعة مشرقة ، فحيا علىّ صاحبه ، وسأله عن ليله كيف قضاه ، وعن نهاره كيف يريد أن يقضيه . وأقبل الخادم يحمل القهوة فشرباها فى رفق وبطء وصمت يقطعه حديث نزر يسير . ولكن عليًّا أقبل على صديقه فجاءةً يسأله : ماذا فهمت من الأمر الذى أصدره إلينا الشيخ قبل أن يقيم الذكر ؟

قال عبد الرحمن متضاحكاً : فهمت أنه يخشى على ابنك من حياته هذه التى يحياها ، ويأمرك بتزويجه لينصرف إلى الدنيا عن الإغراق فى أمر الدين لأنه لم يخلق ليكون شيخاً ، وإنما خلق ليكون تاجراً مثلك ، وفهمت أنه يكلفنى معونتك على ذلك ، وأنا من هذه المعونة عند ما تريد .

قال علىّ : معونتى على ماذا ؟ ومعونتى بماذا ؟

قال عبد الرحمن : ما أدرى ، ولكن للشيخ إشارات لا تفهم عنه غالباً . ولولا أنى أشفق عليك لسألتك : أفى حاجة أنت إلى المال ؟

قال علىّ وهو يضحك : وهل حال مثلى تخفى على مثلك ؟ أتراني قصرت فى بعض حقوق التجارة فأجلت لك أو لغيرك حقًّا ؟ بل أتراك أحسست منى حاجة إلى التأجيل والمهلة ؟

قال عبد الرحمن : فهذا ما سألت عنه نفسى منذ الليلة . وإن كرام الناس مثلك ليعنفون بأنفسهم أشد العنف حتى لا يظهر أحد على ما يحبون أن يُخفوا من الأمر . وقد عرفت ما بينك وبينى من الود والإخاء ، فأنا عند ما تحب من المعونة إن احتجت إليها فى تجارتك أو فى تزويج خالد ؛ فإن خالداً عندى بمنزلة ابنىّ رحمهما الله .

قال علىّ : بارك الله عليك فى مالك وولدك ! . . . ولكن أفهمت معنى الآية التى تلاها الشيخ ؟ قال عبد الرحمن : لم أفهمها ، ولكنى قدرت أن الأمانة هى هذه الولاية التى يتعرض لها خالد على حين قد خلق للتجارة والعمل فيما نعمل فيه من أمور الدنيا . وما ينبغى أن نتحرى الدقة حين نسمع شيوخنا يتحدّثون أو يتلون القرآن ويروون الحديث ؛ فإن لهم آفاقاً لا نبلغها . ولو قد فهمنا عنهم كنه ما يريدون لكنا مثلهم أساتذة وشيوخاً ، وأنت تعلم أنه لم يؤذن لنا فى شىء من ذلك . قال على : لأراجعنّ الشيخ فيما أراد إليه .

وأنفق الصديقان يومهما كما تعوّدا أن ينفقا أيامهما . فلما صُليت العصر وشربت القهوة وكان التدخين والنشوق ، سعيا إلى الشيخ فأقاما عنده بين التلاميذ والمريدين ما شاء الله أن يقيما ، وعلى يهمّ أن يراجع الشيخ فيما سمع منه ولكنه لا يجرؤ . حتى إذا نودى لصلاة المغرب التفت الشيخ إلى علىّ باسماً وقال له : يا علىّ ، زوج ابنك وليعنكَ على ذلك عبد الرحمن ، فإنى أخشى عليه الولاية التى لم يخلق لها ، ثم تلا الآية الكريمة . وهمّ علىّ أن يسأله ، ولكنه نهض فاستقبل القبلة وأقام الصلاة وصلى من خلفه تلاميذه ومريدوه .

وكان الشيخ إذا أقام صلاة المغرب لم يفرغ لأحد بعدها ، وإنما يمضى فى تسبيحه وتحميده حتى يتقدّم الليل ، فيقيم الصلاة الآخرة ويمضى فى تسبيحه وتحميده ساعة تطول أو تقصر حسب ما يكون من إقامة الذكر أو لا يكون ، ولكنه على كل حال لم يكن يخلص لأصحابه إلا فى ساعة متأخرة جدًّا من الليل . وقد حضر الصديقان مع شيخهما صلاة المغرب والعشاء وطرفاً غير قصير من تسبيحه ودعائه ، ثم انصرفا ولم يستطع علىّ أن يراجع الشيخ فى شىء ، وإنما عاد إلى أهله مشغولا كثير التفكير ، ولكنه على ذلك لم يتحدث إليهم فى شىء ، بل ركع ركعتيه وأوى إلى مضجعه فتلا آية الكرسى وترك نفسه للنوم . ثم أصبح من غده كما أصبح من أمسه حائراً يسأل نفسه عن هذه المعونة التى طلبها الشيخ إلى عبد الرحمن ، ويؤكد بينه وبين نفسه أنه سيراجع الشيخ لا محالة ليعرف منه ما أراد . وقد أقبل الصديقان على شيخهما فصليا معه المغرب والعشاء ، ومضيا معه فى تسبيحه وتحميده ودعائه ينتظران حلقة الذكر . ولكن الشيخ التفت فجاءة إلى الصديقين ، وأعاد على علىّ للمرة الثالثة مقالته وتلا عليه الآية . وهمّ علىّ أن يسأله ، ولكن الشيخ قال باسماً : سبحان الله ! ثم التفت إلى عبد الرحمن وقال : وما شأن نفيسة ؟ ! ثم أمر بإقامة الذكر ، وقد فهم عنه الصديقان ولم يستطيعا مع ذلك أن يقولا له شيئاً ، أو يسألاه عن شىء . على أنهما لم يعودا صامتين بعد أن تفرقت الحلقة ، وإنما قال عبد الرحمن لصاحبه : أفهمت الآن هذه المعونة ؟ قال علىّ : قد فهمتها منذ الليلة الأولى ، ولكنى لم أكن أقطع بذلك ولا أجرؤ على تقديره عن أن أحدثك فيه . قال عبد الرحمن : فإن

هذا الخاطر لم يخطر لى ، وما كنت أعرف أن الشيخ يعلم أن لى ابنة ، وأن اسمها نفيسة . قال علىّ : فإن الشيخ لا يخفى عليه شىء من أمر تلاميذه ومريديه . ولكن ما رأيك فيما أصدر إلينا من أمر ؟ . قال عبد الرحمن : سنستخير الله وسنتحدث إذا كان الغد . ودخل علىّ على أهله فرحاً مسروراً يقول : أبشرى يا أم خالد ، فستزورين القاهرة بعد قليل . قالت أم خالد مبتهجة : شيئاً لله يا أهل البيت . ولكن زوجها كان قد استقبل القبلة ليركع ركعتيه .

٢

وكان الحديث بين الصديقين أثناء قهوة الصباح قصيراً سريعاً حاسماً ، بدأه علىّ حين سأل صاحبه هل استخرت الله . قال عبد الرحمن : صدق الله العظيم. « وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلاَ مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْراً أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ وَمَنْ يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالاً مُبيناً » . وقد أرتنى الأحلام شيخنا غير مرة يتلو علىّ هذه الآية ، فأفقت وأنا واثق أن الخيرة فيما اختاره الله .

قال علىّ متهللا : فابسط يدك لنقرأ الفاتحة . قال عبد الرحمن : مهلا أبا خالد ! فإن بيننا وبين ذلك أموراً ثلاثة . قال علىّ : وما هى؟ قال عبد الرحمن : أما أولها فأن تعلم أن ابنتى قبيحة الشكل بشعة الصورة ، لا تكاد تقع عليها العين إلا انصرفت عنها مشمئزة ، وانحرفت عنها نافرة . وأما الثانى فهو أن لابنك أمًّا كما أن له أباً ، ويجب أن تعلم من هذا الأمر كله مثل ما نعلم ، ويجب أن تنقل إليها فى أمانة ما حدّثتك به عن قبح ابنتى . وأما الثالث فهو أنك لن تتزوج ابنتى وإنما سيتزوجها خالد ، فيجب أن يعلم من هذا الأمر ما نعلم ويعرف أن الشيخ لا يهدى إليه عروساً رائعة ، وإنما يبتليه بمحنة مروعة .

قال علىّ وهو يضحك : أو ليس قد أمر الشيخ ! أو ليس قد تلا عليك الشيخ هذه الآية فى أحلامك ، فأينا يقدر على أن يخالف أمر

الشيخ ! وأينا يقدر على أن يختار لنفسه غير ما اختار له الله ! ثم نهض من فوره فدخل على أهله ، وعاد بعد ساعة أشد ما يكون سروراً وابتهاجاً، ثم سأل عن ابنه، فالتُمس له فى المساجد حتى جىء به بعد حين . فلما أنبأه النبأ ابتسم وقال فى شىء من الاستحياء : وما دام شيخنا قد أمر بذلك فهو الخير .

ولم تمض إلا أيام حتى كانت سفينة من السفن تهبط بعبد الرحمن وأصهاره إلى القاهرة ، ثم لم يمض بعد ذلك إلا شهر أو أقل من شهر حتى كانت سفينة من السفن تصعد بعلىّ وأسرته إلى الإقليم وقد زاد عددها حتى بلغ الأربعة .

٣

وليس من شك فى أن أم خالد أذعنت لأمر الشيخ طائعة ، وفى أن خالداً أنفذ أمر الشيخ راضياً مغتبطاً . ولكن ليس من شك أيضاً فى أن أم خالد لم تكد ترى نفيسة حتى ارتاعت والتاع قلبها التياعاً شديداً . ولولا أنها كانت قوية النفس حازمة ضابطة لأمرها ، لأظهرت من روعها ولوعتها ما كان خليقاً أن يؤذى الفتاة وأمها ويلغى أمر الشيخ إلغاء ، ولكنها حزمت أمرها وكظمت غيظها وأوت بعد قليل إلى غرفتها فبكت ما شاء الله أن تبكى ، واستقبلت زوجها كأسوأ ما يستقبل الزوج ، وقالت له فى نفسه وفى شيخه أسوأ مما كان يمكن أن يقال . ولكن زوجها لقى هذا كله باسماً يتلو الآية : « وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلاَ مُؤْمِنَةٍ ... » فإذا أحفظته استحال ابتسامه ضحكاً وقال : ناقصات عقل ودين . ولكنها أكثرت عليه حتى ضاق بها آخر الأمر ، ولا سيما حين زعمت له أنه لا يزوج ابنه طاعة للشيخ ولا إذعاناً لإرادة الله ، وإنما هو أمر دبر بليل . هو لا يزوج ابنه من ابنة صاحبه ، وإنما يزوج نفسه من ثروة صاحبه ، فهو يضحى بهذين البائسين ليشارك فى هذه الثروة الضخمة والمال العريض . هنالك نهض علىّ فى تؤدة واستقبل امرأته فى هدوء وقال لها فى صوت يريد أن يرتفع ، ولكن صاحبه يكرهه على الانخفاض : تخيرى ، فإما أن يعقد هذا الزواج وإما أن تفصم عقدة الزواج بينك وبينى . فأقسم لنعودنّ إلى مدينتنا أربعة ، أو لتعودنّ إلى أهلك وحيدة .

سمعت أم خالد هذا النذير فوجمت له وجوماً طويلا . والغريب أنها جعلت تلتمس عند عينيها الدموع فلا تسعفانها بشيء ، وتلتمس عند قلبها الثورة فلا يسعفها بشيء ، وتلتمس عند لسانها كلمة تردّ بها على زوجها بعض ما قال فلا يسعفها بشيء ، فلما طال عليها ذلك نهضت لتصلح من شأنها . وانصرف عنها زوجها ثم عاد إليها بعد ساعة فرآها كعهده بها هادئة حازمة ، في وجهها ابتسامة ضئيلة حزينة . قال عليّ لامرأته متضاحكاً : أرضيت ؟ قالت : لقد سمعت أبي دائماً يقول كلما لقي مكروهاً من الأمر : رضينا بقضاء الله وقدره . ولكن ثق بأنك ستندم على ما أنت مقدم عليه من الأمر ، وبأنك إن أتممت هذا الزواج لم تزد على أن تغرس في دارك شجرة البؤس .

٤

ولم تحاول أم خالد أن تصرف ابنها عن هذا الزواج ولاأن تنفره منه . وما كان لها أن تفعل ، فطاعة الزوج واجبة ، وطاعة الآباء برٌّ بهم . وقد أطاعت زوجها كارهة ، فما ينبغى لها أن تثير ابنها على أبيه ولا أن تغريه بالعقوق . على أنها نصحت لابنها آخر الأمر، فلم تبالغ فى الثناء على خطيبته ، ولم تزعم له أنها رائعة الحسن بارعة الجمال ، وإنما كانت تتحدث إليه بأن الشباب لا ينبغى أن يلتمسوا عند أزواجهم جمالا ولا حسناً ؛ فإن الجمال فتنة والحسن محنة ، ويوشك الذى يلتمس الحسن والجمال عند زوجه أن يعرض نفسه لكثير من المكروه . إنما يلتمس الشاب عند امرأته قرينة تؤنس وحدته ، وأمًّا ترزقه الولد، ومدبرة لبيته ومربية لبنيه . والواقع من الأمر أن ابنها كان يسمع لها معرضاً عن أكثر ما كانت تقول ؛ فهو لم يكن يفكر فى جمال ولا فى حسن ، ولم يكن يحفل بالولد ولا بتدبير أمر المنزل ، ولم يكن يشفق من وحدة ولا يبتغى أنيساً ، وإنما كان يطيع أمر الشيخ ليس غير ، وقد أمره الشيخ أن يتزوج فهو يتزوج ، فأما ما بعد ذلك فله وقته وإبانه .

وكان الفتى منذ هبط إلى القاهرة قليل العناية بالخطبة وأحاديثها ، والزواج وما كان يعد له ، منصرفاً أشد الانصراف إلى هذه المساجد الكثيرة التى استقر فيها الأولياء وأهل البيت ، يلمّ بأحدها فلا ينصرف عنه حتى يلمّ بأحدها الآخر ، قارئاً فى هذا مصلياً فى ذاك مطوفاً ومتمسحاً

على كل حال بما فيها من المشاهد والمقامات ، مستمعاً لما كان يلقى هنا وهناك من دروس التفسير والحديث ومن الوعظ والإرشاد ، منتفعاً بما كان يسمع ، مدخراً فى قلبه من هذا كله الأعاجيب . ولم يكن النهار يكفيه ليرضى حاجته من هذه الزيارات ، فقد كان ينفق فيها شطراً من الليل ، ولا يعود إلى أبويه إلا حين يهمان أن يأويا إلى غرفة نومهما . وقد خطر للفتى هذا الخاطر العجيب ، وهو أن يختم القرآن فى طائفة من هذه المساجد الكبرى ، فختمه فى مسجد سيدنا الحسين ، ومسجد السيدة زينب ، ومسجد الإمام الشافعى ، ومسجد الإمام الليث . وكان واثقاً بأن ذلك كله أدعى إلى أن يبارك الله فى حفظه للقرآن . وكان يتحدث بهذا إلى أبيه فيرضى ، ويتحدث به إلى أمه فتبتسم . على أنها تعلقت به ذات يوم وأرادته على أن يزيرها أهل البيت ، فهى لم تستبشر بالهبوط إلى القاهرة حين أنبأها زوجها به إلا لأنها ستزور فيها أهل البيت . ولكن الفتى لم يستجب لأمه ، وإنما انصرف إلى زياراته الطويلة ، وأحال أمه على ضيفها يزورها ما تشاء من مساجد الأولياء ؛ فلم يكن يرضى عن زيارة النساء لهذه المساجد والمشاهد ، ولم يكن يعجبه تشبثهن بالقبور وتمسحهن بالأضرحة وإلحاحهن على الأولياء فيما كن يطلبن إليهم من قضاء الآراب وتحقيق الآمال ، إنما كان يسمو إلى بركة خير من هذا كله وأبقى . كانت فيه نزعة روحية تريد أن تمتاز ، لولا أنه لم يتهيأ لهذا الامتياز بما ينبغى له من العلم والمعرفة . وكان يجد فى سعيه وكده ، ويتحدث إلى نفسه بأن يوماً من الأيام قد يقبل يظهر فيه الشيخ على ما يبذل فى سبيل العلم والمعرفة من جهد ، فيلقى إليه بفضل من علمه اللدنى الذى لا تسقط

منه قطرة ضئيلة فى قلب من القلوب إلا ملأته حكمة ونوراً . وفى ذات يوم أو فى ذات ليلة ألقى إليه أبوه هذه الكلمة التى لفتته إلى أنه لم يهبط إلى القاهرة لما هو فيه من سعى وجد ، وإنما هبط إليها لشىء آخر . قال له أبوه : إذا كان الغد فلا تخرج حتى ألقاك . قال الفتى : ولماذا ؟ قال علىّ : لأنى فى حاجة إليك . قال الفتى : إنك فى حاجة إلىّ إذا صليت العصر ، أليس كذلك ؟ قال علىّ : بل أنا فى حاجة إليك إذا صليت الصبح . ثم انصرف عنه إلى بعض الأمر . وكان علىّ قد قدّر فى نفسه أنه إذا لم يستوثق من ابنه أول النهار لم يظفر به إلا حين يتقدم الليل . فلما كان الغد صحب ابنه فى زيارته لبعض المساجد ، واستمع معه لبعض الدروس ، وقرأ معه شيئاً من القرآن ، وعاد به إلى البيت بعد أن صليت الظهر فلم يفارقه حتى تم عقد الزواج .

وأدخل الفتى على زوجه بعد أيام ، فلم ينكر شيئاً ولم ينحرف عن شىء ، وإنما سعد بامرأته السعادة كلها ، واستيقن فيما بينه وبين نفسه وفيما بينه وبين ربه أن امرأته بارعة الحسن رائعة الجمال ، خفيفة الروح ، ساحرة الطرف ، خلابة الحديث . وكان كثيراً ما يفزع إلى الله فى أعقاب صلواته ضارعاً إليه ألا يجعل امرأته فتنة له تصرفه عما كان يجد فيه من التقوى والتماس المعرفة . ومع ذلك فقد أنفقت أمه ليلة ساهرة مملوءة بالشقاء ، ونهاراً طويلا حافلا بالآلام ؛ فقد كانت تخشى أن ينفر الفتى من زوجه متى رآها ، وأن يزداد منها نفوراً متى أشرقت الشمس على وجهها الدميم . وكانت تصور لنفسها ما سيجد ابنها من الوحشة وخيبة الأمل فيتفطر قلبها حزناً . وكانت تصوّر لنفسها ما قد يظهره الفتى لامرأته البائسة

وأبويها الخيرين من الاشمئزاز والنفور ، فتمتلىء نفسها ذعراً . ولكنها رأت ابنها سعيداً موفوراً ، ورأت امرأته هانئة محبورة ، فاطمأنت أول الأمر ، ثم لم يلبث اطمئنانها أن استحال إلى شعور غريب ، فيه شيء من خيبة الأمل فى ابنها ؛ فقد كانت تحسب أن له حظًّا من ذوق ، وقد كانت تظن أن له نصيباً من نخوة ، وقد كانت تقدر أنه سيثور غضباً لذوقه الذى امتهن ، وحفاظاً لنخوته التى لم يحفل بها أحد من مزوّجيه . ولكنها ترى ابنها راضياً ناعم البال ، كأنه الشاة تنعم بما يقدم إليها من علف فتمرح وتصيح ، وهى لا تقدّر أن السكين قد هيئ لذبحها فى بعض المكان . ومهما يكن من شيء فقد كظمت أم خالد حدة آلامها وخيبة آمالها ، وصبرت على ما كانت ترى من سخرية زوجها بها ، ومن نظراته تلك التى كان يلقيها إليها من وقت إلى وقت كلما رأى ابنه مسروراً محبوراً ، كأنه يقول لها : أرأيت أنك كنت واهمة كل الوهم ! ألا تعرفين أن كرامة الشيخ لا يعجزها شيء ! إنها تحوّل القبح جمالا ، والدمامة حسناً ، والبغض حبًّا ، والنفور فتوناً . كظمت أم خالد هذا كله فى نفسها ، ولكنها لم تكن من القوة وشدة الأيد بحيث تستطيع أن تحتمل بعض ما امتلأ به قلبها الضعيف ، فلم تمض على زواج ابنها أيام حتى أحست شيئاً من خمود ، وحتى أبغضت القاهرة أشد البغض ، ورغبت إلى زوجها فى العودة إلى المدينة . فلما بلغت دارها أوت إلى غرفتها . وطالت إقامتها فى هذه الغرفة ، ولكنها لم تخرج منها إلا إلى القبر .

٥

وكان علىّ يحب امرأته أشد الحب ، ويؤثرها أعظم الإيثار ، لا يعدل برضاها شيئاً ، ولا يدخر فى سبيله جهداً . ولم تعرف أم خالد أن زوجها قد خالف عن أمرها أو تنكر لها أو خيب لها أملا أثناء هذه الأعوام الطويلة التى قضتها عنده ، بل لم تعرف منه إلا براً بها وعطفاً عليها وفناء فيها . ولولا أن الشيخ أمر بهذا الزواج المشئوم لما صمم عليه ولا ألح فيه ولنزل فى أمره عند إرادة امرأته ، ولكنها عرفت حين تم هذا الزواج على كره منها أن هناك شخصاً هو آثر منها فى قلب علىّ وأكرم منها على نفسه وأحرى ألا تُرَدّ له كلمة .

ولست أدرى أكانت خيبة أملها فى زوجها أشد عليها من خيبة أملها فى ابنها . ولكن الشىء الذى ليس فيه شك هو أن هذه المرأة البائسة قد فقدت فى وقت واحد ثقتها بالزوج وثقتها بالابن ، واستحيت من نفسها أن يكون سلطانها على زوجها قد ضعف إلى هذا الحد ، واستحيت من نفسها أن تقدم إلى جاراتها وأصدقائها فى المدينة هذه الهدية المنكرة التى أهديت إلى ابنها . ولعلها كانت سعيدة بهذا المرض الذى اضطرها إلى غرفتها وحال بينها وبين استقبال الزائرات وقد جئن يهنئنها بما كانت تحدّث نفسها به ، وبما تحدّث كل أم نفسها به ، من الفرح بابنها يوم تزف إليه عروس صالحة بارعة الجمال كثيرة المال . أعفيت من هذا كله ، ولم تستقبل من الزائرات إلا هذه الآلام المبرحة التى لزمت غرفتها ليلا

ونهاراً ، وهذه الحمى الناهكة التى كانت تزورها وجه النهار وآخره . وكان علىّ أشقى الناس بهذا المرض وأشدهم به ضيقاً ، ولكنه لم يكن يقدر أنه سينتهى بامرأته إلى الموت ، ولم يقدر أن إصراره على هذا الزواج كان مصدراً لهذا المرض أو كان مصدراً من مصادره . ومع ذلك فقد أحس ذات يوم أن امرأته فى آخر لحظة من لحظات الدنيا وأول لحظة من لحظات الآخرة ، فجزع لذلك جزعاً شديداً كاد يخرجه عن طوره ، لولا أنه كان مؤمناً حقاً . وقد أقبل على امرأته يستغفرها ما يمكن أن يكون قد قدّم إليها من خطيئة أو جنى عليها من ذنب ، ويسألها وصوته يرتجف ودموعه تغمر لحيته أن تدعو الله له بخير ليعلم أنها عنه راضية . قالت فى صوت نحيل ضئيل : ليكن مرضى وموتى كفارة عما جنيت بتزويج ابننا من هذه الفتاة . قال علىّ ، وقد كاد صوته يحتبس فى حلقه : فإنه أمر الشيخ . قالت : وليكن مرضى وموتى كفارة عن الشيخ أيضاً .

وقد عمر علىّ بعد موت امرأته عمراً طويلا كما سترى ، ولكنه لم ينس أم خالد فى يوم من أيامه ، ولم يقدر قط أن الموت قد فرق بينه وبينها ، وإنما استيقن دائماً أنها زوجه وأنها تعيش معه فى داره ، وأنها قد اتخذت لنفسها من قلبه مكاناً استقرت فيه فلا تبرحه . وأكثر من هذا أن علياً لم يستطع حياة الرجل الأعزب ولكنه لم يقدم على الزواج حتى أمره الشيخ أو أمر ابنه بذلك ، فقال لخالد ذات ليلة : يا خالد ، زوج أباك كما زوجك ، فإنه لا يقدر على حياة الرهبان . وأذعن علىّ لهذا الأمر راضياً ، فقبل من ابنه الزوج التى اختارها له بأمر الشيخ ، كما قبل ابنه منه الزوج التى اختارها له بأمر الشيخ . ثم اختلفت الخطوب على أبى خالد فاستكثر

من الزوجات ، واستباح ما رخص الله فيه للمسلمين من تعدد الزوجات . وكان يتحدث إلى الناس فى شىء من التبجح الذى كان يزداد كلما تقدمت به السن بأن الله قد أذن للمسلمين فى أن يتزوجوا ما طاب لهم من النساء مثنى وثلاث ورباع ، وأنه مصمم على أن يأخذ حقه من ذلك كاملا ، فيمسك فى داره أربع زوجات لا ينقصن لأن هذا حقه ، ولا يزدن لأن الله حرّم هذه الزيادة . ومع ذلك فلم يكن يمسك فى داره إلا ثلاث زوجات ؛ فإذا سئل عن الرابعة قال وعلى ثغره ابتسامة حزينة : وأم خالد ماذا تصنعون بمكانها منى ؟ وكان علىّ قد احتجز غرفة أم خالد كما تركتها لم يغير منها شيئاً ؛ وكان حريصاً على العدل بين نسائه ، فكان يقسم لكل واحدة منهن ليلة من لياليه ! فإذا أعطى كل واحدة منهن ليلتها أوى إلى غرفة أم خالد فأنفق فيها ليلة زوجه الأولى مصلّياً قارئاً داعياً واهباً هذا كله من جهده الصالح لأم خالد ، لا يفارق غرفتها ولا يتحول عن القبلة ولا ينقطع عن الصلاة والدعاء إلا أن يغلبه الإعياء والنوم . وكثيراً ما أقبل خادمه محمود يحمل إليه قهوته بعد أن تشرق الشمس فى غرفة أم خالد ، فيراه مكبّاً على وجهه قد أدركه النوم فى سجوده فلم يتحول ، أو يراه مضطجعاً فى مكانه الذى كان يصلى فيه قد أدركه الإعياء فنام حيث هو ولم يرد أن يأوى إلى الفراش .

ولم تزل هذه حاله حتى أدركته الشيخوخة المضنية . ونظر ذات يوم فإذا هو أعزب لا زوج له ، قد تفرق عنه نساؤه بالطلاق أو بالموت ، وقد كثر بنوه وبناته وحفدته ، وتفرقوا عنه لكل منهم أسرته وأهله . وثاب هو إلى غرفة أم خالد فأقام فيها لا يريم ، يختلف إليه خادمه بما يحتاج

إليه ، ويختلف إليه أبناؤه وبناته يزورونه وهو ملازم لهذه الغرفة ؛ لأنه قد نذر إن أقدره الله أن يموت حيث ماتت أم خالد . وقد أقدره الله فمات حيث ماتت أم خالد . ونظر بنوه فى وصيته ، فإذا هو يأمر بنيه أن يدفنوه مع أم خالد ، وأن يفعلوا بعد ذلك ما يشاءون ؛ فهم يعرفون ما يأتون من الأمر وما يدعون ، وهم يعلمون أن لله عليهم حقوقاً ، وأنه سيسألهم عن هذه الحقوق .

٦

وقد رزق خالد من زوجة صبيه سماها سميحة ، وأراد الله أن تكون هذه الصبية هى التى تكشف الغطاء عن عقل أبيها وذوقه ونفسه ، وتحمل كثيراً من أهله وذوى مودته أن يعجبوا من هذه الحكمة البالغة ، ومن هذه الأسرار الغامضة التى تكتنف الناس فى كل ما يأتون وما يدعون ، وفى كل ما يضطرون إليه من الأمر . فقد كانت سميحة آية فى الجمال ، ولا سيما حين تقدمت بها السن شيئاً ، وأصبحت صبية تدرج فى البيت . لم يحفل خالد بمنظرها أول الأمر ، شغل عن ذلك بشعور الأبوة وحنان الزوج . إلا أنه ذات يوم أخذ ابنته بين ذراعيه فضمها إليه وقبلها ، ثم نظر فى وجهها فأطال النظر ، ثم التفت إلى المرآة فنظر إلى وجهه وأطال النظر ، ثم التفت إلى امرأته فألقى عليها نظرة خاطفة ، ثم وضع الصبية على الأرض وقال لامرأته فى صوت يقطعه ضحك عال مرّ : هذا غريب ! من أين لهذه الصبية هذا الجمال ؟ ليس وجهى بالرائع ، وإن وجهك لبشع ، فمن أين لها هذا الجمال ؟ ! ووقعت هذه الكلمة من قلب نفيسة موقع الخنجر حين يطعن به عدو عدوًّا ، فلم تقل شيئاً ، وإنما أجهشت بالبكاء ساعة ، ثم أوت إلى غرفتها فلزمتها أياماً . ولكنها منذ ذلك اليوم أحست أنها أصبحت لزوجها عدوّا .

والحق أن زوجها منذ ذلك اليوم قد تحوّل تحوّلا منكراً ، فكان يطيل النظر إلى ابنته ، ويخطف النظر إلى زوجه ، ثم تبلغ القسوة به

أبشع أطوارها ، فهو يفصّل ما فى ابنته من محاسن ، ويوازن بينها وبين ما فى امرأته من مقابح : يوازى بين الأنف والأنف ، وبين الفم والفم ، وبين الجيد والجيد . يفعل ذلك فيما بينه وبين نفسه ثم لا يملك أن يجهر به ، وإذا هو يتحدث إلى امرأته بما فى وجه ابنته من حسن ، وبما فى وجهها هى من قبح . ولا يزال كذلك حتى ينغص عليها ، وإذا هى تجهش بالبكاء وتسرع إلى غرفتها وإذا بكاؤها يدفعه إلى الضحك ، وإذا فرارها يملأ قلبه اطمئناناً ورضا .

وكانت نفيسة حاملا حين رُفع الحجاب عن زوجها . فلما شق عليها ما رأت منه وشق عليه إلحاحه عليها بما تكره ، رغبت إليه ذات يوم أن ترحل إلى القاهرة لتنتظر طفلها بين أبويها ، فلم يتردد فى الإذن لها ، بل قال مبتسما : وتحملين سميحه معك ، ذلك أحرى أن ينسينى ما أنا فيه من إثم ؛ فإن بينك وبينى عقدة فرض الله علىّ أن أرعى حرماتها . ولم تمض إلا أيام حتى كان خالد قد هبط بامرأته إلى القاهرة ، فأنزلها عند أبويها ، وقضى فى الأسرة أسابيع متجملا متحملا متكلفاً ما تعود أصهاره أن يروا منه من حب لابنتهم ورفق بها ، ملحاًّ فى زيارة المساجد والمشاهد ، يلتمس فيها العلم والمعرفة ، ويلتمس فيها الموعظة والبركة . ولكنه يحس ، ويا شر ما يحس ! يحس أنه لا يكتسب علماً ولا معرفة ، ولا ينتفع بموعظة ، ولا يجد هذا الروح الذى كان يجده كلما ألمّ بمقام من مقامات أهل البيت ، ولا يجد هذا الطموح إلى قطرة يلقيها الشيخ فى قلبه من هذا العلم اللدنى فتملأ قلبه حكمة ونوراً ، وإنما يحس الحاجة إلى أن يطوف فى القاهرة لا يلمّ بمساجدها ومشاهدها ، وإنما ينظر إلى

ما فيها ومن فيها من الأشياء والأحياء ، و يوازن بين هذه المدينة الضخمة الكبيرة وبين مدينته تلك المنكمشة على ضفة النيل فى بعض الأقاليم . وقد تنازعه نفسه إلى أماكن كانت تذكر له أحياناً من تلك الأفواه الغاوية ، ولكنه يسرع إلى نفسه أن عقدة قد فرض الله عليه أن يرعى حرماتها . ثم يسرع إلى متجر صهره كأنما يأوى إليه وإلى صاحبه يستجير بهما من هذا الخاطر الآثم الذى مرّ بضميره ساعة من نهار . هناك يقيم مع صهره وأعوانه سامعاً لما يقولون ، مشاركاً فيما يديرون من حديث ، آخذاً معهم فى بعض العمل كأنه من أهل المتجر ، ثم يروح مع حميه إلى البيت فلا يخرج منه إلا إذا كان الغد . وكثيراً ما كان يلوم نفسه أشد اللوم على سيرته هذه الآثمة مع امرأته هذه البرة ؛ فهى لم تخلق نفسها وإنما خلقها الله : فإنكاره صورتها إنكار لما خلق الله ، فيه إثم قد ينتهى بصاحبه إلى الكفر . وهى لم تدعه إلى أن يتخذها زوجاً، ولم تعرفه إلا بعد أن أحكمت عقدة الزواج ، وإنما هو الذى هبط إليها من أقصى الإقليم . ثم هى لم تره منذ عرفها إلا خيراً ، لم يعرف منها إلا البر به والنصح له والطاعة فى كل ما أراد . فماذا جنت عليه أو ماذا قدمت إليه ؟ وما بالها يجزيها من الخير شرًّا ، ومن العرف نكراً ، ومن البر عقوقاً ؟! ثم هى لم تخلق ابنتها جميلة كما هى ، وإنما خلقها الله والله يخرج الحى من الميت ، ويخرج النهار من الليل ؛ فلم لا يخرج الصبية الجميلة من الأم الدميمة ! . ولو قد خيرت « نفيسة » لاختارت أن تكون ابنتها جميلة كما هى . فماذا ينقم منها ؟ وماذا يعيب عليها ؟ وما هذا الإثم البشع الذى يدفعه إلى أن يفسد ما بين الأم وابنتها الصبية الناشئة ، وأن يوقد فى هذا القلب الكريم

الرحيم هذه النار المنكرة الآثمة : نار الحسد والحقد والغيرة ، وأن يغرس في هذا القلب النقي الطاهر البريء هذه الشجرة الخبيثة : شجرة الغرور والفتون والاستعلاء حتى على الأمهات . يغرس هذه الشجرة الخبيثة في قلب صبية لم تبلغ بعدُ الثالثة من عمرها ؛ فكيف بها إذا تقدمت بها السن ومازت الجمال من القبح ، وعرفت ما يحيط بالفتيان والفتيات من هذه الأهواء الجامحة !

كثيراً ما كانت هذه الخواطر تملأ قلب خالد فتملأ نفسه خزياً واستحياء . هنالك كان يذكر أمه حين كانت تزعم له أن الشباب لا ينبغي أن يطلبوا عند أزواجهم الحسن الذي يدعو إلى الفتنة ، والجمال الذي يدفع إلى الموبقات ، وإنما ينبغي أن يطلبوا إلى أزواجهم القرين التي تسد عن الوحدة ، وترزق الولد وتقوم على تربيته ، وتدبر المنزل وتحيط زوجها بما يحتاج الرجل إليه من الرحمة والبر والحنان . وكان خالد يترحم على أمه ، ويسأل نفسه فيم كانت تتحدث إليه بهذه الأحاديث ؟ ألم تكن تكره هذا الزواج وتشفق على ابنها من قبح زوجه ؟! ثم يأبى خالد أن يتعمق هذه الخواطر ، وإنما يسرع إلى المصحف فيقرأ فيه سوراً من القرآن يهب ثوابها لأمه ، ثم يقبل على زوجه رفيقاً بها عطوفاً عليها حتى ينسيها أو يكاد ينسيها ما يمزق قلبها من الألم . وكذلك عاد خالد إلى المدينة ، وترك امرأته عند أبويها وقد ظن أنها راضية ، واعتقد أنه هو راض ، واستيقن أنه سيلقى امرأته أحسن لقاء متى أقبل الوليد الذي ينتظرانه ، وسيستأنفان حياتهما كما كانت حلوة هادئة لا يكدّر صفوها شيء . ولا يكاد يبلغ المدينة حتى يسرع إلى الشيخ فيزوره ،

ثم يكثر من زيارته يلتمس عنده البركة والسكينة التى ينزلها الله على القلوب فيملؤها رحمة وعطفاً واطمئناناً للأحداث ، وعزاء عن الملمات ، وثباتاً للخطوب .

وتمضى الأشهر ويأتى النبأ من القاهرة بأن نفيسة قد رزقت زوجها صبية أخرى ، وأنها سمتها جلنار ، فيبتهج خالد وأبوه بنعمة الله . وكان خالد يود لو رزقته امرأته غلاماً ، وكان على يود لو جاءه ابنه بغلام . ولكن الله قد أراد ، وإرادة الله نافذة ، والحق على المؤمنين الصادقين أن يقبلوا نعمة الله شاكرين . والشيخ ينظر ذات ليلة إلى الأب وابنه نظرة فيها كثير من سخرية وتأنيب ، وهو يقول لهما : « حسنة وأنا سيدك » أليس كذلك يا على ؟ أليس كذلك يا خالد ؟ إن فقراء الترك يقولون هذا لأغنياء المصريين ، فأما أنتما فلا تقولان هذا لغنى من الناس ، وإنما تقولانه للغنى عن الناس وعن كل شىء . ليصومن كل منكما سبعة أيام وليطعمن كل منكما أهل الحلقة فى هذا الأسبوع ، وليصلين كل منكما ، وليدعون وليستغفرن حتى أوذنه بأن الله قد تاب عليه ، سأعرف ذلك فى وجوهكما . ثم يتحول عنهما فيقيم الذكر . وقد أدى كل منهما ما أمره الشيخ بأدائه ، فصام كل منهما ودعا وتصدق واستغفر الله ، ولعل كلا منهما بكى واستعبر . وهما يروحان على الشيخ فى كل يوم ، فينظر الشيخ فى وجوههما ثم يتحول عنهما لا يقول لأحد منهما شيئاً . وفى ذات يوم ينظر الشيخ إليهما وقد عرف فى وجوههما الحزن والندم وقال : اجتهدا لعل الله أن يتوب عليكما . ومهما يجتهد الأب وابنه ، فقد يظهر أن الله لم يتب عليهما لأنهما يصومان ويصليان ويتصدقان ويدعوان وفى قلب

كل منهما خاطر ضئيل ، ضئيل جدًّا لا يكاد يحس : لو رزقنا الله غلاماً مكان هذه الصبية .

ثم يهبط خالد إلى القاهرة ليرى ابنته ويردّ أهله إلى المدينة . فإذا بلغ القاهرة وأدخل إلى أهله وقدمت إليه الصبية ، نظر فى وجهها ثم نظر فى وجه امرأته ، ثم جهر بقراءة آيات من القرآن يرد نفسه إلى الأمن وقلبه إلى الاطمئنان ! ويمسك نفسه أن تخرج عن طهورها ؛ فقد رأى ويا نكر ما رأى ، رأى ابنته الثانية صورة مطابقة لأمها أشد المطابقة ، وقد تكلف الاستبشار والرضا . وأحست منه زوجه ما أحست ، فلم تظهر شيئاً . ثم خلا إليه حموه فقال : اصبرْ نفسك على ما تكره يا بنىّ فإن الله يمتحن عباده المؤمنين بالصبر . وأقسم لقد نهيت أباك عن تزويجك من ابنتى فإنها لم تخلق للزواج . وأقسم يا بنىّ لقد رحمتك وأشفقت عليك وتحدثت إلى أبيك فى ذلك ، ولكن لله أمراً هو منفذه وحكمة هو بالغها .

قال خالد وقد ثاب إلى عقله كله وقلبه كله : فإنى لا أفهم عنك ما تقول منذ اليوم . علامَ أصبر وفيم أمتحن وما رأيت منك ولا من زوجى إلا خيراً ، وما أنكرت شيئاً وما ينبغى أن أنكر شيئاً ! ؟ أفترى نفيسة قد شكت إليك بعض قسوتى عليها فى الدعابة والمزاح ؟ فإنى معتذر إليك وثائب إلى الله من هذا الإثم العظيم .

قال عبد الرحمن وهو يقبل ختنه : لا والله يا بنىّ ما شكت إلى نفيسة شيئاً ، وما علمتك إلا برًّا كريماً وابن أخ بر كريم . ومنذ ذلك اليوم أنزل الله السكينة على قلب خالد ، فثاب إلى أهله وابنتيه كأحسن ما يثوب الزوج الصالح والأب العطوف .

٧

على أن للشيطان فى قلب كل إنسان مكاناً يصغر ويكبر ويتسع ويضيق بمقدار حظه من الخير ونصيبه من رضا الله وبره به ، وبمقدار اجتهاده فى الدين ، وحرصه على التقوى ، وإيثاره للخير والمعروف . ولكن هذا المكان موجود دائماً فى قلوب الناس يبتلون به فيما يأتون من الأمر وما يدعون . وقد اجتهد خالد فى الدين ما وسعه الاجتهاد ، وآثر الخير والمعروف ما استطاع ، ولكن مكان الشيطان ما زال مستقرًّا فى قلبه لأنه لا يزول إلا من قلوب الأنبياء والصديقين . والشيطان ماكر ماهر فى المكر يحسن الاستخفاء بمكره وغدره ، ويبرع حين يلبس الحق بالباطل ، وحين يزين الشر فى قلوب الناس ، وحين يخدع الرجل عن نفسه وعن أحب الناس إليه وآثرهم عنده . وقد كان الشيطان ماكراً ماهراً فى سيرته مع خالد ؛ فقد استخفى فى ثنية من ثنايا قلبه وعطف من أعطاف نفسه أسابيع وأشهراً ، لا يحدثه بقليل ولا كثير فيما بين سميحة وأمها من الاختلاف ، ولا يحدثه بقليل ولا كثير فيما بين جلنار وأمها من التشابه المروع ، وإنما يستخفى فى زاوية من زوايا نفسه ، حتى إذا أقبل خالد على ابنته الصغرى يريد أن يلاعبها أو يداعبها أو يلثمها أو يشمها انسل حتى يدنو من الصبية ، فلا تكاد الصبية تبتسم إلا غشى ابتسامتها البريئة الحلوة بتقلصه المنكر البغيض الذى يسميه ابتساماً . ولا تكاد الصبية تقطب وجهها لما يقطب له الأطفال وجوههم إلا اتخذ الشيطان أبشع

ما يؤذن له أن يتخذه من الصور وعرضه دون وجه الصبية ، فتقع عليه عين خالد ، وإذا لسانه يوشك أن يتلو الآية الكريمة المروعة : (طلعها كأنه رءوس الشياطين) . ولكنه يمسك لسانه فى جهد شديد ، ويمسح رأس الصبية وهو يتلو آية الكرسى كأنه يحصّن بها الطفلة من كل خوف ، وهو إنما يحصّن نفسه من هذا الروع المروع الذى أشاعه الشيطان فى قلبه . ولا يكاد الشيطان يسمع الحروف الأولى من هذه الآية حتى ينسل فزعاً مذعوراً . ولكن فزع الشيطان قصير الأجل ، وحيلة الشيطان طويلة المدى ؛ فهو لا ينسل إلا ريثما يبلغ الصبية الكبرى « سميحة » ذات الحسن الرائع والمنظر الأنيق ، فيدفعها إلى أبيها ، فتندفع فرحة مرحة ، وإذا خالد البائس بين أجمل وجه خلقه الله ، وأقبح وجه خلقه الله ، وإذا هو مضطر إلى أن يلقى نظرة إلى تلك ، وإذا هو مضطر إلى أن يفكر فى امرأته فيلحظها لحظة خاطفة ثم ينصرف مسرعاً رافعاً صوته بآية الكرسى ، حتى إذا بعد عن أهله شيئاً أخذ المصحف وفزع إليه بعد أن يستعيذ الله من الشيطان الرجيم . وكذلك كانت حياة خالد عذاباً متصلا بين ابنتيه وزوجه ، يدفعه إليهن الحب والبر والعطف ، ويصرفه عنهن الشيطان بما يتنكر من صور ما يزين فى قلبه من شر ، حتى أصبح لا يجد الراحة ولا الأمن إلا إذا خرج من داره وتحدث إلى أصدقائه وأترابه . وأية راحة وأى أمن ! فقد كان الشيطان يألف أصدقاء خالد وأترابه . وما أكثر ما يألف الشيطان من الناس ! وكان يطلق ألسنتهم بكثير من القول ، فيه الإغراء بالمنكر ، وفيه الصرف عن المعروف ، وفيه هذه الأحاديث التى يألفها الشباب فى القرى عما يأتون وما يدعون إذا خلوا

إلى أهلهم ، ثم فيه هذه الأحاديث التى تمتلئ بالأمانى الآثمة والأحلام التى نسجت من الخطايا نسجاً . فيه هذه الأحاديث التى يظهر فيها الخير والطاعة ويستتر فيها الإثم والفجور : أحاديث الاستكثار من الزوجات والتنقل بينهن إرضاء للشهوات الجامحة والغرائز التى ليس للعقل عليها سلطان ، وحديث الطلاق واستبدال زوجة مكان أخرى للأسباب الهينة والأسباب ذات الخطر . كل هذه الأحاديث كان الشيطان يطلق بها ألسنة الأصدقاء والأتراب الذين كان خالد يلقاهم إذا خرج من داره ، فلا يكاد يسمع منها شيئاً حتى يذكر امرأته وصورتها المنكرة ، وإذا نفسه تنازعه إلى الطلاق ، فيستحى منه ويرحم ابنتيه ، وإذا نفسه تنازعه إلى الزواج فيستحى منه ويذكر حماه فى القاهره وأباه فى المدينة ، ويرحم امرأته وابنتيه من هذه القسوة التى لم يعرض ما يدعو إليها ، ويسأل نفسه عن مكان امرأته الوفية من زوجه تلك التى يمكن أن تطرأ على داره ، وعن مكان ابنتيه هاتين البريئتين من زوجه الطارئة وممن عسى أن ترزقه من بنين وبنات . ثم يسأل نفسه عن نفسه وكيف يكون بين هاتين الزوجين ، وكيف ينصفهما من حبه وقلبه ، وكيف يرضى الله عن عدله بينهما ، والله قد طلب إلى المسلمين هذا العدل ، وبين لهم أنه عسير . وقد كان خالد على ذلك كله معذباً فى حياته بهذه الأهوال التى يكبرها له الشيطان ويجسمها فى نفسه تجسيما ، كما كان معذباً بشبابه القوى وفتوته الثائرة ، وبهذا الشر الجديد الذى ابتلى به ؛ فقد صرف عن زوجه صرفاً ، لا يكاد يراها إلا تولى عنها أسفاً محزوناً . فإذا خلا إلى نفسه جلى الشيطان له أجمل النساء وجهاً ، وأحسنهن قواماً ، وأشدهن

للرجال فتنة ، وما زال يغريه ويغريه حتى يهمّ بهذه الصور الرائعة التى تتراءى له ، فإذا همّ لم يجد إلا ظلالا ووجد عندها ندماً أليماً .

ولم يكن عبث الشيطان بنفيسة أقل من عبثه بخالد ، ولكنه كان من نوع آخر ؛ فلم يكن الشيطان يغريها بفتنة ولا يدعوها إلى إثم ، وإنما كان يعرض عليها صورتها البشعة فى كل وجه توجه إليه طرفها ، ثم يعرض عليها نساء حساناً رائعات الحسن ويلقى فى رُوعها أن زوجها يتمثلهن ويفكر فيهن ويتمناهن ، وأن أصدقاءه وأترابه والنساء من أسرته يغرونه على الزواج ويحرضونه على أن يدخل عليها فى دارها ضرة ، ثم يصور لها حياة الضرائر وما يكون من هذا الحقد البغيض والتنافس المنكر فى أحط ما يتنافس فيه ، وما يكون بينهن من الكيد والغدر ، وما يدفعن إليه من الإثم والخزى . وكان الشيطان يتبع نفيسة حيثما وجهت من دارها ، فلا تكاد تلقى زوجها حتى يصوّره الشيطان لها منصرفاً عنها ضيقاً بها زاهداً فيها ، فلا تكاد تسمع صوت زوجها حتى يخيل الشيطان إليها أن هذا الصوت يقطر بغضاً لها ونفوراً منها . وكان الشيطان مع ذلك يذكى فى نفسها غرائز الحب ، فإذا هى لم تكلف قط بزوجها كما تكلف به الآن ، ولم ترغب فى التلطف له والرفق به كما ترغب فيهما الآن ، ولم تحتج قط إلى حنان زوجها وعطفه كما تحتاج إليهما الآن ، وكل ذلك مصروف عنها أشد الصرف وأقساه ، وكذلك أصبحت الحياة جحيما بين الزوجين . ويروح خالد على أهله ذات ليلة ، فإذا صعد فى السلم سمع نشيجاً مؤلماً ، فيسرع الخطو ، وإذا هو أمام امرأة قد نثرت شعرها ، ومزّقت ثوبها ، وخمشت وجهها حتى أسالت منه الدم ، وهى تضرب

صدرها ضرباً عنيفاً ، وتنتحب انتحاباً يفطر القلوب ، فيقف خالد واجماً أوّل الأمر ، ثم يرفق بامرأته ، ولا يزال يسألها عن أمرها حتى تجيبه فى شهقتين : تمثلتْ لى الليلة امرأة زعمت أنها جنية البيت ، وأنها تسكن فى حنايا السلم ، وزعمت لى أنك قد تزوجت اليوم أو أنك متزوج غداً . ثم تعود إلى شهيقها فتغرق فيه ، وإلى وجهها وصدرها فتشبعهما لطماً وصكّاً ، وخالد يضرب إحدى يديه بالأخرى ويقول : إنا لله وإنا إليه راجعون ! !

ولم ينم خالد من ليلته ، وإنما قام عند امرأته ذاكراً لله تالياً للقرآن ، داعياً مستعيذاً من الشيطان ، واضعاً يده على رأس نفيسة ، مؤمناً بأن هذه الآيات والأدعية التى كان ينطلق بها لسانه فى صوت مرتفع بعض الشىء فيه كثير من الإيمان وكثير من الخوف ، لا تصدر عن فمه فتشيع فى الغرفة وتطرد الشياطين فحسبُ ، ولكنها تصدر عن جميع جوارحه بعد أن تجرى مع دمه فى عروقه كلها كأنها الروح اللطيف الحار . وليس من شك فى أن طرفاً منها يصل إلى هذا الرأس المتقد المضطرب ، ثم يجرى فى جسم نفيسة كله فيشيع فيه برد الراحة وحلاوة الأمن والهدوء .

والواقع أن نفيسة أقامت على ثورتها وانتحابها حيناً ، ثم أخذت رعدتها تخف ، ودموعها تجف ، وشهقاتها تهدأ وتفصل بينها لحظات طوال أو قصار ، حتى إذا مضت ساعات من الليل كانت نفيسة قد فقدت قوتها ونشاطها ، ولبثت فى مكانها هامدة جامدة ، ثم هوت إلى جنبها كأنها البناء المنهار . ولم يشك خالد فى أن رَوْحاً من الله قد مسها فردها إلى الدعوة والهدوء . ولكنه على ذلك لم يتركها ، وإنما جلس منها غير

بعيد ، ومضى فى ذكره لله وتلاوته للقرآن ، واستعاذته من الشيطان . وحسناً فعل ؛ فلم يكد يصيح الديك حين قارب الليل ثلثيه حتى هبت نفيسة مذعورة ، ثم نهضت قائمة ، وأخذ صوتها يرتفع بالنشيج ، وأخذت يداها تعملان فى وجهها وصدرها لطما وصكًّا . هنالك وثب خالد كما وثبت ، ثم أسرع إليها فأجلسها ، وقام منها مقامه أول الليل ، يدُه على رأسها ، ولسانه ينطلق بالقرآن والدعاء . وبعد لأى ثابت إلى الهدوء ، ولبث هو قائماً يذكر ويتلو ، حتى سمع صوت المؤذن يرجع « سبحان فالق الإصباح » . وقد أقام مكانه حتى رأى الشمس تسعى إلى الغرفة فى استحياء ، ثم يزول عنها الحياء قليلا وإذا هى تغمر فى جرأة أشبه شىء بالوقاحة . كذلك كان يفكر خالد فى إشراق الشمس ودخولها إلى غرفته ذلك الصباح . ومع ذلك فما أحب شيئاً قط كما أحب شروق الشمس ، ولا داعبت نفسه شيئاً قط كما داعبت هذا الضوء الضئيل الذى ينفذ من الأفق كأنه السهم ، ثم لا يزال يمضى أمامه ويمتد من جميع أقطاره حتى يوقظ الأرض والسماء جميعاً ، ويملأ ما بينهما بهجة وجمالا . ولكنه كان فى ذلك اليوم مثقل القلب والنفس بحزن يشبه الموت ، ولولا فضل من إيمان وبقية من تقوى وهذا القرآن العذب الذى كان يرتله ترتيلا لثارت نفسه ولانتهت به الثورة إلى جموح يخرجه عن طوره ويدفعه إلى ما لا صلاح له من الأمور . وما الذى جنى من الذنب وما الذى اقترف من الإثم حتى يمتحن فى نفسه وأهله وعمله إلى هذا الحد ؟ ؛ إنه لم يطلب إلى أحد أن يزوجه ، ولم يفكر فى الزواج ، ولم يختر زوجه حين دعى إلى أن يتزوج ؛ وإنما تتابعت الأمور عليه كأنها الصواعق يقفو بعضها

إثرَ بعض ، وإذا هو فى القاهرة ، وإذا هو زوج ، وإذا هو بعد ذلك أب مرتين ، وإذا كل ذلك لا يذيقه إلا سروراً قليلا وحزناً كثيراً . ولكن قضاء الله لامرد له ، وحكمة الله لا تأويل لها ، والمؤمن حقًّا هو الذى يذعن للقضاء ويصبر على المحنة ، ولا يسأل الله عما يفعل فهذا كفر به وشك فيه ، ولا يسأل الله رد القضاء فقضاء الله لا يرد ، وإنما يسأله اللطف فيه ، فالله لطيف بعباده ، وقد قال : (ادعُونى أستجب لكم) . وخالد يدعوه ويدعوه ، لا يفتر لسانه عن ترديد هذين الدعاءين اللذين تجرى بهما ألسنة الشيوخ فى الريف : « اللهم الطف بنا فيما جرت به المقادير . اللهم إنا لا نسألك رد القضاء ولكن نسألك اللطف فيه » . وقد رأى امرأته آخر الأمر هادئة مطمئنة تبسم لضوء الشمس ، لكنها ساكتة لا تنطق بحرف ، ساكنة لا تأتى حركة . فلما سألها عن حالها لم تجبه كأنها لم تسمعه . فأعاد عليها السؤال مرة ومرة ، ولكنه لم يسمع لسؤاله جواباً . ولم ير أمامه إلا تمثالا بشعاً على وجهه ابتسامة بشعة تزيده قبحاً وتشويهاً ، وقد امتدت عيناه كأنما تنظران إلى شىء بعيد لا يرى ، وهو كذلك هامد جامد كأن ليس له حظ من حياة . هنالك انسل خالد من غرفته فى رفق وأسرع إلى أبيه ، فإذا هو جالس فى مصلاه من غرفة أم خالد يسبح ويحمد ويكبر ، وأمامه كأسان من القهوة وقطعة من الخبز الجاف وقليل من الملح ، لم يمدد إلى شىء من ذلك يده بعد لأنه لم يزل فى صلاته ودعائه . فلما رأى ابنه مقبلا ولم يكن تعود أن يراه فى مثل هذه الساعة من النهار ولا فى مثل هذا المكان من الدار ، رفع صوته بما بقى من فمه من الدعاء والتسبيح : الله أكبر كبيراً ، والحمد لله كثيراً ، وسبحان الله وتعالى

بكرة وأصيلا ، ثم تحوّل إلى ابنه وهو يقول : أصبح بخير يا ابنى ! ما وراءك ؟ قال الفتى فى صوت منخفض : أصبح بخير يا أبت ! إنْ ورائى إلا خير ، فقد ألم بنفيسة بعض المرض . قال علىّ : وما ذاك ؟ قال خالد : أحسب أن طائفاً من الشيطان قد مسها ، ثم قص على أبيه الخبر فى جمل قصار والشيخ يصغى إليه فى شىء من الوجوم . فلما فرغ الفتى من حديثه لم يزد الشيخ على أن قال : ألهمك الله الصبر يا بنى وغفر لى ورحم أملك ! فقد أنبأتنى يوم زواجك بأنى لا أزيد على أن أغرس فى دارنا شجرة البؤس . ثم أراد الشيخ أن يكون شجاعاً فهمّ أن يمد يده إلى قطعة الخبز ولكنها لم تمتد . فهم أن يمدها إلى كأس القهوة ولكنها لم تمتد ، وإذا عيناه تغرورقان بالدمع ، وإذا هو يقول فى صوت متقطع فى حلقة : « اللهم إنا لا نسألك رد القضاء ، ولكن نسألك اللطف فيه » . وابنه يجثو بين يديه خاشعاً ، فقبل رأسه صامتاً ، ثم يتحوّل عنه فيقدم إليه إحدى كأسى القهوة فيأخذها منه ، ويتناول هو الكأس الأخرى ، فيشربان كأنهما الصديقان . ولم يكن خالد قد شرب القهوة بمحضر أبيه قبل اليوم . وقضت الدار نهاراً غريباً ؛ رجلان يختلفان إلى غرفة نفيسة ، كلاهما يتلو القرآن ويجأر بالدعاء ، وعمات خالد ونساء أبيه قد ملأن الدار يطوّفن بالبخور مهمهمات متمتمات ، منهن من تدعو الله ومنهن من تدعو الشيطان . وقد اجترأت إحداهن فذكرت حفل الزار . ولكن علياً ثار لذلك وزجر النساء زجراً عنيفاً ، وأقسم لتأوينّ كل واحدة منهن إلى غرفتها ، ولينقطعنّ لغطهن الثقيل البغيض . ثم أقام بخالد مع ابنه إلى غرفة نفيسة ، حتى إذا صُليت العصر خرج من الدار يقصد قصر

الشيخ . وقد انتهى إليه، فرآه فى نفر من أصحابه يسمع منهم ويقول لهم . فلما رآه الشيخ مقبلا من بعيد لمحه لمحة خاطفة ثم قال فى صوت هادئ : إن لعلى اليوم لشأناً . وقد عرف القوم أن قد كان لعلى شأن : فقد دنا من الشيخ وألقى فى أذنه بعض الهمس ، وإذا الشيخ ينهض ويأخذ بيد علىّ ، وإذا هما يسعيان إلى باب يفتح لهما فى صدر المجلس ثم يغلق من دونهما ، وقد قص علىّ على شيخه خبر نفيسة ، فاستمع له الشيخ ، حتى إذا فرغ من حديثه يسط الشيخ يديه ورفع رأسه ولم يزد على أن قال : « اللهم إنا لا نسألك رد القضاء ولكن نسألك اللطف فيه » . ثم أطرق وجعل فمه يهمهم وحبات سبحته الغلاظ تساقطُ بين أصابعه ، حتى إذا أتم دورة السبحة رفع رأسه إلى على وقال : وما توفيقى إلا بالله عليه توكلت وإليه أنيب ؛ قم يا بنى فأنبئ عبد الرحمن بمرض ابنته ، فما ينبغى أن يجهله ، وما أشك فى أنه سيقبل مسرعاً . ثم ابتسم وقال : وسيتيح لنا ذلك أن نراه فقد بعد عهدنا به ، ثم نهض ونهض معه علىّ وفتح لهما الباب وأغلق من دونهما ، وإذا الشيخ بين أصحابه قد جلس إليهم يسمع منهم ويقول لهم ، وإذا علىّ منصرف إلى داره ونفسه تتقطع حسرات ؛ فقد كان يظن أن الشيخ سيصحبه إلى الدار ، وسيدخل على نفيسة ويدعو لها بالشفاء . ولو قد فعل لردتُ نفيسة إلى خير ما كانت عليه من الصحة والعافية .

٨

أقبل عبد الرحمن بعد أيام وفى نفسه قلق لم يبلغ الجزع . فلم يكن علىّ قد أنبأه بأكثر من أن ابنته مريضة ، ومن أن من الخير أن يراها وأن تراها أمها . وكان عبد الرحمن رجلا جلداً صبوراً عظيم الاحتمال ، قد امتحنته الأيام فى ابنيه جميعاً ، فلم ينخلع قلبه ، ولم يخرج من وقاره المألوف ، وإنما بلا مرارة الحزن إلى أقصاها واصطلى نار الألم إلى أشدها ، وهو ثابت لا يضطرب ، وقور لا تزدهيه الخطوب ، يرحمه الناس ولكنهم يعجبون به ويعجبون منه . وهو ماض فى حياته ، محتمل لأثقالها ، ثابت لعواصفها ، يشهد الصلوات الخمس فى المسجد ، ويتلو ورد السحر فى آخر الليل ، ويختلف إلى متجره وجه النهار وآخره ، فيعمل ويرى أعوانه يعملون ، قليل الكلام كثير الصمت ، لا يغفل قلبه عن ذكر الله ، ولا تنسى نفسه أن تستخرج من آلامه مواعظ وعبراً . وهو يرحم امرأته ويشفق عليها ، ويحيطها بشىء من عطف يوشك أن يكون قسوة ؛ فهو لا يحب البكاء كما أنه لم يكن يحب الفرح ؛ وإنما يريد لامرأته أن تكون مثله هادئة ، رزينة كاظمة للغيظ ، صابرة على الخطب مسلمة أمرها إلى الله ، قابلة قضاءه فى رضا ، منتظرة قضاءه فى ثقة . فلما جاءه النبأ بأن ابنته مريضة ، وبأن الخير أن يراها وأن تراها أمها ، لم يظهر امرأته على شىء ، وإنما زعم لها أنه مسافر إلى الأقاليم فى بعض ما كان يسافر له من التجارة . فلما وصل إلى المدينة ولقى علياً وخالداً قال

لهما فى صوته الهادئ وعلى ثغره ابتسامته المطمئنة : لم أخبر أم صالح بشيء ولم أكلفها مشقة السفر ، فإن تكن نفيسة قادرة على الرحلة إلى القاهرة فالخير أن تمرض هناك وأن ترى أمها فى دارها . وإن تكن غير قادرة على الرحلة مرضناها هنا حتى يكون لها حظ من بره فتتم شفاءها فى القاهرة . كذلك قدّرت ولله تقديره ، وهو يقضى فينا بما يشاء . ولم يرد مع ذلك أن يستريح ولا أن يشرب القهوة ، وإنما صمم فى هدوء على أن يرى ابنته قبل كل شيء . قال على : ستراها ولكن . . . قال عبد الرحمن : ولكن ماذا ؟ أتراكما خدعتمانى وأنبأتمانى بمرضها بعد أن بلغ الكتاب أجله ؟ قال على : لا ! ولكن مرضها غريب . قال عبد الرحمن : مرضها غريب ! لقد كانت غريبة الأطوار فى طفولتها وصباها ، أفتراها قد جنت ؟ فأما على فلم يجب . وأما خالد فأجهش بالبكاء . وأما عبد الرحمن فرفع يده إلى جبهته وظل كذلك حيناً ، ثم مسح إحدى يديه بالأخرى وهو يقول : إنا لله وإنا إليه راجعون ، ثم أقام مكانه لم يظهر ميلا إلى لقاء ابنته ، وإنما قال لخالد : اطلب لنا القهوة يا بنى . وأغرق بعد ذلك فى صمته . حتى إذا جاءت القهوة وشرب منها كأسين قام مبتسما : والصبيتان ما خطبهما ؟ قال على ؛ هما بخير ، روعتا شيئاً أول الأمر ، ثم حيل بينهما وبين لقاء أمهما . قال عبد الرحمن فأستطيع أن أراهما ؟ قال خالد : نعم ! ثم غاب ساعة وعاد ومعه ابنتان إحداهما آية فى الحسن والأخرى آية فى القبح . فلما رآهما عبد الرحمن ضمهما وقبلهما ومسح على رأسيهما ، ثم قال لخالد : ردهما إلى لعبهما فقد كانتا تلعبان من غير شك . ولم يكد خالد ينصرف بالصبيتين

حتى انحدرت من عيني عبد الرحمن دمعتان أسرع إلى تجفيفهما وهو يقول : « اللهم عفوك ومغفرتك ورضاك ؛ اللهم إنا لا نسألك رد القضاء ولكن نسألك اللطف فيه » . ثم قال : ألم تر يا على أنى قد أحسنت حين لم أزعج أم صالح ولم أجشمها السفر ؛ فحسبها ما تنتظر من هول . قال على : هوّن عليك أبا صالح ؛ إنما هى محنة وتزول . قال عبد الرحمن : أرجو ذلك إن شاء الله . ولكن مر فلنهيأ للسفر إذا كان الغد ، أما اليوم فإنى أريد أن أزور الشيخ وأن أحدث به عهداً . ثم سكت قليلا والتفت باسماً إلى خالد وهو يقول : « آتنا غداءنا لقد لقينا من سفرنا هذا نصبا » وأقبل القوم على غدائهم وحديثهم ثم على صلاتهم ودعائهم كأن لم يلمّ بهم خطب . فلما اصفر وجه النهار سعوا إلى شيخهم ، فألفوه بين أصحابه يعظهم ويقرأ عليهم بعض الحديث ، فاستمعوا واستمعوا ، وشهدوا معه صلاة العشاءين وما بينهما من دعاء ، وأقاموا معه حلقة الذكر كما كانوا يصنعون من قبل ، حتى إذا تفرقت الحلقة وأخذ الناس ينصرفون ، تثاقل عبد الرحمن فلم ينصرف ولم يظهر ميلا إلى الانصراف ، ورأى الشيخ ذلك منه فأشار إليه أن أقم ، وأشار إلى صاحبيه أن أقيما . حتى إذا خلا لهم وجهُ الشيخ همّ عبد الرحمن أن يتكلم ولكن الشيخ قال : ما رأيت رجلا مثلك يا عبد الرحمن ؛ إن إيمانك لحسن ، وإن دينك لمتين ، وإن أجرك عند الله لعظيم . قال عبد الرحمن : سمع الله لك يامولاى ؛ إنى قد حرصت على أن أظفر منك بهذه الساعة مع صاحبيّ هذين لأشهدك عليّ وعليهما . قال الشيخ : وما ذاك ؟ قال عبد الرحمن : إنى سأرتحل بابنتى إذا كان الغد . قال على وخالد فى صوت واحد : وسنرتحل معك .

قال الشيخ : دعاه يقل . ومضى عبد الرحمن فى حديثه فقال : إن ابنتى لم تعد تصلح زوجاً لخالد ، ولكنى لا أحب الطلاق ؛ لأن الله لا يحب الطلاق . وهم خالد أن يتكلم ، فأشار الشيخ إليه: أن صه . قال عبد الرحمن : فأريد أن أشهدك على أنى سأكفل ابنتى والصبيتين ما حييت ، فإذا مت فإنى أوصى بهن وبامرأتى ومالى كله إلى خالد ، يقوم فى ذلك كله بأمر الله وبما ينبغى من البر بالزوج والولد والصهر وذوى المودة والقربى. ولم يبلغ عبد الرحمن ذلك من قوله حتى كان علىّ وابنه ينتحبان . قال الشيخ : ما رأيت كالليلة قوة ، وما رأيت كالليلة ضعفاً . ثم نظر إلى على وابنه وهو يقول : أما تستحيان ! ثم بسط يده إلى عبد الرحمن وقال : ابسط يدك أبايعك على ما تقول وأنا وكيل خالد ، وتصافح الرجلان . ثم أقبل الثلاثة على الشيخ فقبلوا يده ، ثم صفق الشيخ تصفيقاً خفيفاً ، فلما أقبل الخادم قال الشيخ : أرسل إلينا قهوة ، وقل للشيخ مدكور يغنى لنا :

سائق الأظعان يطوى البيدَ طىّ

وما هى إلا لحظة حتى أقبلت القهوة وأقبلت المجمرة فى شىء من بخور ، وارتفع صوت الشيخ مدكور فى هدوء الليل يغنى فى شعر ابن الفارض الجميل والقوم يشربون القهوة حسواً خفيفاً ، والشيخ يضطرب فى مجلسه اضطراباً خفيفاً ويقول فى صوت همس : الله ! الله ! ثم ينقطع الصوت وينهض الشيخ فيصلى ركعتين ، ويصلى كل من الثلاثة مثله ركعتين ، فإذا أتموا صلاتهم قال الشيخ للجماعة : انصرفوا راشدين ، نراك قبل سفرك يا عبدالرحمن؟ قال عبدالرحمن : لا يامولاى ؛ إنه سفر يحسن الاستعجال به .

٩

عاد علي وابنه من القاهرة بعد أسابيع وفى نفس كل منهما بقية من حزن عميق لم تمحها الأيام ، ولكن نسجت عليها حجاباً أخذ يزداد صفاقة وكثافة من يوم إلى يوم ، حتى أنسى علي أو كاد ينسى نفيسة ، لولا أنه كان يرى خالداً ويذكر أنه يعيش عيشة الفتى الأعزب ، فيرثى له ويفكر فى مستقبل أمره تفكيراً قصيراً ، ولولا أن الشيطان كان يخيل إليه بين حين وحين أن ثروة عبد الرحمن صائرة إليه يوما ما ، فمضاعفة ثروته ، ومصلحة من أمره ما يحتاج إلى الإصلاح ؛ فقد كثر نساؤه ، وأخذ ولده يكثرون ، وأخذت النفقة تزداد وتثقل أعباؤها ، وأخذت الحاجات تكثر وتتنوع وتتعقد . وتجارة علي رابحة من غير شك ، ولكن ربحها يذوب فى هذه الأسرة الكبيرة كما يذوب الملح فى الماء .

وإن العام ليتم دورته ، ويبحث علي عما بقي له من ربحه فلا يجد شيئاً . ولعله أن يجد رأس المال وقد تحيف منه قليلا أو كثيراً ، فيضيق بذلك يوماً أو يومين ، ويغتم له ليلة أو ليلتين ، ولكنه لا يلبث أن ينصرف عن ضيقه وغمه إلى حياته هذه المطردة المضطربة : تجارة أول النهار ، ولغو آخره ، وراحة بين ذلك ، وسهر عند الشيخ إذا كان الليل ، ثم العودة إلى داره ليقضي بقية الليل عند هذه أو تلك من نسائه ، يسمع منها أبغض ما يسمع الرجل من امرأته : شكاة من هذه ، ونعياً على تلك ، وعيباً للثالثة وثناء على نفسها ، ثم إلحاحاً فى التسوية بينها وبين

ضرائرها ؛ فقد أهدى إلى هذه ما لم يهد إليها مثله . وزعمت تلك أنه ترك لها من النقد كذا وكذا درهماً على حين أنه يبيت عندها ولا يترك لها شيئاً ، وإنها لتلتمس المليمات تشترى بها الحلوى لصبيها البائس فلا تجدها ، فيظل ابنها محروماً ينظر إلى أبناء الضرائر وهم فرحون بما فى أيديهم من الحلوى وما فى جيوبهم من ألوان النقل . وعلى هذا النحو تنغص عليه ليلته حتى ينتظر الصبح أشد ما يكون إليه شوقاً . فإذا سمع صوت المؤذن أسرع إلى وضوئه وصلاته ، يظن أن التقوى هى التى تدفعه إليهما ، وما كان يدفعه إليهما إلا الهرب من هذه الحياة البغيضة ، ومن هذا الليل الطويل الثقيل . ولم يكن على يجد الراحة والنعيم إلا فى ليلة أم خالد حين يخلو إلى نفسه وإلى ذكرى زوجه الكريمة ، فيمتلئ قلبه حباً وحناناً ، ثم يسرع إلى ذكر الله وتلاوة القرآن ليهدى إلى هذه الزوج الصالحة شيئاً من ثواب الآخرة بعد أن لم يستطع أن يهدى إليها شيئاً من نعيم الدنيا . رحم الله أم خالد ! لقد كانت برة به عطوفاً عليه ، لم تخالف عن أمره قط ، ولم تسؤه فى نفسه قط ، لم تؤذه بقول ولا عمل ، لم ير منها إلا خيراً منذ لقيها إلى أن فارقها . كانت مباركة لم يحس فى أيامها ضيقاً ولا ضنكاً ، وإنما كان المال يتدفق فى متجره ، والخير يتدفق فى داره . وكانت حياته بين حبها له ورضا الشيخ عنه ونمو ابنه خالد مشرقاً باسماً فرحاً مرحاً ، نعيما متصلا . أين هو من هذا النعيم ؟ أيجده عند زينب هذه التى تقدمت بها السن حتى أخذ وجهها يكلح وتظهر فيه التجاعيد ، وهى مع ذلك تتجمل وتتدلل وتتكلف ما يتكلفه النساء الحسان ؛ وما الذى يعجبه من زينب هذه ! وما الذى يكرهه على أن يمسكها فى داره ! !

لقد تزوجها فى آخر شبابها ، فلم ترزقه ولداً ، ولم ير عندها خيراً ، بل لم ير عندها إلا سوء الخلق ، وإلا هذه الغيرة الطارئة التى أدخلتها فى قلب زوجيه الأخريين . لقد كان مستمتعاً بشىء من هدوء قبل أن يتخذ هذه الزوجة الثالثة . وما له لا يكتفى بزوجين اثنتين ! رحم الله تلك الأيام التى كان يكتفى فيها بأم خالد . ولكن أم خالد ! وكيف يقاس إليها النساء ! ثم يصبح وقد استقر رأيه على أن يفارق زينب ، فهو يلتمس لذلك الأسباب والعلل . وأى شىء أيسر من ذلك ! يكفى أن تلقاه متجهمة تحسب تجهمها دلالا ، متنكرة تحسب تنكرها تيهاً ، يكفى أن يدعوها فتبطئ فى الجواب ، وإذا هو ثائر فائر ، يلقى فى وجهها كلمة الطلاق ، ثم يفر من بين يديها مسرعاً فيتنفس ملء رئتيه ، ويأوى إلى غرفة أم خالد على مصلاه يستغفر الله ويتلو القرآن .

كذلك كانت حياة علىّ زواج وطلاق ، وطلاق وزواج ، واحتمال لما يقتضيه ذلك من نفقات ، واحتمال لما تقتضيه كثرة الولد من نفقات أيضاً ، وإهمال لهؤلاء الولد الذين يكثرون من يوم إلى يوم . إهمال مصدره كثرتهم من جهة ، وتنافس أمهاتهم من جهة أخرى ، وانصرافه إلى تجارته ولغوه وعبادته من جهة ثالثة . وقد أهمل تربية خالد حين كان خالد وحيداً ، حتى كاد يفسد ويدركه الانجذاب لولا لطف الله وكرامة الشيخ . وهنا يستعرض أمر خالد وزواجه وكل هذه المأساة ، فيحزن لها شيئاً ، ثم يذكر عبد الرحمن وثروته فتمر على ثغره ابتسامة ينكرها ولكنه يستعذبها على كل حال . ومما زاد حياة علىّ تعقداً وارتباكاً وأكثر فيها الهمّ والحزن أن تجارته أخذت تفتر شيئاً فشيئاً على مر الأشهر والأعوام . لم يفطن لأسباب

ذلك أول الأمر ، وإنما ضاق به وشكا منه ، وحاول أن يطبّ له فلم يفلح. ثم أصبح ذات يوم وقد كشف عنه الغطاء وإذا هو يرى نكراً من الأمر يملأ قلبه خوفاً ، ثم لا يلبث أن يملأ قلبه يأساً . هذه المتاجر الجديدة التى أخذت تنشأ فى المدينة على غفلة من أهلها لا يدرون كيف جاءت إليهم ، ولا كيف استقرت فيهم ، وإنما هو بناء يقام لا يعرف أهل المدينة من يقيمه ولا لمن يقام ، ثم ينظرون فإذا عمارة فخمة ضخمة قد ارتفعت شاهقة فى السماء ممتدة فى الفضاء ، وقد أقبل عليها قوم غرباء جاءوا من القاهرة فملئوها بضائع وعروضاً ، وأحاطوها بألوان من الزينة والبهجة تدعو الناس وتغريهم بها ، وإذا هم ينظرون ثم يقفون ثم يدخلون ويخرجون بعد ذلك ، وقد تركوا ما كان معهم من نقد ، وحملوا من السلع والعُروض أشياء حزمتْ لهم حزماً حسناً ليس مألوفاً فى هذه المتاجر القديمة التى توارثها الأبناء عن الآباء . وأغرب من هذا أن هذه المتاجر التى أخرجها الشيطان من الأرض لا تقتصر على لون بعينه من البضائع أو ضرب بعينه من السلع ، وإنما هى تبيع كل شىء . متجر واحد يعدل جميع متاجر المدينة . أى غرابة فى أن يفتن الناس بهذا الجديد ويتهالكوا عليه ينفقون فيه أموالهم ويقتضون منه حاجاتهم ! فأما علىّ وأصحابه ومتاجرهم هذه القديمة القذرة المهملة النائمة ، فعليهم وعليها العفاء .

كذلك أحس ذات يوم أنه لن يستطيع أن يثبت لهذه الشياطين الجديدة التى هبطت على المدينة لتفقر أغنياءها وتذل أعزّاءها ، وتأخذ ما فيها من مال فتحمله إلى شياطين أخرى تقيم فى القاهرة أو فى مدينة أخرى غير القاهرة . وقد تحدث علىّ بذلك إلى بعض أصحابه التجار ،

فإذا هم يرون مثل ما يرى ، ويجدون مثل ما يجد ، ثم لا يملكون ، كما أنه لا يملك ، إلا أن يضربوا يداً بيد ويقولوا : لا حول ولا قوة إلا بالله العلىّ العظيم ، حسبنا الله ونعم الوكيل ؛ ثم سعوا إلى شيخهم ، وتحدثوا إليه فى ذلك ، فإذا هو يرى مثل ما يرون ، ويجد مثل ما يجدون ، ويقول كما كانوا يقولون : لا حولَ ولا قوة إلا بالله العلىّ العظيم . حسبنا الله ونعم الوكيل ، ثم يحدثهم عن أشراط الساعة ، ويذكرهم بأيام الله ، ويعظهم فيبغض إليهم الغنى ويحبب إليهم الفقر ، ويؤكد لهم أن أكثر أهل الجنة من الفقراء ، وأن أكثر أهل النار من الأغنياء الذين يكنزون الذهب والفضة ولا ينفقونها فى سبيل الله فبشرهم بعذاب أليم .

وكذلك عملت حياة علىّ فى ماله وتجارته ، وعملت فى ماله وتجارته هذه الشياطين التى انقضتْ على المدينة كأنها الجراد ، وإذا إحساسه بالضيق يكثر ويشتد ، وإذا هو يقصر مع بعض عملائه فى القاهرة فلا يؤدى إليهم حقوقهم فى إبانها ، وإذا هو مضطر إلى أن يتخفف من بعض ما اختزن من العروض يبيعها بثمن بخس ليؤدى بعض ما عليه من دين . وقد خطر له ذات ليلة وهو قاصد إلى غرفة أم خالد أن يهبط إلى القاهرة ليرى عبد الرحمن ، فيعلم علمه ، ويسأل عن نفيسة وابنتيها ؛ فقد أهمل منذ زمن طويل . ومن يدرى ، لعله أن يجرؤ فيلتمس عند صهره شيئاً من معونة . فلما انتهى إلى غرفة أم خالد جلس على مصلاه ، فدعا واستغفر وصلى وتلا القرآن واستخار الله . ولم يهمل بعد أن صلى الصبح أن يقرأ سورة «يس» سبع مرات يعقبها فى كل مرة بدعائها المعروف . فلما فرغ من ذلك غفا غفوة ثم استفاق ، وإذا محمود يحمل إليه كسرة من خبز

جاف ، وشيئاً من ملح ، وكأسين من قهوة ، فطعم وشرب وحمد الله ، ونهض وهو مستيقن أن الله قد عزم له على الرشد ، ومزمع أن يسافر إذا كان الغد . وقد أنفق نهاره فى الاستعداد لهذا السفر ؛ فلم يكن بد من أن يحمل إلى نفيسة وابنتيها ما يسرهن . والله يعلم كيف احتال فى ذلك وجدّ فى الحيلة ، ولكنه سافر من الغد كما تعود أن يسافر موفوراً كثير المتاع ، وقد استخلف ابنه خالداً على داره ومتجره . فلما وصل إلى القاهرة وانتهى إلى دار عبد الرحمن لم ينكر شيئاً أول الأمر ، فقد لقيه صديقه الشيخ باسماً وقوراً مرحباً . ولقيته أم نفيسة باسمة عن ثغر محطم فى وجه مربد قد عبثت به السنون . ولقيته نفيسة هادئة مطمئنة راضية . فأما الصبيتان فقد نمتا نموًّا حسناً ، فازدادت إحداهما جمالا وازدادت الأخرى قبحاً . ولكن عليًّا لم ينفق مع صديقه الشيخ يوماً وبعض يوم حتى أنكر كل شىء ، وإذا هو يلعن الأيام فى القاهرة كما كان يلعنها فى المدينة . فقد تعرضت تجارة صاحبه فى العاصمة لمثل ما تعرضت له تجارته فى الإقليم ؛ لا لأن صاحبه استكثر من النساء والولد فكثرت نفقته وثقلت أعباؤه ؛ فقد كان عبد الرحمن صاحب نسك وقناعة وزهد فى الدنيا ، بل لأن القاهرة امتلأت بهذه الشياطين التى أقبلت على مصر تغزوها منذ أعوام فأفسدت فيها كل شىء .

قال عبد الرحمن : ولست أدرى ما الذى سلط علينا هذه الشياطين ؛ فقد كنا آمنين وادعين موفورين ، ثم أصبحنا ذات يوم وإذا الشر يأخذنا من جميع أقطارنا ، شياطين يأتوننا من يونان ، وشياطين يأتوننا من إيطاليا ، وشياطين يأتوننا من فرنسا ، وشياطين يأتوننا من بلاد

الإنجليز . صدقني يا أبا خالد إن الله قد غضب علينا . وقد بحثت كثيراً عن أسباب هذا الغضب . فالله لا يغضب على الناس لغير سبب ، وإنما هو قد عودهم أن يحسن إليهم تفضلا منه ، وألا يغضب عليهم حتى يستوجبوا غضبه بمنكر يأتونه ، أو ذنب يقترفونه ، أو إثم يتورطون فيه . وقد سألت الشيوخ فى الأزهر والأولياء الصالحين الذين يعكفون فى المساجد ويلوذون بمشاهد أهل البيت ، فلم أجد عند أحد منهم شيئاً . ولكنى غفوت ذات ليلة بعد أن صليت العشاء ، فما راعنى إلا شيخنا وهو يبسم لى ساخراً ، ثم يدنو منى فيمسح على رأسى ويتلو هذه الآية الكريمة : « وَإِذَا أَرَدْنَا أَنْ نُهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ فَدَمَّرْنَاهَا تَدْمِيراً » . ثم ينأى عنى قليلا قليلا وهو يقول : اتبعنى أبا صالح فإنى سأفر بنفسى ودينى من هذه القرية الظالم أهلها . وقد أفقت مذعوراً ، ولم أستطع منذ تلك الليلة أن أقنع نفسى بأنى لم أر إلا حلماً ، وإنما استقر فى قلبى أن الشيخ منتقل إلى رضوان الله ، وأنى لن ألبث بعده إلا قليلا . ولقد أقبلت أبا خالد وأنا أحدث نفسى بالسفر لأزوركم وأحدث عهداً بالشيخ . فمن يدرى ! لعله الوداع .

قال علىّ وصوته يرتجف : هون عليك ، فإنك لم تر إلا حلماً ، وقد تركت الشيخ على أحسن ما عهدته قوة ونشاطاً ، وقد حملنى تحية إليك ودعاء لك . ولكنه دعانى حين انصرفت عنه بعد وداعه ، فأسرّ إلىّ أنه هابط إلى القاهرة ؛ فقد طال عهده بأهل البيت ، ثم قال فى ابتسامة ما رأيت قط أعذب منها ، لقد كانت شفتاه كأنما تنفرجان عن نور — قال : أبلغْ عبد الرحمن أنا سنكون له ضيفاً .

هنالك لم يملك عبد الرحمن نفسه أن قال بأعلى صوته : الله أكبر ! الشيخ ضيفى ! ثم أهوى إلى صديقه فقبل رأسه وهو يقول وفى عينيه دمعتان تترقرقان : ويحك أبا خالد ! لمَ أخرتَ علىّ هذا النبأ السعيد ؟ !

ومهما يكن من شىء فقد سافر علىّ إلى القاهرة وفى قلبه شىء من حزن وشىء من أمل ، وعاد إلى المدينة وفى قلبه كثير من الحزن وكثير من اليأس ، إلا من روْح الله . ولكنه قال لصديقه وهو يودعه : سأعود إليك بعد حين ، فما ينبغى أن أتخلف عن مصاحبة الشيخ ، ولا بدّ من أن نزور معه أهل البيت .

١٠

أما خالد فقد كدنا نشغل عنه بحديث أبيه . وليس فى هذا شىء من بدع ؛ فإنه كان يعيش فى أيام لم تكن حياة الأبناء فيها شيئاً مادام آباؤهم ناهضين بما كان ينهض به الآباء من الأمر فى ذلك الوقت . فهم كانوا كل شىء ، يصدر عنهم ما يدبر شؤون الأسرة من أمر ، وينتهى إليهم ما يعرض للأسر من خطب ، وما أبناؤهم إلا ظلال لهم ، بل ظلال ناقصة تصور ما كان آباؤهم يريدون لهم أن يكونوا . إنما كان الأبناء يستكملون شخصيتهم وينهضون بأمرهم كله حين كان آباؤهم يفارقون هذه الأرض أو يضطرهم المرض والكبر إلى أن يلزموا بيوتهم عابدين أو فارغين ، لا يأتون شيئاً ولا يدعون شيئاً ، لأنهم لا يقدرون على شىء وكان على فى ذلك الوقت مالكاً لأمره كله ، لم يعرف قط نفسه قوياً كما كان فى ذلك الوقت ، ولم يستجمع قط قواه العاقلة والعاملة كما استجمعها فى تلك الأيام . ولذلك أسرف على نفسه وعلى أسرته فى كل ما كان يأتى ويدع : إضاعة للتجارة ، وإتلاف للمال ، وإسراف مع ذلك فى الزواج والطلاق ، واستكثار مع ذلك من البنين والبنات ، حتى كان حديثَ الناس فى المدينة وفى بعض القرى المجاورة ، وحتى تحدث إليه أصحابه فى ذلك ، فكان يقول لهم ما ذكرناه آنفاً من أنه إنما يستوفى ما أباح الله له من الحق حين أذن للمسلمين أن يتزوجوا مثنى وثلاث ورُباع . وكان يقول لهم فى شىء من الغلظة والاستهزاء : ما تنقمون منى !

من استطاع منكم أن يصنع صنعى فليفعل . ألسنا قد أمرنا بالزواج وبأن نستكثر من النسل ما وسعنا ذلك ؛ لأن نبينا (ص) مباه بنا الأمم يوم القيامة ؟ فهل تعيبون على أن أكون سبباً من أسباب امتياز النبى بأمته على غيرها من الأمم يوم القيامة ! وكان أولو الجراءة من أصدقائه يذكرون له كثرة النفقة وثقل العبء ، فيسخر منهم وقد يتجاوز السخرية إلى التأنيب ، ويقول لهم : ما رأيت قوماً مثلكم يشكون فى قدرة الله وينكرون فضله على الناس ! إن الله هو الذى يرزقنا الولد . وقد ينبغى أن تعلموا ، إن كنتم لا تعلمون ، أن الله لا يخلق فماً إلا أطعمه ، ولا يبرأ نسمة إلا كفل لها رزقها . وقد نهينا عن قتل الولد مخافة الإملاق . ولست أفرق بين قتل الولد مخافة الإملاق وتجنبه مخافة الإملاق ، كل ذلك يرجع إلى شىء واحد هو ضعف الثقة بالله ، وأعوذ بالله أن تضعف ثقتى به أو يحل فى قلبى اليأس من فضله .

وكذلك كان يمضى فى طريقه هذه ، لا يفكر فى عاقبة ، ولا يحفل بموعظة ، ولا يسمع لنصيحة ، وإنما هو مندفع فى حياته واقتضاء لذاته المباحة ، كما يندفع السيل إلى الوجه الذى دفع إليه . فلا غرابة فى أن تشغلنا حياته هذه عن حياة ابنه خالد ، وقد كانت ضئيلة نحيلة فى ظل هذه الحياة الضخمة العريضة التى تندفع أمامها لا تقف عند شىء ولا تلوى على شىء ! وقد كان خالد مع ذلك حين عاد من القاهرة بعد أن رد امرأته وابنتيه إلى حميه مقسم النفس بين نوعين من الشعور ؛ فقد كان فى نفسه شعور بحزن مقعد حاول هو أن يفهمه فلم يستطع ، ولكن فهمه مع ذلك يسير . كان حزيناً أيسر الحزن لفراق امرأته التى عاشرته

أعواماً ورزقته ابنتين ، ولم تره فى سيرتها معه إلا خيراً . وكان حزيناً لأنه كان ينتظر لنفسه حياة غير هذه الحياة وحظًّا غير هذا الحظ : كان يرجو أن يتيح الله له زوجة صالحة يحبها ويسكن إليها ويرى فيها متعة عينه وقلبه وأم ولده وربة بيته وصاحبته ، منذ بدأ هذه الطريق إلى أن ينتهى منها . ولكن الله لم يتح له هذه الزوج . وقد رضى مع ذلك بما قسم الله له ، ورآه نعمة وفضلا . ولكن الله أبى أن يتم عليه هذه النعمة وأن يكمل له هذا الفضل ، فكشف له الغطاء عن قبح امرأته ، وامتحنه بهذا القبح حيناً ، فكاد يخفق فى الامتحان . ولكنه حاول أن يثبت له ، وكاد يخرج من المحنة ظافراً لولا أن الله قد ابتلاه بمحنة أخرى ، فأغرى بامرأته جنية البيت ، تلك التى تسكن حنايا السلم والتى جعلت تتراءى لها متى خلت إلى نفسها فتغرّها وتضلها وتلقى فى رُوعها الأباطيل ، حتى أفسدت عليها أمرها ، وسلبتها ما كان لها من عقل ، وإذا هو مضطر — بعد أن ردّها إلى أبيها — إلى هذه الحياة الفارغة المؤلمة ، حياة الوحدة ؛ فقد كان على كل حال يأنس إلى امرأته فيرى فى عشرتها راحة ورَوْحاً . وقد كان ينعم بطفولة ابنتيه ، ويرى فى ابتسامهما أملا ونعيما ، وإذا هو قد حرم هذا كله ورد إلى وحدته الأولى . بل أين وحدته الآن من وحدته قبل أن يتزوج ، فقد كان بين أم ترأمه وتحنو عليه ، وبين أب يحبه ويؤثره بالكرامة . فأما الآن فهو غريب فى دار أبيه بين هؤلاء الضرائر اللاتى لا ينظرن إليه ولا يحفلن به ، لأنه لا يغنى عنهن شيئاً فيما يكون بينهن من تنافس وتباغض وخصام ، وبين هؤلاء الصبية الذين يكثرون فى كل يوم وينبتون كما ينبت العشب فى الأرض ،

لا يدرى كيف جاءوا . فأما أبوه فقد كان عطوفاً عليه حفياً به أيام محنته ، فلما بعد بها العهد ، شغل عنه بهذه الهموم الكثيرة التى لا يتركها فى الدار إذا غدا إلا ليلقاها فى المتجر ، ولا يتركها فى المتجر إذا راح إلا ليلقاها فى الدار ، وهو سعيد كل السعادة إن تركت هذه الهموم له طريقه حرة بين داره ومتجره ، لم ينتظره فى هذا الشئ أو ذاك من أثناء الطريق ، ولم يخرج له بعضها من هذا العطف أو ذاك من أعطاف المدينة . فهذا نوع من الشعور الذى كان يجده خالد عند ما آب من القاهرة . ولكنه كان يجد نوعاً آخر من الشعور ليس أقل من هذا النوع تأثيراً فى قلبهوتأثيراً فىحياته العاملة بنوع خاص . فقدكان يشعر كأن حملا ثقيلا ألقى عن عاتقه ، وكأن شيئاً من الراحة والأمن رد إلى قلبه . ذلك أن لقاءه امرأته كل يوم مصبحاً وممسياً ، ونظره إلى ابنتيه وما كان بينهما من اختلاف ، وموازنته بين ابنتيه وأمهما ، كل ذلك كان يسوءه ويؤذيه ، فقد أراحه الله من هذا السوء ورد عنه هذا الأذى ، وأتاح له حياة فارغة ، تؤذيه من غير شك ، ولكن لا كما كانت تؤذيه حياته تلك الملىء . وكذلك كان خالد يضطرب بين الحزن والرضا وبين القلق والأمن . وكان إذا أحس الرضا صلى ودعا وقرأ القرآن حامداً لله على نعمته ، وإذا أحس السخط صلى ودعا وقرأ القرآنمستعيناً بالله على نقمته . وكان أشد ما يخاف أن يغرى به الشيطان فى وحدته على نحو ما كان يغري به قبل أن ترحل عنه زوجه ، فكان يكثر من القراءة والدعاء والصلاة تحصناً من هذا الشيطان . ولكن الله صرف عنه الشيطان صرفاً تاماً ، فكانت وحدته نقية حتى من التفكير فى الإثم ، وكانت عزلته طاهرة

حتى من الشعور بأن له غرائز يجب أن ترضى . وقد هم أن يستأنف حياته الأولى فيختلف إلى المساجد ويتبع حلقات الذكر ويواظب على مجالس الوعظ ، ولكنه لم يجد من نفسه نشاطاً إلى هذه الحياة ، وإنما وجد من نفسه شوقاً إلى عمل أحسن غناء وأقرب نفعاً من هذه الحياة المشردة . وقد ألقى فى روعه أن التقرب إلى الله لا يكون بالاختلاف إلى هذه المساجد والحلقات ومجالس الدرس والوعظ فحسب ، وإنما يمكن أن يكون بأن يظل الإنسان على ذكر من ربه دائماً ، يذكره إذا خلا إلى نفسه ، ويذكره إذا لقى الناس ، ويذكره حين يقدم على العمل أو يحجم عنه ، فتكون خشيته لله هى التى تحمله على الإقدام أو الإحجام . وكان خالد على ذكر من ربه دائماً ، حتى إن أيسر انفعالاته كان يترجم عنه بهذه الكلمات التى تجرى بها ألسنة الناس كثيراً ، ولكنها لا تصدر عن قلوبهم إلا قليلا ، فكان إذا أنكر شيئاً أو أسخطه شيء قال : سبحان الله ، وإذا رضى عن شيء أو سره شيء قال : الحمد لله ، وإذا أعظمه أمر يسر أو يسوء قال : الله أكبر ، وإذا أحس من حوله شرًّا يدنو منه أو يبعد عنه قال لا إله إلا الله . وكان الناس يحبون خالداً فى المدينة ويعجبون به ويودون لو أن أباه ترك له تجارته وفرغ هو لما يعنيه من أمر دنياه وأمر دينه . ولكن أباه كان شديد النشاط لم يشعر بعد بالضعف ولم يحتج بعد إلى الراحة . وهم خالد أن يعين أباه على تجارته فلم ير من أبيه ابتهاجاً بهذا العون ، ولم ير من نفسه ميلا إلى التجارة . وكان له ابن عم لم نتحدث عنه إلى الآن ، ويظهر أننا سنكثر الحديث عنه منذ الآن . كان له ابن عم يدعى سليما ، توفى عنه أبوه محمد ولما يبلغ السنتين

من عمره ، فكفله عمه علىّ من بعيد ، يقوم بحاجته ويشمله ويشمل أمه خديجة بالبر المتصل . ولكن خديجة توفيت عن ابنها ولما يتم العاشرة من عمره ، فكفله علىّ من قريب ، ضمه إليه وأقره فى داره واتخذه لخالد أخاً ، فكان يقسم بينهما حبه وعطفه وبره . وتلقت أم خالد هذا الصبى لقاء حسناً ، فبرته ورفقت به كما كانت تبر ابنها وترفق به .
ورحم الله أم خالد ! فقد كانت خيرة من جميع نواحيها ، ولم تكن أم خالد إذا تحدثت إلى ابنها عن سليم تقول له : ابن عمك قال كذا أو كذا أو فعل كذا أو كذا ، وإنما كانت تقول له : أخوك قال أو فعل.
وكان سليم يكبر خالداً بثلاثة أعوام ، فكانت أم خالد تلقى دائماً فى روع ابنها أن سليما أخوه الأكبر وأن له عليه حق الكبير على الصغير .
وقد أنفق خالد صباه وهو مؤمن بأن سليما أخوه ، لم يتبين حقيقة الصلة بينهما إلا حين تقدمت به السن شيئاً . ولكن ذلك لم يغير من سيرته مع سليم قليلا ولا كثيراً . أحبه دائماً ، وأكبره دائماً ، ووقره دائماً ، وآثره دائماً علىٰ إخوته بعد أن كثروا ، فلم يكن يولى أبناء العلات من إخوته وأخواته إلا ميلا قليلا وعطفاً معتدلا ، فأما سليم فقد كان له وده كله وإخاؤه كله ، حتى كان الناس يضربون المثل بما كان بين هذين الشابين من تعاطف ومودة . وقد تتابعت الأيام والأشهر والأعوام ومضى جيل من الناس وأقبل جيل ، فلم يكد الجيل الطارئ يشك فى أن خالداً وسليما أخوان أبوهما علىّ وأمهما تلك التى يـقـسـم لها علىّ بعد أن ماتت يومها فيما يقسم من أيامه بين نسائه . وكان الشيوخ يبسمون فى حنان ورضا إذا سمعوا أحاديث الشباب بذلك ، وقلما كانوا يردونهم عن هذا

الخطأ الذى يصور مثلا نادراً للمودة والإخاء . وقد بعدت الأسباب شيئاً بين هذين الصديقين الأخوين حين بلغ سليم رشده وأسلم إليه على ماترك له أبوه ، ولم يكن شيئاً ذا غناء ؛ فقد جد الفتى واجتهد وأصلح من أمره، واتخذ لنفسه زوجاً أحبها وأحبته ، وأقام مع امرأته فى دار مقصورة عليه ، فآذى ذلك عمه بعض الشىء أول الأمر ، ثم اطمأن إليه بعد ذلك . وكانت زبيدة زوج سليم معتدلة الجمال ، ولكنها كانت خفيفة الروح كثيرة المرح والدعابة فى براءة وطهر وخفر . وكانت أسباب المودة قد اتصلت بينها وبين نفيسة على ما كان بينهما من اختلاف فى النشأة والتربية ، ومن اختلاف فى المنظر بنوع خاص ؛ فقد نشأت فى القاهرة ، ونشأت مترفة فى بيت ثروة وغنى ، على حين نشأت زبيدة فى المدينة وفى أسرة لا تكاد تبلغ الطبقة الوسطى من الناس .وكان الصديقان الأخوان سعيدين بهذه المودة المتصلة بين زوجيهما ، ينتظران منها خيراً كثيراً . وآية ذلك أن « جلنار » لم تكد تبلغ الشهر السادس من عمرها حتى خطبتها زبيدة لابنها سالم ، وكان سالم فى الثانية من عمره . وتضاحكت المرأتان لهذه الخطبة وقالت نفيسة لصاحبتها : إنك لتسيئين الاختيار لابنك ، فأين أنت من سميحة وهى على ما ترين من جمال ورواء ؟ ! قالت زبيده ضاحكة : إن سميحة أكبر من سالم ، وإنى أرى البركة فى جلنار — وكانت تنطق « جلنار » — وإن اسمها يعجبنى فإنه من أسماء « الذوات » ، وسيسعدنى أن أسمع ابنى يدعو زوجه فيقول : يا جلنار ، فأما سميحة فاسم بلدى كاسمك وكاسمى . وأى فرق بين سميحة وحميدة وخديجة . قلت لك : إنى أخطب جلنار ، ولن يتزوج ابنى إلا جلنار .

وكان الصديقان الأخوان قد جلسا غير بعيد ، فلما سمعا هذا الحوار أعجبهما . قال خالد لسليم : أتسمع؟ قال سليم : أسمع . قال : أرضيت ؟ قال سليم : رضيت . قال خالد : فامدد يدك ولنقرأ الفاتحة . فبسط سليم يده ، وتصافح الرجلان وقرآ الفاتحة . ولم تشك الأسرتان منذ ذلك الوقت فى أن سالماً وجلنار زوجان ، ولا سيا حين سمع علىّ هذا النبأ فأقر الخطبة وبارك الخطيبين ورفع الأمر إلى الشيخ فأقره ودعا للعروسين ، وانتهى النبأ إلى عبد الرحمن فى بعض زياراته للمدينة ، فقال لسليم وهو يبتسم : فإن ابنك ابنى منذ اليوم .

أقبل خالد ذات يوم بعد محنته على صديقه وأخيه ، فتحدث إليه فى شىء من أمن وثقة وقال له فيما قال : إنه ضيق بالحياة التى يحياها ؛ فقد بلغ الخامسة والعشرين من عمره وليس له عمل يطمئن إليه ويكسب منه قوته . وقد تركت له أمه شيئاً ، ولكنه لا يدرى أين هو فقد اختلط بمال أبيه ، وأبوه لا يبقى على شىء . وقد أحب أن يعمل مع أبيه فى التجارة فلم يجد من نفسه ولا من أبيه ارتياحاً إلى ذلك . وهو لا يشكو من أبيه بخلا ولا تقتيراً ، ولا يذكر أن أباه قد أنكر عليه تصريحاً أو تلميحاً هذه الحياة الفارغة التى يحياها ، ولكنه هو ينكر هذه الحياة أشد الإنكار ويمقتها أعظم المقت . وقد أخذت أسرة أبيه تعظم وتمتد ، وأخذ بنوه وبناته يكثرون ، وما يحب أن يرزقه أبوه كما يرزق هؤلاء الصبية الصغار ، أو كما يرزق هؤلاء النساء المحمقات .

قال سليم : أما انصرافك عن التجارة فإنى أراه الخير كل الخير ؛ فليس لك ولا لى ولا لأمثالنا فى التجارة أرب. إنا لم نخلق لها أو قل : إنا

خلقنا لتجارة قد انقضى عهدها . ألا ترى إلى هذه المتاجر الجديدة ! أين منها متجر أبيك ومتاجر أصحابه الشيوخ ! . صدقنى ! إن مثلك ومثلى من الشباب ينبغى أن يتخذوا لأنفسهم أعمالا جديدة . ألا ترى إلى هذه المناصب الحكومية الكثيرة فى المديرية والمراكز والمحاكم والدائرة السنية ! إن كثيراً من الشباب يأتون من القاهرة أو من أقاليم غير إقليمنا يعملون فى هذه المكاتب والدواوين ، فما لنا لا نعمل كما يعملون ! !

قال خالد : فإنا لم نهيأ لعمل الحكومة . قال سليم : فإنا نحسن القراءة والكتابة والحساب ، ولسنا بالمغفلين ولا بالحمقى . وما أريد أن يكون أحدنا مديراً أو مأموراً ، وإنما يكفيك ويكفينى منصب الكاتب فى هذا الديوان أو ذاك . أما أنا فأحب أن أكون كاتباً فى المديرية . قال خالد : وأما أنا فأحب أن أكون كاتباً فى المحكمة الشرعية . قال سليم وهو يضحك : طبعاً بين المفتى والقاضى والمأذون . قال خالد : بين العمائم على كل حال . ثم سكت الفتيان حيناً ، ثم قال خالد لصاحبه : إنْ هى إلا أحلام يا سليم ؛ فقد علمت أن هذه المناصب لا تنال إلا بالواسطة . قال سليم وهو يضحك : ألستم تقرءون فى أورادكم : « إذ لولا الواسطة لذهب كما قيل الموسوط » . قال خالد : لا تعبث بأورادنا فإنى أخاف عليك عاقبة هذا العبث . قال سليم : فإنى لا أعبث بشىء ، وإنما أبحث عن الواسطة وقد وجدتها . قال خالد : وجدتها ؟ وما عسى أن تكون ؟ قال سليم : كلمة من شيخنا فى أمرك وأمرى إلى الباشا تبلغنا ما نريد .

ولم يأت المساء حتى كان الفتيان قد راحا إلى الشيخ فأسرا إليه أمرهما.

فلما استمع لهما صمت لحظة ثم قال : أفعل إن شاء الله ، ولكن استعينوا على قضاء حاجاتكم بالكتمان . ولم تمض أيام حتى امتلأ قلب علىّ سروراً وبشراً ، وأذيبت مقادير هائلة من السكر فسقيت للأغنياء والفقراء جميعاً ، وأقيم الذكر فى بيت علىّ وذبحت الذبائح وطعم الناس وكثرت قراءة علىّ لبعض الأدعية لأنه خاف على نفسه وعلى ابنيه من حسد الحاسدين ؛ فقد أصبح سليم كاتباً فى المديرية يسعى بين الوكيل والمدير ، وأصبح خالد كاتباً فى المحكمة الشرعية يجلس بين القاضى والمفتى ، ويتلقى من المأذونين صكوك الزواج والطلاق بين حين وحين ، وقد رزق كل واحد منهما راتباً شهرياً قدره أربعة جنيهات .

١١

أنجز الشيخ وعده ، فزار القاهرة وأقام فيها أسبوعاً ، وأكرم عبد الرحمن فنزل عليه ضيفاً ، وفرّق أصحابه فى المدينة تخفيفاً على مُضيفه ؛ فقد كانوا أكثر من أن تسعهم دار واحدة . لكنه استبقى معه خمسة أو ستة من أصفيائه الذين كان يحرص دائماً على أن يلزموه . قد أراد عبد الرحمن أن يؤوى أصحاب الشيخ جميعاً ، لكن الشيخ رده عن ذلك ردّاً عنيفاً ، وقال : لا يكلف الله نفساً إلا وسعها . وقال عبد الرحمن فى شىء من الاستيحاء : فالأمر لك يا سيدنا ، ولكنك ستكرمنى بأن تصلى ويصلى إخواننا عندى العشاءين ، وبأن تقام فى دارنا هذه حلقة الذكر . قال الشيخ : هو ذاك . ولم يكن معنى ذاك إلا أن تقام الولائم فى دار عبد الرحمن مساء كل يوم يشهدها العشرات من الرجال ، والعشرات الكثيرة ، منهم من هبط إلى القاهرة مع الشيخ ، ومنهم من كان يقبل لزيارة الشيخ من القاهرة أو من المدن والقرى المجاورة لها . وقد نهض عبد الرحمن بهذا الحق كأحسن ما ينهض به الرجل الكريم ؛ فكان إذا أصبح غدا خدمه الذين استأجرهم لهذه الفرصة على الشيخ وأصحابه بالطعام ، ثم يخرج مع الشيخ وأصفيائه فيزورون الموتى فى قبورهم والأحياء فى دورهم ، ويصلون الظهر فى مسجد من مساجد أهل البيت ، ثم يعودون إلى دار عبد الرحمن حيث ينتظرهم الغداء ، إلا أن يكون الشيخ قد استجاب لدعوة بعض أصدقائه من علماء القاهرة وأغنيائها . فأما العشاء وصلاة الليل وحلقات الذكر

فكان هذا كله قد أكرم به عبد الرحمن . والشيء الذى لا يشك فيه هو أن أتباع الشيخ — وما كان أكثرهم — لم يتحملوا نفقة ما أقاموا فى القاهرة ، بل لم يتحملوا نفقة منذ تركوا المدينة حتى عادوا إليها . فما كان الشيخ ليقبل أن يرزأ أحد من أصحابه فى ماله قليلا أو كثيراً وهو يرافقه .

وكانت مجالس الشيخ فى دارعبدالرحمن رائعة حقاً ، يمتلىء لها قلب المضيف غبطة وسروراً ، فكان الشيخ إذ صُليت العصر اتخذ مكانه فى صدر هذا الفناء الذى كان ينبسط أمام الدار ، وأخذ أصحابه يفدون فيجلسون من حوله حتى يمتلىء بهم هذا الفناء . وقد أحس أهل الحى أن فى دار عبد الرحمن عيداً أو شيئاً يشبه العيد ، وأنه سيتصل ويمتد أياما ، فكان أغنياؤهم وأوساطهم يقبلون ليشاركوا فى هذا العيد من قرب ، وكان فقراؤهم وذوو الحاجة منهم يقبلون ليشاركوا فى العيد من بعد . يجتمعون جماعات متكاثفة خارج الدار وهم يذكرون الله ويسبحون بحمده وقد ينجم من بينهم الشيخ ذو الصوت الحسن فيغنى لهم شيئاً من شعر الصوفية ، أو الفتى ذو الصوت العذب فيغنى لهم شيئاً من أغانى القاهرة . وكانوا على كل حال فى فرح ومرح ، يطربون هذا الطرب الغريب الذى هو مزاج من العبادة واللهو البرىء معاً . وكان الشيخ يعجبه ما يرى من ذلك وما يسمع ، وكان كثيراً ما يقطع حديثه أو حديث بعض جلسائه ليصغى إلى هذا الصوت أو ذاك ، وليسمع لما كان يبلغه من حديث القوم ولما كان يدعو إليه هذا الحديث غالباً من الضحك والصياح .

وكان زوار الشيخ من أهل المكانة فى القاهرة يقبلون لزيارته ، منهم من كان يقبل راكباً بغلته يسعى بين يديه غلام من غلمانه ، ومنهم من

كان يأتى راكباً عربة تجرها الخيول المطهمة . وكان مجىء هؤلاء الناس جميعاً يثير فى نفوس هذه الجماعات كثيراً من العجب وكثيراً من الرضا ، وكثيراً من الفرح أيضاً . ولم يكن بين هؤلاء الزائرين على اختلاف طبقاتهم ومراكزهم زائر إلا طرح كبرياءه وطبقته ومركزه عند باب الدار ، ثم أقبل ساعياً متواضعاً منخفض الرأس . فإذا دنا من الشيخ حياه ولثم يده ، وجلس حيث يشير إليه الشيخ أن يجلس . وقليل منهم كان يستطيع أن يبدأ الشيخ بالحديث ، وإنما كانوا جميعاً يتخذون مجالسهم فى صمت ، ويستقرون فيها لا يأتون حركة ، ولا يديرون ألسنتهم فى أفواههم ، إلا أن يدعوهم الشيخ إلى شىء من ذلك بما يلقى عليهم من سؤال أو يسوق إليهم من حديث .

وكانت نفس الشيخ تصفو فى مجلسه هذا للناس جميعاً صفاء ممتازاً ، يصل إلى قلوبهم فيملؤها حبًّا وإكباراً . وكان صوته يعذب عذوبة رائعة تخلب أسماع الذين يحيطون به ويصغون إليه . وكثيراً ما كان الشيخ يفاجئهم مفاجآت تملأ قلوبهم روعة وإيماناً ؛ فهو يتحدث إلى فلان أو فلان من جلسائه فى شؤونه الخاصة أو فى الشؤون العامة ، ولكنه يقطع حديثه فجاءة ويطرق إطراقة خفيفة ، ثم يرفع إلى الناس وجهاً مشرقاً كأنه القمر ، ويقول فى صوت مرتفع شيئاً : حدثنا فلان قال : حدثنا فلان ، ويمضى بسنده متصلا حتى يبلغ النبى (ص) ثم يروى حديثاً طويلا أو قصيراً ، ثم يأخذ فى تفسيره وتأويله فى لهجة المؤمن الصادق ، ولغة الرجل الذى يعرف كيف يصل إلى قلوب الناس ويبلغ أفهامهم ، على ما يكون من اختلاف حظوظهم فى الثقافة والعلم ، وإذا

القلوب تخفق ، وإذا النفوس تذعن ، وإذا دموع تنهل ، وإذا عبرات تحتبس فى الحلوق ، والشيخ ماض فى حديثه وتفسيره ، حتى إذا بلغ من ذلك ما يريد ألقى على جلسائه نظرة تحيط بهم جميعاً وتلا قول الله عز وجل : « إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ » . ثم يطرق لحظة ثم يرفع رأسه ويتلو الآية الكريمة : « إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا » . ثم يرفع صوته بهذه الكلمات وجلساؤه معه : « اللهم صل على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه كلما ذكرك الذاكرون وغفل عن ذكرك الغافلون » . وإذ ذاك يكون المؤذن قد دعا إلى صلاة المغرب ، فينهض الشيخ وهو يقول : المغرب جوهرة فالتقطوها . فإذا صلى وصلى الناس معه ودعا فقصر فى الدعاء ، مشى إلى المائدة ومشى معه الضيف جميعاً . وقام عبد الرحمن كأنه الجنى يشرف على طعامهم داخل الدار ، وعلى عشاء هذه الجماعات المتكاثفة خارج الدار ، وينفق أولئك وهؤلاء فى طعامهم وأحاديثهم وقتاً غير قصير . ثم يدعو الشيخ عبد الرحمن ويسأله باسماً : ألا تظن أنه قد آن لك أن تستريح ؟ فيقول عبد الرحمن : وأى راحة آثر عندى من هذا ! ولكن صلاة العشاء قد وجبت يا سيدنا . يقول الشيخ : الليل كله وقت لصلاة العشاء . ثم ينهض مع ذلك متثاقلا فيخطو خطوات لا يلبث بعدها أن يسترد نشاطه ويعود شاباً فتيا ، وإذا هو يقيم الصلاة ويؤم الناس ، فإذا أتم الفريضة أكثر

من التنفل ، ثم يتحول عن القبلة ويأخذ فى بعض الحديث ساعة أو بعض ساعة يستخفى أثناءها عبد الرحمن فلا يراه أحد . ثم ينظر الشيخ فإذا عبد الرحمن ماثل بين يديه ، فيقول : الآن أقيموا حلقة الذكر .

ولم يعرف عبد الرحمن فى حياته كلها سعادة كالتى عرفها فى هذا الأسبوع ، ولكنه لم يعرف فى حياته كلها شقاء كالذى عرفه بعد أن قفل الشيخ وأصحابه راجعين إلى المدينة . فقد كان حق هذه الزيارة الكريمة المباركة أن تتم قبل أعوام طويلة حين كانت تجارة عبد الرحمن الضخمة رابحة ، وحين كانت ثروته العريضة نامية . فأما فى هذه الأيام التى كسدت فيها التجارة وتضاءلت فيها الثروة ، وثقل فيها الرجل عن السعى وضعف عن احتمال الهم الملح والجهد الثقيل ، فإن هذه الزيارة الكريمة المباركة قد تملأ قلب المضيف غبطة وسروراً ، وقد تشيع ذكره والثناء عليه ، وقد ترفع مكانه فى الجنة درجات ، ولكنها بعد هذا كله تكلفه من النفقة ما لا طاقة له ولا قدرة له عليه . وقد جد الرجل مع ذلك حتى نهض بالحق ، وأدى ما استتبعه هذا الأسبوع من دين . ولكنه لم يكد يفرغ من ذلك حتى أحس الجهد وبلغ منه الإعياء ، فلزم داره ولم يبرحها إلا دعى إلى رضوان الله بعد شهور .

١٢

لم تعرف المدينة قط عاماً كهذا العام ، امتلأ فيه شهر الصوم بالخير والبركة وبالحب والتواصل ، وبذكر الله والعكوف على طاعته ، حتى لم يشكُ الفقير فقراً ، ولم يحس البائس ضرًّا ، ولم يجد الغنىّ غروراً بثروته ولا فتنة بماله وجاهه . إنما شاع فى المدينة شىء من الدعة والأمن والأمل والرخاء ، فصام الناس مخلصين لله فى صومهم ، وقد اطمأنوا جميعاً إلى أنهم سيفطرون إذا وجبت الشمس كما لم يتعودوا أن يفطروا ، وسيؤدون صلاتهم على أحسن ما تؤدى الصلاة ، وسيسمعون القرآن كأحسن ماتكون تلاوته وترتيله ، وسيعودون إلى بيوتهم فينامون نوماً هادئاً مطمئناً ليستقبلوا يوماً راضياً سعيداً . وكان الشيخ مصدر هذا كله ؛ فقد عاد من القاهرة فى هذا العام كما تعود أن يعود من أسفاره ، فاحتجب عن أصحابه ثلاثة أيام . ثم ظهر لهم فى اليوم الرابع ، فقال لهم وسمع منهم ، ولكنه قال لهم أثناء السمر : قد أظلنا شهر الصوم . ثم التفت إلى خالد وقال ضاحكاً ؛ وما أرى قاضيك إلا سيأمرنا بالصوم بعد غد . ثم أطرق ساعة ورفع رأسه وقال : صوموا لرؤيته وأفطروا لرؤيته فإن غمّ عليكم فأكملوا شعبان ثلاثين يوماً . وما أرى أنه سيغم علينا غداً ، وما أرى أننا سنكمل شعبان ثلاثين يوما . سنصوم بعد غد إذاً ، فأذنوا فى الناس ، وليبلغ القريب منكم البعيد فى المدينة : أن من شاء أن يكرمنى فهو ضيفى أثناء الصوم كله . فلما سمع جلساء الشيخ حديثه هذا وجموا له شيئاً كأنهم يعجبون لما

سمعوا ، وينكرون هذه الدعوة العامة . ولكن الشيخ قال فى تؤدة وهدوء :
إن الذين صحبونى منكم إلى القاهرة يعلمون أن يدىّ لم تمتلئا قط بالخير
والنعمة كما امتلأتا فى هذه الرحلة . والذين لم يصحبونى إلى القاهرة قد
رأوا من غير شك هذه السفن الكثيرة الموقرة التى ألقت مراسيها على الشاطئ
وأرسلت إلىّ ما كانت تحمل من أنواع الهدايا وضروب البر . ولست
أدرى ماذا أصاب الناس فى هذا العام ؛ فقد مرضوا كلهم بالكرم ،
وحرصوا كلهم على أن يعطونا مما أعطاهم الله ، فاجتمع لنا من ذلك ما لا
نستطيع أن نستنفده إلا أن يشاركنا الناس فيه ، وإنما هو مال الله ،
فيجب أن يرد إلى الله . وهمّ بعضهم أن يتكلم ، فابتدره الشيخ قائلا :
هون عليك ! فإنا لم نكن ننتظر هذا الخير لنكفل لإبراهيم بعدنا حياة
راضية ، وإبراهيم بعد خليفتى فيكم ، وأنتم أوصيائى عليه . هنالك
ارتج مجلس الشيخ وضج الناس بالبكاء ، والشيخ ينظر إليهم باسماً
ويتلو السورة الكريمة : « إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللهِ وَالْفَتْحُ . وَرَأَيْتَ النَّاسَ
يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللهِ أَفْوَاجًا . فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ
تَوَّابًا » . ثم يقول بعد إطراقه خفيفة : لقد رأيت رسول الله (ص) فى
المنام . وهنا يزيد القوم ضجيجاً وعجيجاً بالبكاء ، فيرفع الشيخ صوته :
لقد رأيت رسول الله (ص) فى المنام ، وقد قال الغزالى إن النبى لا يرى
فى المنام . والله ما هكذا كان الأمل فيك يا غزالى ! لقد رأيته بعينى رأسى
هذا راكباً بغلته . وسمعته يتلو هذه السورة فى صوت ما سمعت قط صوتاً
يشبهه حلاوة وعذوبة . فلما أفقت من نومى ذكرت أن الله عز وجل نعى

إلى سيد الخلق نفسه حين أنزل عليه هذه السورة ، فأولت رؤياى هذه كما أول سيد الخلق نزول السورة عليه . ثم سكت وأطرق ، وسكت القوم مثله وأطرقوا كأن على رءوسهم الطير ، ثم رفع رأسه قائلا : « وَمَا تَدْرِى نَفْسٌ مَاذَا تَكْسِبُ غَداً وَمَا تَدْرِى نَفْسٌ بِأَىِّ أَرْضٍ تَمُوتُ » . صدق الله العظيم .

فلما كان الغد امتلأت المدينة وما يليها من القرى والضياع بأن الناس جميعاً ضيف الشيخ أثناء شهر الصوم . واستجاب الناس جميعاً لدعوة الشيخ . فأما أغنياؤهم فكانوا يبتغون البركة والكرامة ويؤثرون رضا الشيخ وأما فقراؤهم وذوو الحاجة منهم فكانوا يؤثرون البركة والكرامة ويؤثرون إرضاء حاجاتهم أيضاً . ويقول بعضهم لبعض : إن بركة الشيخ لشاملة ، سنصوم هذا العام دون أن نشقى بالعمل أثناء الصوم ، ودون أن ننتظر معونة تأتى أو لا تأتى من القادرين .

وكان الشيخ وخاصته يتتبعون أصحاب الأسر من أوساط الناس وفقرائهم فيكرمونهم فى بيوتهم لا تنقطع عنهم مؤونة الشيخ ، تأتيهم مصبحين وممسين . ولولا أن الباشا كان من أتباع الشيخ ومريديه والمؤمنين له المطمئنين إليه لشك فى هذا الكرم ، ولأشفق من عواقبه على السلطان . ولكن الباشا نفسه كان من أسرع الناس استجابة لدعوة الشيخ وأكثرهم تردداً على مائدته . ولم يهمل أن يدعو الشيخ إلى قصره مرتين ، ولم يهمل الشيخ أن يستجيب لهذه الدعوة كما تعود أن يفعل ، وأن يستكثر من الأصحاب والأتباع ، ويقول للباشا : فأما وقد دعوتنى فسأرزؤك فى مالك

رزءاً عظيما . ولم يكن الشيخ يهمل أن يزور الأغنياء من أهل المدينة ، ويستجيب لهم إذا دعوه ، فيفطر على موائدهم ويصلى عندهم العشاء والتراويح ، ويسمع لقرائهم . وكان الشيخ قد دعا قراء المدينة جميعاً ليقرأوا فى داره وفى دور أصحابه ، حتى لم يدع منهم قارئاً حسن الصوت إلا ضمن له تلاوة القرآن أثناء شهر الصوم ، وحتى احتاج إلى أن يدعو قراء من المدن القريبة يقرءون عنده . ولم يدع أثناء هذا الشهر أحداً من أصحابه إلا اختصه بشىء من حديث .

وفى ذات ليلة كان يتحدث بين سورتين من سور القرآن والخدم يطوفون بقهوة البن والقرفة على جلسائه ، وإذا هو يقطع حديثه فجاءة وينظر إلى اثنين من أصحابه كانا يتحدثان ، أحدهما علىّ أبو خالد ، والآخر رجل من أصفياء الشيخ ومن أغنياء الريف القريب يقال له الحاج مسعود . نظر إليهما نظرة نافذة قطعت حديثهما وردّتهما إلى الصمت ، وقال لهما : فيم تتحدثان ؟ فهمّ علىّ أن يجيب ، ولكن الشيخ لم يمكنه من الجواب ، وإنما قال : استمع لى يا مسعود ! احذر صديقك عليا هذا ، إنه يدور حولك لتزوجه إحدى بناتك ؛ فلا تفعل فإنه مزواج مطلاق ، ولكن عليك بابنه خالد ؛ فإن فيه البركة وعنده الخير ، وما أرى إلا أنه سيصهر إليك وسيخطب صغرى بناتك . إنى ما زلت أذكرها ، أنها لخيرة مباركة ، فإن فعل فلا ترده خائباً ، وإن لم يتحْ لى أن أزوجهما فسيزوجهما ابنى إبراهيم . فأما علىّ فبهت وضحك ضحكاً سخيفاً . وأما الحاج مسعود فنهض من فوره وسعى إلى الشيخ فقبل يده وبللها بدموعه ، وكان رجلا رقيق القلب بكاء ، وقال فى صوت تقطعه العبرة : بل يبقيك

الله ويطيل عمرك يا سيدنا وتزوج سائر بناتى كما زوجت من تزوجت منهن . قال الشيخ وهو يضحك : يا غلام ! قهوة سوداء للحاج مسعود ، فما يرقئ عبرته هذه إلا القهوة السوداء . اجلس يامسعود بارك الله عليك وبارك لك فى بناتك وفى ذريتك ، ثم استأنف حديثه من حيث قطعه وجلساؤه يرون ويسمعون ويعجبون ويقول بعضهم لبعض : لقد نالها الحاج مسعود ! من يعدل الحاج مسعود ! ليتنى كنت الحاج مسعود !

على أن شهر الصوم لم ينته دون أن يحمل إلى الشيخ وإلى أصحابه نبأ محزناً ؛ فقد جاءهم من القاهرة نعى عبد الرحمن قبل أن ينقضى الشهر بثلاثة أيام . فلما أقبل علىّ يحمل النبأ إلى الشيخ بكى واسترجع وقال : تبارك الله ! لقد كنت أظن أنى سأسبقه فقد سبقنى . ثم سكت لحظة واستأنف حديثه فقال لعلى وابنه خالد : فإنكما تذكران ما أعطيت عنكما من العهد . قالا : نعم . قال : فاذهبا إلى القاهرة فأديا الواجب ، وضما إليكما نفيسة وابنتها وأمها . ثم التفت إلى علىّ وقال له كالساخر منه الراثى له : ولاتنتظر مالا يا علىّ فقد أتينا على مال عبد الرحمن كله حين زرناه ، وانصرف الآن فإن لى مع خالد حديثاً لا أحب أن تسمعه ولا أن ينبئك به . قال علىّ وهو ينتحب : فإنك ساخط على يا سيدنا . قال الشيخ : أعوذ بالله من ذلك ! وإنما أريد أن أتحدث إلى خالد حديثاً لا ينبغى أن يعلمه غيره ، انصرف مصاحباً . قال على : سأنصرف طاعة لأمرك ، ولكنى لست راضياً . قال الشيخ : سترضى . وخرج على متثاقلا كالحزيان . فلما خلا الشيخ إلى خالد ، قال له : ستكون براً بنفيسة وأمها يا بنى . قال خالد : فقد أعطيت على ذلك عهد الله

يا سيدنا ، وأنا أجدده . قال الشيخ : وأول البر بها أن تطلقها . فوجم خالد لهذا القول ، ولكن الشيخ مضى يقول : إنها لا تصلح لك زوجاً ، ولا تصلح زوجاً لأحد ، وما ينبغى لها أن تحمل ولا أن تلد ، فطلقها فتحسن إليها وإلى نفسك. إنك ستتزوج ، وستتزوج من بنت مسعود ، وستتزوجها بعد عام أو عامين ، لأنها لم تبلغ طور الزواج بعد . فإذا تزوجتها فلا تفرض عليها ضرة ، فإنها لن تحتمل الضرائر ، ولا تمسك نفيسة فى هذا الزواج العقيم ، ولا تكلف نفسك عدلا لا تطيقه وقلما يطيقه الناس . طلق نفيسة يا بنىّ واضممها مع ذلك إلى أهلك ، وسر معها سيرتك مع أختك ، واستقبل حياتك مباركاً موفوراً . وترحم علىّ كلما أصابك خير ، واستغفر لى كلما امتحنتك الأيام بما تكره فإنى لم آلك نصحاً . ثم مسح رأسه وقبل بين عينيه وقال : انصرف راشداً ، فسنصلى ونقيم الذكر ، وسنذكركم فى صلاتنا ودعائنا ، وسنستنزل رحمة الله على عبد الرحمن .

وأتمت المدينة شهر الصوم كما بدأته سعيدة راضية ، واستقبلت عيد الفطر هانئة ناعمة ، ولكنها ارتجت وارتج معها الإقليم كله فى اليوم الثالث من أيام العيد ؛ فقد صلى الشيخ بأصحابه المغرب ، حتى إذا أتم الركعة الثالثة وجلس للتشهد لم يرع الناس إلا أن رأوه يكبّ على وجهه قبل السلام ، فيسرعون إليه فإذا هو قد صار إلى رضوان الله . ومنذ ذلك الوقت لم يشك أحد من أهل المدينة ولا من أهل الإقليم فى أن الله قد آثر الشيخ بهذه الكرامة ، فنقله إلى جواره أثناء الصلاة ، وأقره فى جنته بين الصديقين والشهداء .

١٣

صلى إبراهيم بأصحابه العشاء وسمع معهم القرآن وأقام لهم حلقة الذكر . فلما هم الناس أن يتفرقوا استبقى أصفياء أبيه ، حتى إذا خلا لهم المجلس قال لهم فى صوته الهادئ : تعلمون أن الشيخ رحمه الله كان قد أزمع الحج من عامه هذا ، وكان عليه حريصاً يريد أن يتم الحجة السابعة ، ولكن الله آثره برحمته قبل أن يبلغه هذه الأمنية. وقد استخرت الله ورأيت أن أتم ما لم يتح له ، فأنا مستعد للحج إذا كان الغد ، وواهب ثواب هذه الحجة إن أثابنى الله عليها للشيخ . فمن أراد منكم أن يحج معنا فليتجهز من غده ، ومن كان ذا عيلة فإن علينا نفقته ؛ فقد ترك الشيخ لنا خيراً كثيراً . ثم أطرق إطراقة ورفع رأسه وقال : وتحدثوا بذلك إلى من شئتم من أصحابكم والذين يلونكم ؛ فإنى لاأكره أن يكثر الحج على اسم الشيخ ، وأن أعين على أداء هذه الفريضة من عجز عن أدائها . فماذا ترون ؟ قالوا كلهم : إنما رأيت رشداً ، وقد خار الله لك فيما ألهمك ، وكلنا متجهز للحج من غده ، وكلنا واهب ثوابه للشيخ إن أثابه الله . وكان أسرعَهم إلى الجواب مسعوداً ؛ فقد حج مع الشيخ ست مرات ، وكان مزمعاً أن يحج معه السابعة ، فلما توفى الشيخ فترت همته عن النفير . وها هو ذا يسمع ابن الشيخ يستأنف حديث الحج ، فلا تسل عما ملأ قلبه من رضا وما شاع فى نفسه من حبور . ولكن الدموع كانت تترجم دائماً عن سروره وحبوره ، كما كانت تترجم دائماً عن خشيته لله وخوفه

منه ، وكما كانت تترجم دائماً عن تأثر قلبه حين كان يسمع صوتاً حسناً يتلو القرآن أو يغنى فى الحلقة بشعر ابن الفارض . فأما خطوب الدهر وأحداث الدنيا وهذه المصائب التى تُلم بالناس فتفزعهم وتروعهم فقد كان يلقاها بقلب جلد ونفس ثابتة وعين شديدة البخل بالدمع . ولم يكن يبكى لأمر من أمور الدنيا إلا أن يرزأ فى ولد أو صديق فتذرف عيناه دموعاً غزاراً وقتاً قصيراً ، كأنهما السحابة ، لا تكاد تجود ببعض مائها حتى تُقلع ، وإذا هو يتوب إلى الله ويستغفره ، ويلوم نفسه لأنها بكت على أمر من أمور الدنيا ، وليس فى أمور الدنيا ما يستحق البكاء . على أن عبرته لم تكد ترقأ مُنذ توفى الشيخ ؛ وأكبر الظن أنه لم يكن يرى فى وفاة الشيخ خطباً من خطوب الدنيا ، وإنما كان يرى فيه خطباً عظيما من خطوب الدين ؛ فقد كان الشيخ رحمه الله مثلا رائعاً للتقوى والورع ، وداعياً صادقاً إلى الله ورسوله ، لا يكاد يدعو حتى تهرع إليه القلوب وتذعن له النفوس ، ولا ينصرف المستمعون له إلا وقد زاد مؤمنهم إيماناً ، وأقلع جاحدهم عن جحوده ، وهمّ مقصرهم فى ذات الدين أن يستدرك ما فات إن استطاع ، وأن يستأنف حياة فيها رشاد وخير .

وكان الحاج مسعود مشفقاً أشد الإشفاق أن يقصر إبراهيم عن غاية أبيه ؛ فقد كان يرى منه فى حياة الشيخ فتوراً ونفوراً وإقلالا من التردد على مجالس الشيخ وحلقات الذكر . وكان يحدث نفسه فى كثير من التردد والخوف بأن إبراهيم قد أطال المقام فى القاهرة ، والاختلاف إلى الأزهر ، والاتصال بشيوخه . ولم يكن مسعود ينفر من شىء نفوره من الأزهر وشيوخه ؛ فقد سمع منهم وتحدث إليهم ، ورأى فيهم ميلا إلى التأويل

وإقبالا على التكلف ، وربما رأى من بعضهم ازوراراً عن الشيخ . فكان هذا كله يسيء ظنه فى الأزهر والأزهريين ، ويملأ نفسه إشفاقاً على إبراهيم من لزومه لحلقات الدرس واستماعه لهؤلاء الشيوخ الأعلام . وقد اجترأ مرة على الشيخ فقال له فى لهجته القروية التى لم تكن تخلو من عنف حلو : ألا تنبئنى فيم ترسل ابنك إلى القاهرة ليطلب العلم فى الأزهر ، وعلماء الأزهر يتكلفون الرحلة إليك ليأخذوا قليلا من علمك ، ومنهم هؤلاء الثلاثة الذين يلزمونك منذ أعوام لا يفارقونك ، والذين تشتد عليهم فى تأديبك لهم ، وتأخذهم بالعنف أكثر مما تأخذهم بالرفق وهم راضون بذلك متهالكون عليه ؟! فهلا أمسكت ابنك وعلمته مما علمك الله وأدبته كما تؤدب هؤلاء النفر ، وأعددته لخلافتك فى أصحابك كما أعدك شيخنا لخلافته فينا ؛ وهنا تحطم صوته وانهلت دموعه . فرحمه الشيخ وقال ضاحكاً : ما أنت وذاك يا مسعود ؟ أترانى كنت ابناً للشيخ؟ قال مسعود : لا . قال الشيخ : أترى أن قد كان لشيخنا أبناء ؟ قال مسعود : نعم . قال الشيخ : ومع ذلك فقد صرف خلافته عن أبنائه وآثرنى بها ، فما يدريك أن ابنى سيكون خليفتى فيكم ؟ وهؤلاء الثلاثة الذين تتحدث عنهم لقد وعوا علم الأزهر كله ، ثم جاءوا يطلبون ما عندى من العلم فدع إبراهيم يحفظ من علم الأزهر مثل ما حفظوا ، ولك على أن أكون بتعليمه هنا حفياً ، وأن أعنف به فى التأديب كما أعنف بهؤلاء النفر إن رأيت فيه صلاحاً لذلك الأمر وقدرة على النهوض به . فلما رأى مسعود أن إبراهيم لم يكد يتم الأسبوع الأول بعد وفاة أبيه حتى فكر فى الحج ودعا إليه ، ولم يفكر فى الحج لنفسه ، وإنما يفكر فى الحج لأبيه ، رضيت

نفسه واطمأن قلبه وسالت دموعه على لحيته غزاراً . وابتسم الشيخ الشاب له كما كان يبتسم له أبوه من قبل ، وقال : كفكف دمعك يا مسعود ، ألا يمكن أن تنفق ساعة لا تذرف فيها دمعاً ، ثم التفت إلى رجل من أصفيائه كان فى آخر المجلس لم يظهر نشاطاً شديداً للحج ، وإنما أجاب كما أجاب الناس ، ولم يكن هذا الرجل إلا عليًّا ، التفت إليه إبراهيم وقال : أما أنت يا علىّ فمتخلف عنا . قال علىّ : وكيف ذاك ؟ أتأمرنى بالتخلف ؟ قال الشيخ الشاب : لا آمرك به ، ولكن أنبئك بما سيكون من أمرك ، ستهم كما يهم غيرك حتى نرى أنك مسافر معنا ، ثم نفتقدك فلا نراك ، ثم تعتذر إلينا إذا انقلبنا ؛ لأنك قد شغلت بمالك وأهلك . فإن استطعت أن تعتذر منذ الآن فافعل ، ولا تكلف نفسك مشقة لا تغنى ، ثم تضاحك وقال : إنك حديث عهد بزواج . وكاد علىّ يغضب ولكن كيف يكون الغضب على الشيخ ، إنما يغضب الشيوخ على مريديهم . وقد كظم علىّ شيئاً فى نفسه وانصرف متردداً لا يدرى أيقدم على الحج أم يحجم عنه . ولم يكن الشيخ مخطئاً فيما قدر من أمر على ، فقد كان حديث عهد بالزواج ، يتزوج للمرة الثامنة بعد أن طلق من نسائه من طلق . وكانت عرسه في هذه المرة فتاة لم تبلغ العشرين ، وكان بها مفتوناً وبحبها متيما . فكان الذى أغراه بهذا الزواج هو شيخه رحمه الله حين عبث به ذات ليلة ، وقال لمسعود : إنه سيخطب إليك إحدى بناتك ، فلا تزوجه إن فعل ، وعليك بابنه خالد فإن فيه بركة وخيراً ؛ هنالك ضحك على ضحكاً سخيفاً وانصرف وفى نفسه شىء ، ولكنه لم ينقطع عن التفكير فى أن يتخذ لنفسه زوجاً شابة . ألم يكن قد طلق زينب

ولم يمسك فى داره إلا خديجة ومحبوبة وذكرى أم خالد ؛ فله الحق فى زوج رابعة . وقد بحث عن زوج رابعة ، فما أسرع ما اهتدى إليها عند بعض عملائه من تجار المدينة ، وكان رجلا متواضعاً ضئيل التجارة . فلما سعى إليه علىّ ذو المكانة والجاه خاطباً ابنته « هناء » ، رأى فى ذلك شيئاً من الشرف وارتفاع القدر ، فقبل خطبته راضياً ، وزوجه مغتبطاً ، ولم يفكر فى أنه يهدى هذه الفتاة التى لم تبلغ العشرين إلى شيخ قد ناهز الستين . على أن « هناء » لم تلبث أن استأثرت بعقل الشيخ وقلبه ، وتحكمت فيه تحكماً لم يعرفه قط من إحدى نسائه ، وكادت تصرفه عما فرض على نفسه من العدل بين أزواجه لولا أنه أخذ نفسه بالعنف واشترى رضا « هناء » عن هذا العدل بكثير من الهدايا والمنح ، فأحفظ ذلك زوجيه الأخريين ، وجعل منزله جحيما ، ولكنه احتمل هذا الجحيم ، وكان خليقاً أن يحتمل أضعافه فى سبيل « هناء » . ويجب أن نعترف بأن «هناء» على سحرها وطغيانها لم تستطع أن تغير من سيرة علىّ مع ذكرى أم خالد قليلا ولا كثيراً . ولولا ما كان من موت عبد الرحمن وسفر علىّ إلى القاهرة مع ابنه خالد ، ثم ما كان من موت الشيخ فجاءة لتحدث علىّ إلى الشيخ بهذا الزواج ، أو لتندر الشيخ على علىّ فى شأن هذا الزواج . وهذا الشيخ الشاب يعبث بعلىّ على هذا النحو ، فيثير فى نفسه شيئاً يريد أن يكون غضباً ، ولكنه يستحى أن يسمى نفسه بهذا الاسم ، فلنسمه نحن فتوراً . وكان فتوراً ثقيلا حقًّا ؛ فقد أصبح علىّ وقد صمم على ألا يتجهز للحج ، فهو مشغول بأهله حقًّا . ألم يتزوج منذ أسابيع ؛ فما تركه لامرأته أشهراً ؛ وإلامَ يصير الأمر بين أزواجه إذا تركهن ؟

وهو مشغول بماله ، فتجارته متأخرة كما رأيت . وقد صدق الشيخ حين قال له : لا تنتظر أن يترك لك عبد الرحمن مالا . فلم يترك عبد الرحمن مالا ، وإنما ترك أربع نسمات قد نقلن إلى المدينة ليعشن فى كنف على وابنه خالد . وسيحتجن إلى نفقة من غير شك ، وستزداد أعباؤه ثقلا ، فلا بد من أن يعمل ، ويعنى بتجارته لينهض بهذه الأعباء . وليس من شك فى أن خالداً يعينه على بعض أمره منذ أصبح موظفاً . ولكن أين تقع معونة خالد من هذه البطون التى لا تمتلىء والأفواه التى لا تشبع ومن هذه الدار التى كان يشبهها علىّ بجرة لا قعر لها ، فلا سبيل إلى أن تمتلىء !
وأمسى علىّ من يومه ذاك فصلى مع الشيخ ، وشهد معه حلقة الذكر . فلما تفرق الناس أقبل على الشيخ مستخذياً وهو يقول : لقد أنبأتنى بالحق أمس يا سيدنا . قال الشيخ : ألم أقل لك إنك لن تستطيع أن تنفر معنا ؛ فأصلحْ من أمرك وانصح لأهلك ومالك ، وأقم على طاعة الله وابتغاء مرضاته ، وفكر فى أنك لم تؤد فريضة الحج بعد ، وفى أن من الحق عليك أن تؤديها . وإنى لأرجو إن أتاح لى الله حياة أن أحج لنفسى من قابل ، فاجتهد فى أن تصحبنى فى هذه الحجة . وخرج على راضياً كل الرضا ؛ فقد قبل الشيخ عذره من غير مشقة ، وفتح له باباً واسعاً من أبواب الأمل ؛ فليصلحن من أمره ، وليحسنن تدبير ماله ، وليحجن مع الشيخ فى العام المقبل . بينه وبين ذلك عام كامل تهدأ فيه ثورة الحب هذه التى كادت تفسد قلبه ، وكادت تجعله عبداً لهذه الفتاة التى تسمى هناء . إنها لهناء كاسمها ، إن وجهها لجميل مشرق ، وإن لها لقواماً معتدلا . وإنها لتحسن العناية به والحنو عليه ، وإنها لتلقاه بابتسام

حلو شابّ لم يعهده عند غيرها من النساء ، وإن صوتها ليقع من قلبه موقعاً عذباً كأنه قطرات الندى . ويروح على هناء ، فإذا دخل وجدها ساهرة تنتظره ، ولكنه لا يلتفت إليها ولا يلقى إليها حديثاً ، وإنما يستقبل القبلة فيركع ركعتيه ، ويتمتم بدعائه القصير ، ويأوى إلى فراشه وهو يتلو آية الكرسى ، ثم يبتسم لزوجه ويقول : لقد كدنا يا هناء أن نفترق أشهراً ، ولكن الشيخ أذن لى فى أن أؤجل الحج عاماً .

١٤

وعاد علىّ وخالد بنفيسة وأمها وابنتيها من القاهرة بعد أن نظما ما كان قد ترك عبد الرحمن من اضطراب قليل ، وأديا من ماله ما أعجله الموت عن أدائه من الدين . ونظرا فإذا هاتان المرأتان لم ترثا عن عبد الرحمن إلا داره الفخمة هذه ، ودنانير يمكن أن تحصى فى غير مشقة ولا جهد . وقد تحدث على فى أن يبيع هذه الدار ، فبكت نفيسة ولم تقل شيئاً ، وقالت أمها : لو عاش عبد الرحمن ما بيعت الدار ، فأعرض علىّ عن هذا الرأى . وتحدث من الغد عن تأجير الدار ، فبكت نفيسة ولم تقل شيئاً ، وقالت أمها : وترضى أن يسكن هذه الدار غير عبد الرحمن ! وأين تنزل وينزل خالد حين تأتيان إلى القاهرة ! وأين ننزل نحن إن أتيحت لنا العودة إلى القاهرة ؟ ! ثم التفتت إلى خالد وقالت : فستأذن لنا بأن نأتى إلى القاهرة لنزور قبر عبد الرحمن ؟ قال علىّ : سنأتى إلى القاهرة جميعاً لنزور قبر عبد الرحمن . ثم أعرض عن تأجير الدار . وتهيأ القوم للسفر ، وأغلقت الدار . وجعلت أم نفيسة والعربة تمضى بها تلتفت وتطيل النظر إلى دارها لا تقول شيئاً ، حتى إذا انعطفت بها العربة فى بعض الطريق ولم تبق سبيل إلى رؤية الدار ، اعتدلت المرأة فى مجلسها وقالت لخالد: فأين مفتاح الدار ؟ فإنى أحب ألا يفارقنى . هنالك دفع إليها خالد مفتاحها وإن شفتيه لتبتسمان وإن قلبه ليتقطع حزناً .

وقد أقر علىّ هاتين المرأتين وهاتين الصبيتين فى جناح من داره منعزل

يوشك أن يكون داراً مستقلة . وكان حريصاً أن يقرهن فى هذه الناحية ليعشن بمعزل عن هذه الضوضاء التى تمتلىء بها داره ، والتى تأتى من نسائه المختصات دائماً ومن بنيه وبناته الذين لم يكونوا يعرفون السكون . وقال خالد لأبيه وهما يتحدثان فى ذلك : إنه لرأى صائب . سيكنّ مستقلات أو كالمستقلات ، ولن ترى نفيسة السلم فليس فى هذا الجناح سلم ، ولن تلقى جنية البيت هذه المجرمة التى تسكن حنايا السلم وتسعى بالفساد بين الأزواج . قال ذلك وهو يضحك ضحكاً حزيناً . قال على : وستقيم معهن . قال خالد : أما هذه فلا ؛ فإن نفيسة لا تصلح لى زوجاً ولا تقدر على عشرتى . ألم تر إليها تحتجب من دونى ! إنها لا تكاد تعلم بمقدمى حتى تلقى على رأسها ووجهها ما يسترهما ، وإنها لا تتحدث إلى إلا همساً ومن طرف لسانها ، وإنى لأوجه القول إليها فلا تملك أن تجيبنى ، وما أكثر ما تجيبنى عنها أمها وابنتاها ، وسأزورهن بين حين وحين ، وسأنهض بما لهن على من حق حتى يقضى الله أمراً كان مفعولا .

وكذلك أقام هؤلاء النسوة فى طرف من أطراف الدار ، لا يكدن يسعين إلى أهلها ، ولا يكاد أحد من أهلها يسعى إليهن . وكانت لأم خالد أمة سوداء قد أعتقها القانون ، ولكنها ظلت وفية لمولاتها . فلما ماتت وفت لسيدها خالد ووفى لها خالد ، فكانت تقوم على العناية به والإصلاح من أمره . ولم يكن خالد يألف من هذه الدار الواسعة وبين هذه الأسرة الضخمة إلا شخصين اثنين هما أبوه ، ولم يكن يلقاه إلا قليلا ، ومولاته نسيم وكانت تتلقاه مصبحة بما يحتاج إليه ، وتتلقاه ممسية بما يحتاج إليه ، وتعكف على نفسها بين ذلك الدار لا تحفل بأحد ولا يحفل بها أحد .

فلما حُمل هؤلاء النسوة من القاهرة وأقررْن فى طرف من أطراف الدار ، قال خالد لنسيم : إن كنت تحبينى وإن كانت فى نفسك بقية من الحب لمولاتك ، فقوى على العناية بهؤلاء النسوة وامنحيهن من حبك وبرك مثل ما تمنحينى ، ولا تشغلى نفسك بى فإنى أحسن تدبير أمرى . قالت نسيم وهى تضحك : تحسن تدبير أمرك — وكانت تنطق الحاء هاء — وأنت لا تحسن أن تجد ثيابك ولا أن تلبسها إلا أن تهيئها لك نسيم ! تحسن تدبير أمرك ! ومن يقدم إليك القهوة ؟ ومن يقدم إليك غداءك وعشاءك ؟ ثم ضحكت له بوجه كأنه وجه القرد ، ولكنه على ذلك كان جميلا فى عين خالد ، يُجمله ما كان يغمره من حب وحنان . ضحكت له وقالت : سأخدمهن كما أخدمك ؛ فإنى كنت أقضى يومى وليلى فارغة لا أعمل شيئاً ، فقد أصبح لى عمل منذ الآن .

ولم تكد نفيسة تراها حتى اطمأنت إليها ، ووثقت بها الصبيتان وأحبتهما هى أشد الحب ، فما أكثر ما تمنت أن يكون لها ولد تعنى به . ، فقد أرسل الله إليها ابنتين تعنى بهما .

ثم يعود الشيخ من حجه بعد أشهر ، ويهرع أهل المدينة وأهل الإقليم إلى لقائه مقبلا ، وإلى زيارته وتحيته بعد أن استقرت به الدار . ويسعى علىّ إليه فيمن يسعى ، فيلقاه الشيخ أحسن لقاء ، ويدفع إليه سبحة ضخمة الحبات وهو يقول له : لقد ذكرتك فى مكة واستغفرت لك ، وسألت الله لك عفواً وعافية فى المسجد الشريف ، وأنا أهدى إليك هذه السبحة على شرط ألا تفارقك عن إرادة منك ، وعلى شرط أن تدير ذكر الله عليها مرة فى كل يوم وتهب ثواب هذا الذكر لوالدى رحمه الله .

فيكبّ علىّ على يد الشيخ لثماً وتقبيلا ، ويأخذ السبحة فيقبلها مرة ومرة ، وأصحاب الشيخ ينظرون إليه ويقول بعضهم لبعض همساً : لو قال الشيخ هذه المقالة للحاج مسعود لأجهش بالبكاء ، ولكن انظروا إلى علىّ ما أقسى قلبه ! إن وجهه ليبسم كأن الشيخ يداعبه .

ويقبل خالد لزيارة الشيخ فيمن أقبل ، فيلقاه الشيخ لقاء حسناً ويمنحه يده ليقبلها ، ثم يقول له : إذا فرغنا من هذه الزيارات فالقنى فإن لى معك حديثاً . ويسعى خالد إلى الشيخ بعد أيام ، فإذا رآه الشيخ أدناه واستبقاه ، حتى إذا خلا إليه قال له : ألم أعلم أن أبى كان قد خطب لك بنت الحاج مسعود ؟ قال خالد : بلى . قال الشيخ : فأين أنت من هذه الخطبة ؟ قال خالد فى شىء من استحياء : فإن الحول لم يحل على موت عبد الرحمن . قال الشيخ : وصلتك رحمٌ يا بُنى وبارك الله عليك ! ولكن لنقرأ الفاتحة فأما الزواج وزفاف أهلك إليك فاضرب لهما ما شئت من موعد ، و « مُنى » ما زالت بعدُ صبية . ثم صفق بيديه ، فلما أقبل الخادم قال له الشيخ : ادع لى الحاج مسعود . وأقبل الحاج مسعود ، فاستدناه الشيخ حتى أجلسه على يمينه على كره منه ، فقد كان الحاج مسعود يحرص دائماً على أن يقوم بين يدى شيخه الكبير ثم بين يدى شيخه الصغير ، لا يجلس إلا مأموراً . فلما استدناه الشيخ وأجلسه عن يمينه استعظم ذلك وأخذت دموعه تسيل . قال الشيخ : أما ترحمنا من دموعك هذه آخر الدهر ! كفكفها ولو ساعة ، ابسط يدك فقد أنى لنا أن نُنفذ وصية الشيخ . ثم بسط الحاج مسعود يده وبسط الشيخ يده فتصافحا ، وقرأ الثلاثة الفاتحة وإن الحاج مسعود لينتحب بقراءته انتحاباً .

١٥

وكان الحاج مسعود نادرة فى عصره وبيئته . كان رجلا أميًّا لا يقرأ ولا يكتب ، وكان مع ذلك يحفظ القرآن كأحسن ما تكون التلاوة ، لولا أن تلاوة هذه كانت تضطرب أحياناً ، وربما انقطعت بهذا البكاء الذى كان يغلبه كلما قرأ آية فيها نذير أو تبشير . وكان أبوه الحاج عمران أميًّا مثله ، أو قل إنه كان أميًّا كأبيه الحاج عمران . وكانت الأمية مذهباً لهذا الشيخ من شيوخ الريف المصرى ؛ فقد أبى أن يرسل ابنه إلى الكتاب لأن أباه لم يرسله إلى الكتاب . . وكان يقول : ينبغى أن ندع القراءة والكتابة والحساب لهؤلاء الأقباط الذين يغنون عنا بها فى كل ما نحتاج إليه . علينا أن نتجر ونثمر المال إن كنا من أصحاب التجارة ، وأن نزرع ونستثمر الأرض إن كنا من أصحاب الزرع ، وأن ننهب ونملأ الأرض فساداً إن لم نكن من أولئك ولا هؤلاء . فإن احتجنا إلى شىء من قراءة أو كتابة أو حساب فأهون هؤلاء الأقباط يكفينا مؤونة ذلك . وكان يشير إلى شيخ يكاد يماثله فى السن ويقول : انظروا إلى هذا المعلم مرقص ؛ لقد رأيته يكتب لأبى ، وهو قد كتب لى حتى أخذ يضعف كما أضعف ، ولكنه علم ابنه بطرس الكتابة والحساب ليقوم مقامه إن عجز عن العمل ، كما علمت ابنى مسعوداً التجارة فى غلات الأرض ليقوم مقامى حين تقعدنى السن عما أسعى فيه الآن من البيع والشراء . وكان الناس ربما ذكروا له أنه مسلم غنى ، وأن من الحق عليه أن يقرئ ابنه شيئاً من

القرآن ويعلمه شيئاً من العلم ؛ فإن ما يقضى بالجهل على الفقراء هو الأمية . فكان ذلك يُضحكه ويحفظه فى وقت واحد : كان يضحك لأنه رأى أباه يحفظ من القرآن ما يجزئ عنه فى صلاته ، وقد حفظ هو من القرآن ما يجزئ عنه فى صلاته أيضاً ، وعلمه ابنه فحفظه ؛ وآية ذلك أنه يصلى ويجهر بالقراءة حيناً ويخافت بها حيناً آخر ، لا يأخذ عليه أحد خطأ فيما يقرأ ، وأن ابنه يصلى ويقرأ القرآن فى صلاته فلا يخطئ فيما يقرأ منه . والله لم يأمر المسلمين بأن يحفظوا القرآن كله ولا بأن يقرءوه كله ، وإنما أمرهم أن يقرءوا ما تيسر منه ؛ فأما حفظه كله وقراءته كله ، فيكفى أن ينهض بهما الذين تفقهوا فى الدين . وكان يغتاظ حين يرى الزراية على الأمية والغض من الأميين . كان يرى فى ذلك شيئاً من الإثم ؛ لأن النبى (ص) كان أمياً ، ولأن العرب كانوا أميين ، لم يعابوا بذلك ولم يغض ذلك من قدرهم كثيراً . ولم يكن يغنى شيئاً أن يقال للحاج عمران إنه ليس النبى ولا شيئاً يشبه النبى من بعدُ . فإذا كانت أمية النبى آية له ، فأمية الحاج عمران نقص فيه ، وإن العرب لم يفاخروا قط بأميتهم ، وإنما جاء النبى ليخرجهم من هذه الأمية . لم يكن من المفيد أن يقال شىء من ذلك للحاج عمران ؛ فإنه لم يكن يسمع له أو يلتفت إليه ، وإنما استقرت هذه الآراء فى نفسه لا تبرحها ، وأقفل الأفق بينهِ وبين ما وراء هذه الآراء من المعانى والحقائق ، فهو لا يتجاوزه ولا يعدوه . وكان ابنه مسعود يرى رأيه ويسير سيرته فى كل شىء : جهلٌ بالقراءة والكتاب ، ومفاخرة بهذا الجهل ، وبراعة فى التجارة وتزيدٌ فى هذه البراعة ، وانصراف عن الشر ما وسعه الانصراف عن الشرّ ، وإيثار

للخير والمعروف ما أطاق إيثار الخير والمعروف . ولكن الله أتاح لمسعود ما لم يتح للحاج عمران ، فوصل أسبابه بأسباب الشيخ حين ارتحل الشيخ لأداء حجته الأولى ، فكان مسعود ممن سافروا مع الشيخ وأدوا معه الفريضة ، وقد ألقى الله فى نفسه حب الشيخ ، فكان يلزمه أثناء السفر ويتطوع لخدمته ، يضايق بذلك خاصة الشيخ وأصفياءه . ولكن الشيخ كان يرضى ذلك منه ويشكره له ، ويسأل عنه إذا غاب ، ويستدنيه إذا حضر . فإذا عادت القافلة إلى وطنها كان الحاج مسعود من خاصة الشيخ والممتازين بين ذوى مودته . ومنذ ذلك الوقت لم يفارق الحاج مسعود شيخه فى سفر ولا فى إقامة ، ولم يتخلف عن مجلس من مجالسه ، ولم يتعمد التخلف عن الصلاة التى كان يقيمها الشيخ ، إنما كان يُكره على ذلك إكراهاً فى بعض الأحيان ، فيؤدى الصلاة كما يستطيع وفى نفسه شىء من حزن لأنه لم يؤدها مع الشيخ . وكان الله قد منحه ذاكرةً قوية رائعةً ، فلم يكن يسمع شيئاً إلا حفظه ، ولم يكن يتحدث إليه بشىء إلا وعاه ، وهو من أجل ذلك قد حفظ القرآن كله لكثرة ما كان يستمع لتلاوة القرآن ، وحفظ كثيراً من الحديث لكثرة ما كان يستمع إلى الشيخ وهو يروى الحديث ، وحفظ كل ما كان الشيخ يبتهل به إلى ربه من دعاء ، بل حفظ أكثر من ذلك : حفظ أطرافاً من علوم الدين ومن الفقه والتصوف والكلام خاصة ، لكثرة ما سمع الشيخ يتحدث فى هذه الألوان من العلم إلى الذين كانوا يفدون عليه ويقيمون عنده من علماء القاهرة ؛ وعرف الشيخ منه ذلك فأكبره ، وازداد عنه رضاً وبه ثقة وإليه اطمئناناً ، ولكنه قال له ذات يوم : إنك تحفظ ما تسمع من

القرآن والحديث ، وإنى أخشى عليك أن تعيد ما تحفظ فتخطئ فيه ؛ فالخير ألا تطمئن إلى حفظك حتى تعيد ما حفظت على الذين يعون القرآن ويحسنون العلم ؛ ذلك أحرى أن يعصمك من خطأ قد تضطر إليه ، ولكنى لا آمن عليك عواقبه . هنالك لجأ الحاج مسعود إلى شيخ من حفاظ القرآن فتلا عليه كتاب الله كله مرة ومرة ، حتى استيقن أنه حافظ مجود ، ثم لم يكن يسمع من الشيخ حديثاً يرويه عن النبى حتى ينتظر بالشيخ ساعة يخلو فيها إليه ، فإذا أمكنته الفرصة قال للشيخ وعلى ثغره ابتسامة تشرق عن مثل اللؤلؤ ، وفى عينيه دموع تترقرق ولا تكاد تنهل : ألستَ قد حدثتنا بكذا وكذا عن رسول الله (ص) ؟ فإذا قال الشيخ : بلى . قال الحاج مسعود : أواثق أنت بأنى قد وعيت عنك؟ فإذا قال الشيخ : نعم. قال الحاج مسعود : أفأستطيع أن أتحدث به إلى الناس ؟ فإذا قال الشيخ : نعم . قال الحاج مسعود : ومع ذلك فلن أفعل إلا مضطراً : فما أنا بالمعلم ، وما ينبغى لى أن أكونه ، وإنما أنا المتعلم والمتعلم دائماً .

وكان الحاج مسعود قد ورث عن أبيه تجارة واسعة ضخمة فى غلات الأرض . فلم تكن أرض الإقليم تنبت حبة إلا صارت من الحقل إلى الحاج مسعود ، ثم تفرقت بعد ذلك من مخازن الحاج مسعود إلى من صيرها الله له رزقاً من أهل المدينة أو من أهل الإقليم بل من أهل الأقاليم البعيدة . ولم يكن أحد يمر بمخازن الحاج مسعود فى ساعة من النهار إلا رأى أمامها جماعات لا تكاد تحصى من الحُمر والإبل ، هذه يوضع عنها ما تحمل قد أقبلت به من المتاجر والحقول ، وهذه توقر بالأجمال لتنقلها إلى المتاجر والدور ولتنقلها إلى السفن بوجه خاص . فقد كان للحاج مسعود ما يشبه

أن يكون أسطولا نهرياً . وكانت سفنه المملوكة له والتي كان يستأجرها من غيره ما تزال مُصعدة فى النيل نحو الصعيد أو هابطة فيه نحو القاهرة ، وكان الحاج مسعود مصدر رزق لخلق كثير من أهل المدينة والقرى المجاورة . فما أكثر الذين كانوا يعملون عنده بأيديهم كيلا و وزناً وتعبئة وسعياً بالتجارة هنا وهناك ، وما أكثر الذين كانوا يأجرونه من حُمر وإبل لينقلوا عنه وينقلوا إليه . وكان الناس لا يرون قطاراً من الإبل يحدو به حاد أو قافلة من الحُمر يسوقها سائق وهو يتغنى بهذا اللفظ القروى الظريف « يا دواب يا دوابّ » إلا قالوا : هذه إبل الحاج مسعود أو هذه حُمر الحاج مسعود .

وكان الحاج مسعود يسكن داره فى طرف من أطراف المدينة يوشك أن يكون قرية من قراها ، بل توشك الدار نفسها أن تكون قرية صغيرة من القرى . وكانت هذه الدار قد نمت نمواً مطرداً . ورثها الحاج مسعود عن أبيه الحاج عمران واسعة فسيحة الأرجاء ، لا تكاد ترتفع فى السماء إلا قليلا ، وورث من حولها أرضاً منبسطة لا يكاد الطرف يبلغ مداها . فلما رُزق ابنته الأولى فاطمة خطر له أن يبنى عن يمين داره الموروثة داراً جديدة صغيرة لهذه الصبية التى لم تتم العام الأول من حياتها ، وقال لامرأته وهو يضحك : إن مدّ الله لهذه الصبية فى العمر فستتزوج ، وما أحب أن تنتقل إلى زوجها فتصبح غريبة عنده ، وإنما أحب أن ينتقل الزوج إليها وأن تستقبله فى هذه الدار التى تملكها ، فلا تحس أنها تبع له أو ثقل على أسرته . ثم رزق ابنته الثانية حفيظة ، فاتخذ لها داراً إلى جانب دار فاطمة وقال لامرأته مثل ذلك القول ، وقال للناس مثل ذلك القول . ثم رُزق بعد ذلك خديجة ومُنى ، فاتخذ لهما دارين عن شمال داره

كما اتخذ لأختيهما دارين عن يمينها . ونظر ذات يوم فإذا ابنتيه قد كادت تستغرق ما كان يملك من الأرض فى طرف المدينة ، وإذا هى توشك أن تستقل عن المدينة استقلالا ، وإذا هى بناء ضخم ينبسط أمامه فناء عريض قد قامت فيه بعض الأشجار متفرقة ، وامتد له عن يمين وشمال جناحان طويلان على شىء من ضخامة . فلما رأى هذا كله أعجبه واتخذ من حوله سوراً ، وإذا داره أشبه شىء بالحصن ذى الأسوار المرتفعة فى السماء تُفتح أبوابها مع الصبح ليخرج منها الناس والإبل والماشية ، ثم تُغلق إذا تقدم الليل على من لجأ إليها وما أُلجئ إليها من الناس والماشية . فلا غرابة فى أن يفكر علىّ أبو خالد فى أن يصهر إلى الحاج مسعود كما قدر الشيخ الكبير . فقد كان شرف هذا الرجل ومكانه من الشيخ وتجارته الواسعة وثروته العريضة ودوره هذه المنبثة من وراء السور كأنها الحصن ، وهذا الخير الكثير الذى يغدو منها مع مطلع الفجر ويروح إليها عند مغرب الشمس ، كان هذا كله مغرياً لعلىّ بالإصهار إلى الحاج مسعود ، فكيف وقد سمع على أن صغرى بناته جميلة رائعة الجمال لم تبلغ الرابعة عشرة من عمرها بعد ؛ وليس من البعيد أن يكون علىّ قد وجد فى ضميره الخفى على شيخه بعض الموجدة حين صرف عنه مسعوداً وحذره من الإصهار إليه . ولكن هذا ظن نستغفر الله منه فإن بعض الظن إثم ، إنما الشىء الذى لا شك فيه هو أن شيئاً من فتور قد سرى فى اجتهاد على كما تسرى النار الخفية الضئيلة فى المقادير الضخمة الهائلة من الهشيم . وظن آخر نستغفر الله منه لأن بعض الظن إثم ، وهو أن شيئاً من الفتور الخفىّ جدًّا ، قد أخذ يسرى فى حب علىّ لابنه خالد وفى عطفه عليه .

ولو أمكن أن يحسد الآباء أبناءهم لجاز أن تكون شرارة ضئيلة جداً من الحسد قد وقعت فى قلب علىّ حين سمع الشيخ يرغب الحاج مسعوداً فى صهر خالد هذا الفتى الذى اتخذ له زوجاً فأضاعت عقلها جنية البيت ، والذى لم يكد يكسب حياته إلا منذ وقت قصير . والشيطان خبيث بغيض يندس إلى القلوب الطاهرة وإلى النفوس الزكية فيلقى فيها شيئاً من فساد ، إلا أن يعصم الله هذه النفوس وتلك القلوب من نزغات الشيطان . ولعله قد عصم منها نفس علىّ الزكية وقلبه الطاهر الذى ملىء علماً وديناً . ولكن الشيطان وقح لا يعرف الحياء ، ملح لا يكره أن يثقل على الناس بما يوسوس فى صدورهم من الشر الذى يغرى بالإثم ويورط فى سوء الظن ، يلتمس لذلك حيلا لا تحصى ، يوسوس بذلك مباشرة فى صدور الناس أحياناً ، ويُجرى به ألسنة الأعداء والحساد والجهال من الأصدقاء أحياناً أخرى. وهو قد فعل ذلك مع علىّ ، لم يجترئ أن يواجه حبه للشيخ وثقته به ، وعطفه على خالد وأمله فيه ، فدس من أصحابه من قال له مازحاً بعد تلك الليلة التى عبث الشيخ فيها به : لقد قسا عليك الشيخ أمس وصرف عنك خيراً كثيراً . ومع ذلك فمن يدرى ؛ لعل الشيخ إنما صرف عنك شرّاً كبيراً ، فإن للأولياء أمثاله أسراراً لا يفهمها أمثالنا ، ومع ذلك فإنى أرجو ألا يكون نصيب هذه الصبية إن زفت إلى خالد كنصيب تلك المرأة البائسة التى لم تكد تقيم معه أعواماً حتى مسها لطف الله . ولم يكد على يسمع هذا الكلام حتى ثار وفار وهمّ أن يبطش بصاحبه لولا بقية من حلم ؛ فقد استباح هذا الرجل لنفسه أن يجرؤ على الشيخ ، ومن دون الجراءة على الشيخ أهوال ، واستباح هذا الرجل لنفسه أن يعرض بخالد ،

ولولا أن الله عز وجل قال : (ولَمنْ صَبَرَ وَغفرَ إن ذلكَ لَمنْ عَزْمِ الأمور) لما رجع هذا الرجل إلى أهله موفوراً . ولكن لا أقلّ من أن تنقطع الصلة بين عليّ وبين هذا الرجل الذى اتخذه الشيطان مطية إلى الفساد . وقد كان ذلك ، فأعرض عليّ عن صاحبه بعد أن زجره زجراً عنيفاً ، وأقسم لا يكون بينه وبينه سبب منذ اليوم .

ومن المحقق أن عليًّا قد عنى بتجارته عناية شديدة ، عناية لم تغن عنه شيئاً ، ولكن على المرء أن يسعى إلى الخير جهده ، وعنى ببنيه وبناته وبنسائه وأحب داره حبًّا شديداً . وأى غرابة فى ذلك ، فالمؤمن حقًّا مكلف أن يصل الرحم ، ويحسن القيام على أهله وداره وبنيه . والقيام على الأبناء وعلى ذوى القربى وأولى الأرحام واجب يعاقب المقصر فيه ويثاب الناهض به . وهو بعد هذا صدقة يضاعف الله جزاءه لمن يؤدونه على وجهه . ومن الجائز أن تكون عناية على بتجارته وقيامه على أهله وسعيه فى إصلاح أمره ، كل ذلك قد يضطره إلى قليل من التقصير فى ذات الشيخ ، وإلى التخلف القليل عن بعض مجالسه ، ولكن الشيخ يعرف أمره كله حق المعرفة ، وهو يعذر تقصيره ويعفو عن تخلفه . ومن الجائز أن يصرفه هذا كله عن بعض الرفق بابنه خالد ، ولكن خالداً رجل قد توسط العقد الثالث من عمره ؛ فهو لا يحتاج إلى عناية والعطف كما يحتاج إليهما هؤلاء النسوة الضعاف ، وهؤلاء الصبية الصغار . وربما كان الحق على خالد أن يعنى بأبيه وإخوته أكثر مما يفعل إلى الآن ، ولكنه شاب ، وللشباب ضلاله المؤقت ، وخالد مغرور بمنصبه الجديد ، ولا شك فى أنه سيثوب إلى نفسه ، وسيذكر أن حمل أبيه ثقيل ، وأنه يستطيع أن يخفف

بعض هذا الحمل . أليس يقبض أربعة جنيهات فى آخر كل شهر ! كل هذه خواطر لعل نفس علىّ قد تحدثت بها إلى علىّ حديثاً همساً لا يكاد يسمع ! ولكنها تحدثت به على كل حال ، فهى خليقة أن تلام . والنفس أمارة بالسوء إلا من رحم ربى . وعلىّ حريص كل الحرص على أن تناله رحمة الله ؛ فهو ياوم نفسه لوماً عنيفاً ، ويجتهد فى العبادة اجتهاداً شديداً ، وينفق فى غرفة أم خالد ليلة قائمة هائمة بذكر الله جاهرة بتلاوة القرآن ، قد طُرد عنها الشيطان طرداً ، ورُد عنها النوم ردًّا ، حتى إذا صلى علىّ الصبح وشرب القهوة نازعته نفسه إلى الراحة وشىء من النوم ، فيتجهم لها ويغلظ عليها ويشتد فى تأديبها ، ويقسم لا يذوق النوم حتى يذهب إلى متجره ويعود إلى غدائه . فإذا صلى الظهر نام وطلب إلى هناء أن توقظه ليدرك صلاة العصر ، قبل أن تفوته . فإذا صلى العصر سعى إلى شيخه فشهد معه صلاة العشاءين وحضر معه حلقة الذكر .

وفى ذات يوم ذهب خالد إلى متجر أبيه بعد صلاة العصر ، فرآه جالساً يدير ذكر الله على سبحته تلك ؛ فسلم الفتى ، ولكن عليًّا لم يرد عليه سلامه ولم يرفع إليه رأسه ، وإنما ظل مطرقاً يدير ذكره فى أناة ، يمد صوته بحروف المد أكثر مما تعود أن يفعل ، ويساقط حبات المسبحة فى بطء متكلف ، حتى إذا أدار ذكر الله على سبحته من طرف إلى طرف استغفر الله فأطال استغفاره ، وصلى على النبى فأكثر الصلاة عليه ، ووهب ثواب هذا كله للشيخ رحمه الله ، ثم أدخل سبحته فى جيبه مستأنياً ، ثم مسح وجهه بيديه متشهداً ، ثم التفت إلى خالد وهو يقول : ألست بخير يا بنى ؟ إنى لم أرك منذ أمس . قال الفتى : لقد أمضيت صدر

الليل عند الشيخ ، لوغدوت إلى عملى وجه النهار ، وجئت . . . فقاطعه علىّ رفيقاً به وهو يقول : جئت لترانى ، ولتقص على ما كان بينك وبين الشيخ والحاج مسعود فى خلوتكم أمس ؛ فقد أنبئت بهذه الخلوة . قال خالد : نعم . قال على : عفا الله عن الشيخ ! فلو كان أبوه حياً لكنت رابع ثلاثتكم أمس . وعفا الله عنك يا بنىّ ! فلولا أنك حديث السن لما قرأت فاتحة الخطبة وأبوك غائب . ولكنك رأيت الشيخ يدعوك فلم تستطع له خلافاً ، ولم تفكر إلا فى أن تجيب إلى ما دُعيت إليه . ولو كنتُ مكانك لانصرفت من عند الشيخ إلى أبى لأبشره بهذه الخطبة ، ولكنك انصرفت بالبشرى إلى سليم ؛ فقد علمت أنك طرقت بابه عليه حين تقدم الليل . قال الفتى مضطرباً متلعثماً : فإنى لم أجرؤ على إزعاجك وقد كاد الليل ينتصف ، ولم أجرؤ على أن أباكرك بهذا النبأ قبل أن أغدو على عملى . فأما سليم . . . قال على مقاطعاً : فليس بينك وبينه من الكلفة مثل ما بينك وبين أبيك ! ثم تشهد علىّ واستغفر الله ونهض إلى ابنه فضمه إليه وقبل بين عينيه ، وقال : قد سامحتك فليسامحك الله . ومتى استطاع الآباء أن يطيلوا الموجدة على أبنائهم ، أما الأبناء فما أقدرهم على أن يمضوا فى القسوة على آبائهم ! اذهب يا بنىّ فقد عفوت عنك . ثم بسط يده فتناولها خالد وقبلها صامتاً ، وظل فى مكانه قائماً واجماً لا يقول شيئاً ولا يأتى حركة . فنظر إليه أبوه ثم اندفع فى الضحك وهو يقول : ما قيامك أمامى كالصنم لا تقول شيئاً ولا تأتى حراكاً ؟ أمغتبط أنت بهذه الخطبة ؟ أضربت مع الحاج مسعود موعداً للزواج ؟ قال خالد : أما أنى مغتبط بهذه الخطبة فما أدرى ماذا أقول لك ، وإنما موقفى منها

كموقفى من تلك الخطبة الأولى : أمر الشيخ الكبير فأطعت ، ودعا الشيخ الصغير فأجبت . والله يختار لنا ويلهمنا التوفيق فيما نأتى وما ندع . وأما موعد الزواج فما ينبغى أن نحدده ولم يحل الحول على موت عبد الرحمن ، وما كان ينبغى أن نتحدث فيه وأنت غائب . وبعدُ فإنا لم نحدثْ أمس أمراً جديداً ، ولم نزد على أن ننفذ وصية من الشيخ الكبير كنتَ بها عالماً . قال علىّ وقد أحس فى نفسه شيئاً من الندم لغلظته على ابنه ، وكثيراً من الرضا عن طاعة ابنه له ووفائه لحميه القديم — قال علىّ ، بارك الله عليك يا بنىّ وألهمك التوفيق ، وكتب لك الخير فى كل خطوة تخطوها أو عمل تقدم عليه ، أقم معى حتى إذا دنا الغروب سعينا إلى الشيخ فشهدنا معه الصلاة .

١٦

قالت زبيدة لزوجها سليم : لقد سمعتك تتحدث إلى خالد أمس بأن أكثر أهل النار من النساء . قال سليم وهو يتكلف الغضب : فقد كنت تتسمعين علينا إذاً ؟ قالت زبيدة : لا والله ما تسمعت عليكما ، ولا احتجت إلى أن أتسمع إليكما ؛ فقد كان حديثكما عالياً مرتفعاً ، يسمعه من فى الدار ، ويسمعه من يمر بها فى الطريق . كان خالد فخوراً مغتبطاً لأنه سمع هذا الحديث من شيخه فأقبل فرحاً به يعيده عليك ، وقبلته أنت راضياً مسروراً كأن لك عند النساء ثأراً ، ثم مضيت تفسره وتعلله وتزيد فيه .

قال سليم وهو مغرق فى الضحك : وماذا فهمت من هذا كله ؟

قالت زبيدة : فهمت أن النساء كافرات للنعمة ، جاحدات للجميل ، مضيعات للمعروف ، تحسنون إليهن فيفرحن ثم يسرع إليهن النسيان ! فهن لا يذكرن لكم خيراً ولا يعرفن لكم جميلا ، وهن مع ذلك ذاكرات للشر حافظات للسيئة ، لا يكاد زوج المرأة منهن يؤذيها بالهين أو العظيم من الأمر حتى تنسى حبه لها وبره بها وما قدم إليها من معروف ، وتأخذه بسيئات لا تحصى . فإثمهن الأعظم وجريمتهن الكبرى هى هذا العقوق . وأى إثم أعظم من العقوق وكفران النعمة ؟ وهن من أجل ذلك يصرن إلى النار فيؤلفن من أهلها الكثرة الساحقة .

قال سليم وهو لا يكاد يفيق من ضحكه : وهل تنكرين ذلك أو

ترتابين فيه ؟ قالت زبيدة : لا أنكر شيئاً ولا أرتاب فى شىء ، وإنى لتائبة إلى الله من كل ذنب ، طالبةٌ عفوه عن كل خطيئة ، باذلةٌ ما أملك من الجهد لأبلغ رضاه ورضاك أنت ، فإنّ رضا الزوج من رضا الله ، وأنا مع ذلك مشفقة ألا أنجو من النار . قال سليم : اجتهدى ، فعسى أن يعصمك الله منها ، وأن يجعلك من أهل الجنة . قالت زبيدة وقد أخذت تضحك : فأما أنتم معشر الرجال فأقلكم فى النار وأكثركم فى الجنة ؛ لأن الطاعة فيكم فاشية ، والمعصية فيكم نادرة ؛ ولأنكم لا تؤذون أحداً ولا تتقدمون إلى أحد بما يكره ، وإنما أنتم خيرٌ خالص لا يمازجه الشر ، وعسل خالص لا يشوبه العلقم . فأما أن تسوموا نساءكم سوء العذاب وأن ترهقوهن من أمرهن عسراً ، فإنما ذلك تأديب لهن . تستوفون مالكم من حق الطاعة ، وتتقربون بتأديبهن إلى الله . وأما أن تمسكوا نساءكم على ما يكرهن من الألم والبؤس ، وأن تعلقوا على رءوسهن هذا السيف القاطع سيف الطلاق ، وأن تصوبوا إلى صدورهن هذا السنان الذى ينفذ إلى أعماق القلوب ، سنان التزوج بضرة تدخلونها على الزوج فى دارها وتنغصون بها حياتها ، وتذيقونها ألم الغيرة وشقاء الحسد ، وتورطونها فى الغدر والكيد والنفاق ، فليس عليكم من هذا كله بأس ، إنما تستمتعون بما أتاح الله لكم من رُخصة وبما أباح لكم من حق . فإن ضاقت المرأة بشىء من ذلك أو أنكرته أو ثارت له ، فهى كافرة للنعمة ، جاحدة للجميل ، عاصية لله ؛ وهى من أجل ذلك صائرة إلى النار مع أمثالها اللاتى يؤلفن الكثرة الساحقة من أهلها .

قال سليم وقد أخذ يثوب إلى شىء من الجد والهدوء : ما رأيت كاليوم

جدلا ولا شغباً . من أين لك هذا العلم كله ؟ ومن أين لك هذه الفصاحة كلها ؟ ! وما هذا الشيطان الذى استقر فى قلبك وأجرى لسانك بهذا المنكر من القول ؟ !

قالت زبيدة وكأنها لم تسمع لزوجها : وأما أن يخون الرجل منكم زوجه أو أزواجه ، فيعدو على غير حقه ، ويأثم فى غير حاجة إلى الإثم ، فخطيئة عسى أن الله يغفرها لكم ما دمتم تصلون وتصومون وتستغفرون ؛ والاستغفار يمحو الذنوب ، ويعصم أصحابه من النار . ألا ترون أنكم تسرفون على أنفسكم وعلى الناس حين لا تكتفون بتدبير أمور دنياكم على ما تحبون ، وإذا أنتم تدبرون أمور الآخرة على ما تشتهون أيضاً ؟ ! وهم سليم أن يتكلم وقد أخذه شيء من العنف ، ولكن زبيدة مضت فى حديثها وقالت فى ابتسامة ساخرة مغرية معاً : حدثنى عن نفيسة ، أمن أهل الجنة هى أم من أهل النار ؟ ولم يكد سليم يسمع هذا السؤال حتى سكت غضبه وانكسرت حدته وظل واجماً لا يكاد يجيب ، فلم يكن يقدر أن هذا الحوار الذى استأنفته امرأته يريد أن ينتهى إلى نفيسة . وما شأن نفيسة وهذا الحديث الذى كان يفاوض فيه أخاه وصديقه أمس ؟ قالت زبيدة : إن نفيسة لم تختر لنفسها صورتها البشعة ومنظرها القبيح ، ولم تدعُ خالداً ليكون لها زوجاً ، بل لم تعرفه إلا حين أدخل عليها أو أدخلت عليه . ثم هى لم تمنح إحدى ابنتيها جمالا رائعاً ، ولم تمنح الأخرى قبحاً مخيفاً . ثم هى لم تؤذ زوجها فى نفسه ولا فى بيته ، ولم تخالف عن أمره ، ولم تسمعه ما يكره من القول ، ولم تكلفه ما لا يطيق من الأمر . ثم هى لم تدعُ المرض إلى نفسها ، كما أنها لم تدعُ القبح إلى وجهها . فهل تستطيع

أن تنبئني فيم كان إقبال خالد عليها ، وفيم كان إعراضه عنها ، وفيم كان تعذيبه لها ، ثم فيم كان هذا الطلاق ، وفيم كانت هذه الخطبة ؟ هنالك دهش سليم لعلم زبيدة بأمر الطلاق وبأمر الخطبة ، فقال لامرأته مترفقاً : ومن أنبأك بأن خالداً طلق امرأته، أو من أنبأك بأنه همّ أن يتزوج امرأة أخرى ؟ قالت زبيدة : أنبأني بذلك من أنبأني ، ولكنه حق لا شك فيه . وإن خالداً لأعقل وأرفق بنفيسة من أن يهجرها هجراً غير جميل كما يفعل الآن ، فيقرها في طرف من أطراف الدار ويقيم على خدمتها وخدمة ابنتيها وأمها مولاته نسيم ، ثم لا يزور هؤلاء النسوة إلا زيارات متقطعة . هو أعقل وأرفق بنفيسة من أن يأتي هذا كله من الأمر دون أن ينبئها بأن الصلة بينها وبينه مقطوعة ، وبأن الحبل بينها وبينه مبتوت . قال سليم : فإنك تعلمين أن نفيسة لا تصلح له زوجاً ، ولا تقدر على عشرة الرجال . فما ذنب خالد إن اعترف بالحق الواقع ! وهل ترين له أن يعيش مع مجنونة أو أن يفرض على نفسه حياة الرهبان ؟ قالت : لا أدري ! ولكن جنون نفيسة لم يأتها من قبل نفسها ، وإنما جاءها من هذا الزواج الذي لم ترده ، ومن هذه الظروف التي لم تخلقها . ورحم الله أم خالد إذ قالت لزوجها : إنه إن أتم هذا الزواج فلن يزيد على أن يغرس في داره شجرة البؤس ! لقد غرستْ شجرة البؤس فنمت وآتت ثمرها بشعاً خبيثاً . امرأة ترزأ في زوجها وابنتها معاً ، ثم ترى ابنتها وقد اصطلح عليها المرض وهجر الزوج والحرمان . فأنت تعلم أن نفيسة ليست ميسراً عليها في الرزق . ولست ألوم أحداً ، ولكنها فقدت ثروة أبيها ، وتفرقت ثروة علي في أسرته الضخمة ، وخالد لا يرزقها إلا كما يستطيع .

ثم لم يكفها هذا كله، فقد رزقها هذا الزواج السعيد صبيتين كان من حقهما أن تنشآ فى النعمة ، فهما تنشآن فى البؤس بين أم مريضة وجدة محزونة ومولاة سوداء تقوم من أمرهما بما تستطيع القيام به ، وأب ينفق الأيام ، وقد ينفق الأسبوع ، دون أن يراهما . كل هذا لا يكفى ، فلا بد من أن يتزوج خالد ، ومن أن يتخذ لأمهما ضرة ، ومن أن يكون له من هذه الضرة بنون وبنات يشاركونهما فى حب أبيهما وبره . ومن يدرى ، لعلهم يصرفون أباهما عنهما كل الصرف . حدثنى عن نفيسة أمن أهل الجنة هى أم من أهل النار ؟ وحدثنى عن أمها أمن أهل الجنة هى أم من أهل النار ؟ ولا تنس أن نفيسة لا تحسن الصلاة فهى لا تؤدى الصلوات الخمس كما يؤديها خالد ، بل هى لم تعد تحسن شيئاً ، فقد ثاب إليها حظ من رشد ولكنه ضئيل جداً لا يكاد يكفى إلا لتفهم عمن يحدثها وتفهم من تتحدث إليه فى أيسر الأمور . إنك لم ترها منذ عادت إلينا . وفيم تراها وقد طلقها خالد فلم يبق بينك وبينها سبب ؟ أما قبل أن يطلقها وقبل أن يلم بها هذا المرض فقد كنت تحب حديثها وتأنس إلى لقائها وترغب فى زيارتها . كانت زوج أخيك ، أما الآن فليست منك فى شىء . ولو قد رأيتها لرأيت شراً عظيما . أتذكر كيف كانت تتحدث فتحسن الحديث فى لغتها تلك القاهرية ، وكيف كانت تداعب فتحسن المداعبة فى ظرفها ذاك الذى لا نحسنه نحن فى الأقاليم ! . لقد ذهب هذا كله ، وأصبحت حياة نفيسة وجداً كلها ، وأصبح صمتها متصلا مخيفاً ، وأصبح صوتها خافتاً لا يكاد يسمع ، وأصبح حديثها غامضاً متقطعاً لا يكاد يستوى ولا يبين . لقد أصبحت عاجزة حتى عن أيسر

الأشياء . إنها لا تكاد تعرف من العدد إلا العشرة : فهى لا تحسن أن تقول العشرين والثلاثين والأربعين ، وإنما تقول عشرتين وثلاث عشرات وأربع عشرات . ولست أدرى كيف تقول إذا جاوزت المائة ! لقد انتهى بها البؤس إلى هذا كله . وتصور بؤس أمها حين تراها على هذا النحو وحين تضطرب بين فقد زوجها ومرض ابنتها . فأما الصبيتان فلا تدركان من هذا شيئاً ، ولكن لهما حظاً من قسوة الطفولة ، فهما تعبثان بأمهما وتضحكان من ذهولها وما اضطرت إليه من البله ، ولا تحفلان بمجلسهما ، ولا تكادان تحفلان بنسيم ؛ لأنهما لا تفهمان عنها أكثر ما تقول . حدثنى عن هؤلاء النسوة أمن أهل الجنة هن أم من أهل النار ؟ ثم حدثنى عن خالد وأبيه وعن نفسك . إنكم تصلون وتصومون وتسعون إلى الشيخ وتشهدون حلقة الذكر وتقرءون القرآن وتظنون ، وأرجو ، أن تكونوا من أهل الجنة ، ولكنكم ترون هذا البؤس المؤلم وهذا الشقاء المهلك ، فلا تمدون إلى البائسين يداً ، ولا تنالونهم بمعروف ، ولا تكرهون أن تضيفوا إليه بؤساً جديداً وشقاء طريفاً . قالت ذلك ثم لم تستطع أن تمضى فى الحديث ؛ لأن صوتها انحطم فى حلقها ، ولأن دموعها انهلت على وجهها غزاراً .
وكان زوجها يسمع لها فى صمت متصل يقطعه بين حين وحين بهذه الكلمات : لا إله إلا الله ولا حول ولا قوة إلا بالله . فلما رأى زوجه تمضى فى البكاء ولم يستطع أن يثبت لها لهذا الحزن ، ترك امرأته وخرج من الدار ، لا يريد وجهاً بعينه ، وإنما يفر من منظر لا يستطيع له ثباتاً . ثم عاد إلى أهله بعد ساعة . فرأى امرأته قد أصلحت من شأنها وانصرفت إلى أمر بيتها تدبره وتقوم عليه . وهم سليم أن يتحدث إلى امرأته حديثاً

غير الذى كانا فيه ، ولكنها لم تستجب له ، وإنما استأنفت حديثها من حيث قطعته أو من حيث قطعه عليها البكاء . قالت : أما أنا فلا أحسن صلاة ولا صوماً ولا عبادة ، ولكن الله يرى ما آتى من الأمر سرًّا أو علانية . وهو يرانى عند نفيسة فى كل يوم مصبحةً حيناً وممسية حيناً آخر ، أواسيها بالقول دائماً ، وأواسيها بالدموع أحياناً . وماذا أملك غير القول والبكاء ؛ ثم ابتسمت لزوجها ابتسامة حزينة وقالت له : إن لى إليك حاجتين تستطيع أن تجيبنى إليهما ، وما أشك أنك ستظفر على ذلك بثواب الله . قال سليم : وما ذاك ؟ . قالت زبيدة : فأما أولاهما فأن تؤخر زواج خالد إلى أبعد أمد ممكن ، فلعل الله أن يرد إلى نفيسة صحتها فتحتمل هذه المصيبة خيراً مما تحتملها الآن . قال سليم : فإن خالداً لن يتزوج قبل أن يحول الحول على موت حميه ، وما زال بيننا وبين ذلك شهور . قالت زبيدة : أخشى أن تكون محنة نفيسة فى صحتها أطول من ذلك . قال سليم : وما حاجتك الثانية ؟ قالت زبيدة أن تبر بنفسية وتشعرها دائماً بأننا لم نكن عابثين حين خطبنا ابنتها جلنار لابننا سالم . قال سليم : وهى تشك فى ذلك ؟ قالت : لا أدرى ! ولكن هذا الحديث يرضيها فيما أعتقد ، ولعله أن يفتح لقلبها البائس فرجة من أمل . قال سليم : فسنزورها معاً إذا كان الغد . قالت زبيدة : وحاجة ثالثة ليس بينها وبين نفيسة صلة . قال سليم : وما ذاك أيضاً ؟ وهمت زبيدة أن تجيب ، ولكن العبرة حبست صوتها فانصرفت من الحجرة مسرعة ، وتبعها زوجها مسرعاً حتى أدركها فضمها إليه وجعل يقبل رأسها وسألها : ما حاجتك ؟ وماذا تريدين ؟ أفصحى ولك عهد الله أن أجيبك إلى

ما تبتغينه إن كان ذلك فى طاقتى . قالت : لا تدخل علىّ ضرة ، فإن همت بذلك فطلقنى واردنى إلى أهلى الفقراء ، ولا تمسكنى على كره منى ، وإن مرضت عندك فلا تهجرنى مهما يطل مرضى ، وما أظنه يطول . هنالك أغرق سليم فى الضحك ، وضم امرأته إليه مخلصاً لها عطوفاً عليها ، وهو يقول : إنكن لناقصات عقل ودين .

١٧

لم تجر الأمور بين خالد وأبيه على ما كان يحبان؛ فحياة الناس ليست طوع أيديهم يصرفونها على ما يهوون ، وإنما تعرض لها العلل والآفات ، وتتحكم فيها الحوادث والخطوب التي لا يملك الناس من أمرها شيئاً ، أو لا يملكون من أمرها إلا قليلا ، وهي من أجل ذلك تدفعهم إلى مسالك لو خيروا لما اندفعوا إليها ، وتضطرهم إلى أمور لو استطاعوا لاجتنبوها . فلم يكن في يد عليّ أن تصالح تجارته وتنمو وتغل عليه ما ينهض بحاجة أسرته الكبيرة . ولم يكن في يد خالد أن يجد من راتبه — الذي كان يرى في ذلك الوقت ضخماً على ضآلته — ما يمكنه من أن يحمل عن أبيه بعض أثقاله . ثم لم يكن في يد أحد من الرجلين أن يمنع هذه الأسرة الضخمة من الحاجة إلى ما يقيم أودها من طعام ، ومن الحاجة إلى ما يستر أجسامها من لباس ، ومن الحاجة إلى أن تحتفظ ولو بشيء ضئيل من مكانتها الاجتماعي في المدينة . فلم يكن بد إذاً من أن ينهض عليّ بهذه الحقوق كلها . وقد حاول الرجل فلم يستطع ، وجد في إصلاح أمره فلم يجد إلى إصلاحه سبيلا . فلجأ إلى الاستدانة ، مقتصداً فيها ما وسعه الاقتصاد ، مؤملا أن يجعل الله له فرجاً من حرج ومخرجاً من ضيق ، مجتهداً في تجارته ، ولكن تجارته كانت مجتهدة هي أيضاً في أن تسلك طريقاً معاكساً لطريق صاحبها ، مجتهداً فوق كل شيء في صلاته وعبادته وتوسله إلى الله أن يضع عنه هذا الإصر الذي يثقله ، وأن يُرَدّ إلى خير

ما كان فيه من أيام السعة والرخاء . ولكن أبواب السماء كانت كأنما أغلقت من دونه ، أو كأن الله يسمع دعاءه ويجيبه إلى خير مما كان يطلب. فقد كان يطلب دراهم ودنانير ، يؤدى بها بعض دينه ، ويشترى بها لبنيه وبناته وأزواجه الغذاء والكساء والحذاء . ولكن الله كان يقبل صلواته ويسمع دعواته ، ويدخر له بهن قصوراً فى الجنة على هذه الأنهار التى يجرى فيها ماء لذة للشاربين ، ويجرى فيها اللبن والعسل والخمر ، ويقام عليها من القصور ما لا عين رأيت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر . وقد انتهى الأمر بعلى إلى أن أصبح شديد الأمل فى رضوان الله حين يبلغ الدار الآخرة ، شديد اليأس من روح الله فى هذه الدار الأولى ؛ فلم يزده ذلك إلا اجتهاداً فى العبادة والطاعة ، ليستكثر من رضا الله عنه ، ومما كان يرجو أن يدخر له فى الجنة من نعيم . ولكنه قصر فى التجارة وأهمل أمرها ، وأخذ ينظر إلى أمور الدنيا فى شىء من الازدراء والاستخفاف دون أن ينسى نصيبه من متاعها ولذاتها . وقد اجتهد فى أن يحمل نفسه على الرضا بما قسم له ، لولا أن بطون بنيه وبناته لم تكن تطمئن إلى الجوع ولا تقنع بالقليل من الطعام ، ولولا أن أزواجه وبنيه لم يكونوا يقدرون أزمته فى تجارته ولا يعرفون من ضيق ذات يده شيئاً . فكانوا يطلبون ويلحون فى الطلب ، فإذا قصر الرجل فى تحقيق آمالهم استحال بيته إلى جحيم لا يطاق ولا يمكن الصبر عليه . وكثيراً ما كان الرجل يفزع إلى المساجد ومجالس الشيوخ ، يرى الناس أنه يبتغى بذلك العبادة والطاعة ، ويرى هو أنه يفر من أزواجه وبنيه وإلحاحهم عليه فيما يريدون وما لا يطيق من الأمر . وقد انتهى ذلك بعلى إلى شىء من سوء الخلق

لوحظ عليه فى أحاديثه وسيرته مع الناس . ولكن الناس كانوا يلتمسون له المعاذير لما يرون من إدبار الأمر عنه وإلحاح الكساد عليه .

ولم تبخل الظروف عليه بصديق السوء الذى يحرضه على ابنه خالد ويغريه به ويسأله : كيف تشكو الضيق وتتعرض للحرج وخالد موظف يتقاضى أربعة جنيهات فى كل شهر غير ما يمكن أن يصل إلى يده من ذوى الحاجات ؟ ! فلا تصدق أن موظفاً يكتفى براتبه الذى يقبضه فى كل شهر ، ويقضى للناس حاجاتهم دون أن يأخذ على ذلك أجراً . إن خالداً لقادر إن شاء على أن يتحمل عنك بعض أعبائك ، وبسد بعض خلتك ، وينهض على أقل تقدير بحاجات امرأته وابنتيه .

والواقع أن خالداً كان يبذل أكثر ما يستطيع أن يبذله ، فقد كان يؤدى إلى أبيه آخر الشهر أكثر راتبه لا يستبقى لنفسه إلا ربعه ، وكان يرى أن فى ذلك أداء لحق أبيه عليه ونهوضاً بحاجة أهله الأدنين . ولكن أباه قال له ذات يوم : أنفق على أهلك يا بنى فإنى لا أجد ما أنفق على أهلى . وحسبك أنكم تقيمون فى داري لا تؤدون على ذلك أجراً . وقد صعق خالد لهذا القول الذي لم يكن ينتظر أن يسمعه من أبيه لما كان يعرف من حبه له وبره به ، ولم يكن ينتظر أن يسمعه لما كان يعلم من أدائه للحق ونهوضه بالواجب . فلما سمع مقالة أبيه لم يحر جواباً . فأعاد أبوه عليه مقالته مرة ومرة . قال الفتى : ومن أين أنفق على أهلى وأنا أؤدى إليك أكثر راتبي ؟ قال الشيخ : لا أدري ؛ ولكن أنفق على أهلك فإنى لا أجد ما أنفق على أهلى . قال الفتى : سأؤدى إليك راتبي كاملا إذا كان آخر الشهر ، قال الشيخ : وأين يقع هذا الجنيه الذى تحتجزه

لنفسك مما أريد ؟ قال الفتى : فإن الله لا يكلف نفساً إلا وسعها . قال الشيخ : صدق الله العظيم ؛ فإن الله لا يكلفنى إلا ما أطيق ، ولست أطيق أن أنفق على أهلك . قال الفتى : فإنك لا تنفق على أهلى ، وإنما أنفق عليهم بما أؤدى إليك من راتبى . فقهقه الشيخ قهقهة كلها غضب وقال : فإنك تمن على بما تؤدى إلى من هذا المال القليل كأنى لم ألدك ، ولم أربك ، ولم أزوجك ، ولم أنفق عليك وعلى أهلك إلى أمس القريب ، إنى لا أريد منك مالا ولا معونة ، ولكن تحول عنى وحول أهلك إلى دار أخرى ، وأنفق على نفسك وعليهم براتبك إن استطعت إلى هذا سبيلا . قال الفتى محزوناً : فإنى لا أمن عليك شيئاً . ولا أجحد من نعمتك قليلا ولا كثيراً ، ولكنى لا أستطيع إلا ما عرضته عليك ، فسأؤدى إليك راتبى كاملا . قال الشيخ وقد ملكه غضب مجنون : لا أريد منك مالا ، وإنما أريد أن تتحول بأهلك عنى ، فحسبى من عندى من العيال وانصرف عنى الآن ، فإنى أخشى أن ينطق لسانى بما أكره .

وخرج الفتى محزوناً كئيباً لا يدرى ماذا يصنع ، ولكنه نظر فإذا هو يطرق باب صديقه وأخيه سليم . ولم يكد يلقى صديقه حتى قال له هذا فى لهجة قد امتزج فيها الغضب والحنان : ما رأيت كاليوم رجلا يدخل على الناس بما يكرهون ! ألقيت بهذا الوجه أحداً فى طريقك إلى هذه الدار ؟ قال خالد : وما ذاك ؟ قال سليم : وجه مظلم ، وجبهة مقطبة ، وشفتان تمتدان شبرين إلى أمام . أى كارثة ألمت بك ؟ أتراك قد أوسقت سفينتك بنًّا فغرقت فى طريقها إلى المدينة ؟ ! وكاد خالد يضحك لهذا العنف الرحيم ، ولكن سليماً مضى فى تأنيبه وقد أخذ صوته يزداد قسوة ، وأخذت

لهجته تزداد حدة ، فقال : أمسك عليك سرك أيها الرجل ، واحفظ على نفسك غيبها ، ولا تجعل من وجهك للناس كتاباً مفتوحاً يقرءون فيه من أمرك ما يشاءون . ليكتئب قلبك ما أرادت الأحوال أن يكتئب ، وليبتئس ضميرك ما شاءت الحوادث أن يبتئس ، ولكن ليكن وجهك مستوى المنظر فى أوقات الشدة والرخاء ؛ فليس يعنى الناس ما يصيبك من خير وشر ، وإنما أنت تثقل عليهم حين تلقاهم بوجه عابس إن تنكرت لك الدنيا ، وحين تلقاهم بوجه باسم إن ابتسمت لك الأيام . تثقل عليهم وتغرى شرارهم بالشماتة بك إن أصابك الضر ، وبالوجد عليك والحسد لك إن أصابك ما تحب .

قال خالد وقد أخذ وجهه المنقبض ينبسط ، وأخذت شفتاه الممدودتان تعودان إلى مكانهما سواء ، بل أخذت تفرق بينهما ابتسامة يسيرة فيها شىء من رضا وكثير من حزن — قال خالد : ما أدرى لم لا تصطنع مهنة الخطباء والوعاظ ! فإنك لتحسن القول ، وتحسن النفوذ إلى دخائل النفوس . قال سليم وهو يضحك : بل أحسن الإنباء بالغيب أيضاً ! فقد كان بينك وبين أبيك شر منذ اليوم ، أليس كذلك ؟ قال خالد : بلى . قال قاسم : فإنه ينقم منك قلة ما تمنحه من المعونة ، وقد أخرجه الغضب عن طوره ، فقال لك ما لم تتعود أن تسمع منه . قال خالد : هو ذاك . قال سليم : وقد قمت منه مقام الصبى الذى لا يعرف كيف يجيب ، ثم انصرفت عنه مبتئساً مكتئباً ، فأسرعت إلى لتشركنى فى ابتئاسك واكتئابك ، وتجد عندى تسلية وعزاء . قال خالد : لله أنت! لقد كفيتنى مؤونة الحديث . قال سليم : اجلس يا بنى ورفه عن نفسك ، فالأمر أيسر مما تظن ،

ثم ضرب إحدى يديه بالأخرى وهو يصيح : أرسلى إلينا قهوة يا أم سالم وأقبلى إن شئت ، فابسمى لصهرك ؛ فقد عبست له الحياة . وأقبلت زبيدة ساخطة متضاحكة معاً ، تقول لزوجها : أما تنفكّ ترفع صوتك بكل شيء ، وتشرك الناس معك فى كل شيء ؛ لقد كنت تلوم خالداً لأنه يجعل وجهه كتاباً مفتوحاً يقرأ فيه الناس من أمره ما يشاءون ، فهلا خافت بصوتك وقصرت نجواك على نجيك ! فليس كل الناس يحسن قراءة الوجوه ، ولكن أكثر الناس يحسنون الاستماع لك والفهم عنك إذا رفعت صوتك بكل شيء . قال سليم وهو يضحك لامرأته : ما رأيت أطول ولا أحد من هذا اللسان ! قالت زبيدة : إنه لسان امرأة من أهل النار . وأعاد الزوجان على خالد حوارهما الذى قصصناه آنفاً ، فضحك له ثلاثتهم وهم يشربون القهوة .

فلما انصرفت زبيدة لبعض شأنها قال سليم لأخيه : اعذر أباك ؛ فإن عبئه ثقيل ، وموارده أضيق من أن تعينه على النهوض به ، وأعنه إن استطعت إلى معونته سبيلا . قال خالد : أما أن عبئه ثقيل فهذا حق ، ولكنه هو الذى خلق لنفسه هذا العبء الثقيل . ما حاجته إلى هؤلاء الضرائر اللاتى يكلفنه من النفقة ما لا يطيق ويجعلن داره جحيما ؛ وما حاجته إلى هؤلاء الصبية الذين ينبتون فى الدار كما ينبت العشب على شاطئ القناة ؛ قال سليم : لُمه فيما بينك وبين نفسك ولكن أعنه . فالأمر الواقع هو أن لديه ثلاث زوجات كلهن ولود . قال خالد : وكيف أعينه بأكثر مما أفعل وأنا أؤدى إليه معظم ما أقبض آخر الشهر ؟ ! . وقد عرضت عليه أن أؤدى إليه راتبى كاملا فلم يقبل منى ، وطلب أن أتحول عنه

بأهلى ، فحسبه من عنده من العيال . قال سليم : وقد انتهى بكما الأمر إلى هذا الحد؟ . قال خالد : ولولا أنه صرفنى فانصرفت لتجاوز الأمر هذا الحد . فأطرق سليم ساعة ثم رفع رأسه وقال فى صوت هادئ : فإنى سأقرضك دنانير تدفعها إليه من يومك ، وتؤديها إلى متى استطعت . قال خالد : ما جئت لهذا . قال سليم : فقد أخطأت ، وكان يجب أن تجىء لهذا ؛ فإن أباك يعانى ضيقاً يجب أن نجد له منه مخرجاً ، فادفع إليه هذه الدنانير من يومك ، فإذا كان الغد فسأدفع إليه مثلها ؛ فإن له علىّ مثل ما له عليك من الحق . ثم نهض إلى صندوق ففتحه ، وإلى درج صغير فى الصندوق فاستخرج منه ذهباً وضعه فى يد خالد ، وخالد صامت لا يقول شيئاً ، لأنه لا يجد ما يقول . ثم استأنف سليم حديثه فقال : ولست أدرى كيف تدبر أمرك ، ولا كيف تعيش بهذا الراتب الذى تقبضه آخر الشهر والذى يستكثره الناس وأراه ضئيلا لا يقوم بمثل نفقتك . قال خالد : ماذا تريد أن أصنع ؟ قال سليم : تصنع كما أصنع أنا وكما يصنع غيرى من الموظفين . قال خالد : وماذا تصنعون ؟ قال سليم : نأخذ من الناس أجر ما نؤدى إليهم من خدمة . قال خالد : فإنها الرشوة إذاً . قال سليم : سمها أنت الرشوة ، فأما أنا فأسمى بعضها أجراً مستحقاً وأسمى بعضها الآخر هدية مبذولة . قال خالد : فإن الأسماء لا تغنى عن الحق شيئاً ، فإنكم تتقاضون أجركم على ما تعملون آخر الشهر ، فما تأخذونه من الناس لا يحل لكم ، لأنه الرشوة لا أكثر ولا أقل . قال سليم : يحل لنا أو لا يحل ، هذا آخر شىء نفكر فيه . يجب أن نعيش قبل كل شىء ، والراتب الذى نقبضه لا يمكننا من أن نعيش . ونحن لا نستكره

الناس على ما يضعون فى أيدينا من نقد وما يحملون إلى دورنا من عروض وإنما هم يفعلون ذلك طائعين . ويسوءهم أن نرده عليهم . وهبك قترت على نسيم مولاتك فى الرزق ومنحتها من الطعام أقل مما يقيم أودها أفتلومها إن سرقت لتشبع من جوع ؟ . قال خالد . فعلى ألا أضطرها إلى السرقة . قال سليم : فعلى الحكومة إذاً ألا تضطرنا إلى قبول الرشوة . وإلى أن تأجرنا الحكومة أجراً حسناً ، لا أرى علينا بأساً من أن نستعين على الحياة بما يدس إلينا أصحاب المصالح من المال . قال خالد : فإن هؤلاء الناس يدفعون أجور مصالحهم مرتين : يدفعونها حين يؤدون الضرائب ، ويدفعونها حين يؤدون إليكم ما يؤدون من المال ، وهذا هو الظلم الذى ليس بعده ظلم . قال سليم : يدفعونها مرتين أو مرات ، هذا شيء لا يعنينى ، وإنما الذى يعنينى ، هو أن أعيش أولا ؛ فأما هذا الظلم الذى تذكره فلست أنا الذى يقترفه ، وإنما يقترفه الذين يأخذون الضرائب ثم لا يأجرون الموظفين أجراً ييسر لهم الحياة . وهنا أطرق الرجلان إطراقتين مختلفتين . فأما خالد فقد أطرق إطراقة الذاهل الذى يسمع ويعى ، ولكنه لا يقر ما يسمع وما يعى ، ولا يحسن مع ذلك أن يرد عليه . وأما سليم فقد أطرق إطراقة الرجل الذى يعرف أنه يأتى إثماً من الأمر ، ويقول منكراً من القول ، ولكنه مع ذلك يلتمس لنفسه العذر مما يأتى ومما يقول ، وهو يعيد على نفسه ذلك المثل الذى ضربه للموظفين الذى يضيق عليهم فى الأجر فيرتشون ، مثل الخادم التى يقتر عليها فى الرزق فتسرق لتتقى الجوع . ثم رفع سليم رأسه وقطع هذا الصمت الذى كاد يطول ، فقال فى صوت خافت : أيهما شر : رجل يرتشى ليعيش ، أم رجل يرتشى

ليستكثر من المال ؟ قال خالد : كلاهما آثم ، ولكن الذى يرتشى ليستكثر من المال أشد إغراقاً فى الإثم وتورطاً فى المعصية . قال سليم : فالحمد لله الذى لا يحمد على مكروه سواه . أما أنا وأمثالى فنرتشى لنعيش ، وهذه رشوتى قد أتاحت لى أن أقرضك ما تعين به أباك ، وأن أعينه من غد . فأما غيرنا . . . ثم سكت قليلا ، ثم قال : فأما رؤساؤنا وسادتنا فإن الحكومة تبسط لهم فى الأجر ، وتوسع عليهم فى الرزق ، وتقوم لهم بأكثر مما يحتاجون إليه ، وهم مع ذلك يرتشون لا كما نرتشى ، ويأخذون لا كما نأخذ . إنا نأخذ الدرهم والدراهم ، ونأخذ الدينار والدنانير ، ونأخذ السفط من البن أو الجماعة من رءوس السكر ، أو الحقيبة من الأرز ؛ فأما هم فيأخذون أضعاف ذلك وأضعافه . ونحن نأخذ ما نأخذ لننفق على أنفسنا وعيالنا . وهم يأخذون ما يأخذون ليشتروا الضياع يضيفونها إلى الضياع . صدقنى ! إنك لا تملك كما أنى لا أملك إصلاح ما فسد من الأمر ، والله وحده القادر على أن يرد الناس أخياراً أبراراً . هنالك نهض خالد وهو يتلو قول الله عز وجل : (ظَهَرَ الْفَسَادُ فِى الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِى النَّاسِ) . ولكنه لم يكد يبلغ باب الدار حتى كان سليم يجذبه جذباً عنيفاً وهو يقول : لقد تركت دنانيرك أيها الأحمق ؛ خذها وادفعها إلى أبيك ؛ فليس عليك من إثمها شىء . ولو عرفت أنك سترد إلى قلبه الهدوء وإلى نفسه الأمن . وستمكنه من أن يطعم صبية جياعاً ويكسو جوارى كدن يبتذلن ، لما ترددت ولا تحرجت .

وبعد فإلى أين تذهب بهذا الوجه الذى كسته الظلمة وعاد إليه

الانقباض ؟ ! أقسم لا تخرج حتى تستبدل به وجهاً آخر ، ثم جذبه إليه جذبة كادت تخلع عنه جبته .

وما أقبل المساء حتى كان خالد قد لقى أباه مستحيياً ووضع فى كفه الدنانير متأثماً ؛ فابتسم الشيخ ابتسامة فيها خجل كثير ، وقال لابنه : أقم فسنشهد العشاءين مع الشيخ .

وأقبل الصبح من غد ، فرأى علياً فى غرفة أم خالد وقد رفع إلى الله كثيراً من الصلاة والاستغفار والندم ، وسكب كثيراً من الدموع ؛ لأنه لقى ابنه البر بما يكره ، وكان له ظالماً وعليه متجنياً ، ثم تمنى على أم خالد ألا تضطغن عليه ما قدم إلى ابنهما من مكروه . ثم لا يكاد يفرغ من قهوته حتى يطرق الباب ويستأذن الخادم لسليم . فإذا دخل وحيا وضع فى يد عمه دنانير وهو يقول : معذرة إليك يا عم ؛ فلو استطعت لأديت إليك أكثر منها : فإن نفقتك كثيرة ونحن مقبلون على شهر الصوم . قال الشيخ وقد جادت عيناه آخر الأمر ببعض الدمع : وصلتك رحم يا بن أخى ! فقد أعنتنى فى وقت الحاجة إلى المعونة .

ولما انصرف سليم لم يكن علىّ يشك فى أن الله قد استمع لدعائه الكثير وعفا له عما أسلف إلى ابنه من مساءة . ولولا ذلك لما ساق إليه هذا الرزق الذى لم يكن يرجوه .

١٨

وقال الشيخ ذات ليلة لخاصته مقالته لهم فى العام الماضى ، وآذنهم بأنه سيستعد للحج ، وبأن من شاء منهم أن يصحبه فليعد للسفر الطويل عدته ، وتقدم إليهم أن يؤذنوا فى الفقراء وأوساط الناس بأن عليه نفقة من أراد منهم أن يحج بيت الله ولم يجد ما ينفق . ثم التفت إلى الحاج مسعود وقال ضاحكاً : أما أنت يا مسعود فقاعد هذا العام فقد أتممت حججك السبع . قال مسعود وقد ظهر على وجهه غضب شديد لم يلبث أن استحال إلى حنان رحيم انهلت له دموعه حتى بللت لحيته الكثة — قال مسعود : أغاضب أنت علىّ يا سيدنا ؟ قال الشيخ وهو يغرق فى الضحك : غفر الله لمسعود ! غفر الله لمسعود ! غفر الله لمسعود ! قوم يضحكون ، وقوم يبكون . إنما قصدت إلى دعابتك يا مسعود ، ولو أردت الجد لما تحدثت إليك . هنالك تهلل وجه مسعود ونهض مسرعاً فأكب على رأس الشيخ يقبله وهو يقول : لقد كنت نذرت لله ألا يحج شيخنا الكبير إلا صحبته . فلما انتقل إلى جوار الله جددت النذر ألا تحج إلا صحبتك ، لا يمنعنى من ذلك إلا أن أبلغ أرذل العمر وتعجز قدماى عن حملى . فأعاد الشيخ مقالته : غفر الله لمسعود ! ثم قال فى صوت ملؤه الجد : فأما وقد نذرت هذا النذر فأنت صاحب حجنا منذ الآن ، فدبر أمر سفرنا وإقامتنا ، وأنفق على ذلك من مالنا فإن فيه سعة . قال مسعود : ومن مالى فإن فيه سعة أيضاً . وقال بعض الحاضرين : أفلا نؤذن علياً بما آذننا به مولانا الشيخ ؟ فسكت الشيخ حيناً ثم قال : لا تفعلوا فإن علياً لا يحج العام . وعرف على

ما كان من حديث الشيخ إلى أصحابه ، ولكنه لم يتأهب للحج ، ولم يزر الشيخ إلا لماماً ، ولم يخرج مع الناس لوداع القافلة . فلما كان الشيخ فى بعض الطريق ذكروا له علياً وتخلفه عن الحج وتقصيره فى الوداع ، وتلا بعض أصحاب الشيخ قول الله عز وجل (وَلَوْ أَرَادُوا الْخُرُوجَ لَأَعَدُّوا لَهُ عُدَّةً ، وَلَـٰكِن كَرِهَ اللَّهُ انبِعَاثَهُمْ فَثَبَّطَهُمْ وَقِيلَ اقْعُدُوا مَعَ الْقَاعِدِينَ) فلما سمع الشيخ هذه الآية ظهر الغضب فى وجهه وقال : صدق الله العظيم ثم أطرق ساعة ، ثم رفع رأسه وقال فى صوت تحطمه العبرة : لا تتلُ هذه الآية يا فلان ، ولكن اتلُ قول الله تعالى : (وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا) أما إن أخاكم لا يستطيع إلى الحج سبيلا . وقد كنتم أحرياء أن تبروه وترفقوا به وتصلوه خيراً مما فعلتم . ثم أطرق إطراقة قصيرة وهو يتلو : (وَلَا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضًا أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا) . ثم طال صمت الشيخ وصمت أصحابه ، لا يقول فى الشيخ شيئاً ، ولا يجرؤ أحد من أصحابه أن يقول بحضرته شيئاً . وصاحب المقالة مستخذ قد خفض رأسه حياء ، والقوم قلقون لا يدرون كيف يستأنفون ما كان عليه أمرهم من غبطة ورضا . فلما طال عليهم هذا الصمت المخيف اجترأ مسعود فقال : سبحان الله ! ثم اتجه إلى الشيخ وهو يقول فى صوته المتهدج : ما إغراق مولانا فى هذا الصمت المخيف ؟ إنا كغيرنا من الناس نخطئ ونصيب ، ولكننا نحسن أن نتوب إلى الله من خطايانا ، فلا تعذبنا بهذا الإعراض ، ومر بما تشاء . فرفع الشيخ رأسه وهو يقول : غفر الله لمسعود ! أما فلان — يريد صاحب المقالة — فيغيب عنى وجهة ثلاثة

أيام ثم يلقانى إذا صُليت الصبح ، فعسى الله أن يرضى عنه قلبى . هنالك تنحى صاحب المقالة مستخذياً لا ينظر إلى أحد ولا يكاد ينظر إليه أحد . فلما انصرف قال الشيخ لأصحابه : لا تهجروا أخاكم ، ولكن واسوه وأحسنوا النصح له . أما أنت يا مسعود ، فإذا عدنا من حجنا فازفف إلى خالد أهله فإن ذلك سيرفه على علىّ . قال مسعود : سمعاً وطاعة يا مولاى .

ولم تمض على عودة الشيخ وأصحابه من الحج أشهر حتى كانت امرأة خالد قد زفت إلى زوجها ، وحتى كان خالد قد اتخذ له فى المدينة داراً مستقلة أقام فيها مع أهله ومن وكل مسعود بخدمة ابنته من الرجال والنساء وقد أصبحت دار خالد دار الرغد والخير ،لا تنقطع عنها هدايا مسعود إلى ابنته وصهره . وكان مسعود يلم بابنته بين حين وحين ، فيوصيها بنفسيه وابنتيها خيراً ، ويلقى إليها فى السر أن تبر علياًّ وبنيه . فما أكثر ما كانت ترسل « مُنى » إلى دار على بالطرف والهدايا على علم من زوجها حيناً وعلى غير علم منه فى أكثر الأحيان ، تهدى مرة إلى هذه ومرة إلى تلك من أزواج الشيخ . والشيخ يرى هذا فلا يهتم له أول الأمر ، حتى إذا كثر ذلك من « منى » خلا إلى ابنه ذات يوم فقال له ،يا بنى ،لا تثقل على أهلك ولا على حميك ؛ فإن فى بعض ما ترسلون إلى مقنعاً . قال خالد : والله يا أبت ما تكلفت شيئاً وما علمت أن امرأتى تكلفت شيئاً ، وإن الخير لكثير ، وإن الرزق بيد الله يؤتيه من يشاء . ولكن علياًّ أعاد مثل هذا الحديث على مسعود . فغضب مسعود حتى اضطربت لحيته ، ورق مسعود حتى انهلت دموعه ، ثم قال لصاحبه : أتريد أن أشكوك إلى الشيخ ؟!

هنالك اضطرب علىّ بعض الاضطراب وظهر على وجهه الخجل وقال : وددت لو يستطيع الشيخ أن ينساني . قال مسعود : هيهات ! ليس إلى ذلك سبيل . إنه ليذكرك في كل يوم ، وإنه يستحيي أن يدعوك . قال على : يستحيي أن يدعوني وأستحيي أن أزوره ! وهو يذكرني في كل يوم وأنا أذكره في كل ساعة ؛ ما كنت أحسب أن الدهر يفعل بالناس مثل ما فعل به وبي . قال مسعود : لم يفعل بكما الدهر شيئاً ، وإنما أنت أسأت إلى الشيخ وأسأت إلى نفسك . إنك لا تحسن احتمال المحنة ولا الثبات للخطب . إن مال الله غاد ورائح ، يصبح الإنسان غنياً ويمسى فقيراً . وإن الرجل الكريم هو الذى يحسن احتمال الفقر كما يحسن احتمال الغنى . وقد عرفت كيف تحتمل الغنى فكنت خيراً جواداً ، تواسى الضعيف ، وتطعم الجائع ، وتكسو العارى ، وتعين على نوائب الدهر . ولكنك لم تحسن احتمال الفقر ، فاستحييت وليس فى الفقر حياء ، واستخذيت وليس فى الفقر استخذاء . إنك حين تستخفى بفقرك وتتكلف ما تتكلف من الجهد لا تزيد على أن تلوم الله لأنه هو الذى يغنى ويفقر . والله لا يلام ولا يسأل عما يفعل ؛ وإنما نحن الذين يلامون ويسألون عما يفعلون . أتريد أن تسمع لى وتقبل نصيحتى ؟ قال علىّ وهو ينتحب : وما ذاك ؟ قال الحاج مسعود : نصلى العصر معاً ثم نسعى إلى الشيخ ؛ فإنك إن استأنفت لقاءه والأنس إلى مجلسه لم تعد إلى مثل ما أنت فيه الآن . ولم يقبل الليل حتى كان علىّ فى مجلس الشيخ كدأبه قبل أن تلم به المحنة ، وكدأبه فى مجلس الشيخ الكبير .

على أن العام لم ينته حتى ألم الموت بدار علىّ فانتزع منها امرأة كانت

أشوق ما تكون إليه وأزهد ما تكون فى الحياة . رد أم نفيسة إلى زوجها عبد الرحمن فى الدار الآخرة . وكان هذا الموت آية لعلى أثبتت له أن فقره ومحنته لم يغيرا من مكانته فى المدينة شيئاً ؛ فقد هرع أهل المدينة كلهم إلى دار علىّ يواسونه ويشيعون جنازته ، يتقدمهم الشيخ . وكان الأسبوع الأول لوفاة هذه المرأة الصالحة أسبوعاً حافلا فى دار علىّ ، قرئ فيه القرآن كأحسن ما يقرأ فى أكثر الدور ثراء وغنى ، وأقام الشيخ فيه بنفسه حلقة الذكر مرات . وقال علىّ لنفسه غير مرة : صدق الحاج مسعود ! إن الرجل الكريم هو الذى يحسن احتمال الفقر ، كما يحسن احتمال الغنى ولكن علياً منذ ذلك الوقت قطع على نفسه عهداً ليستأنفن حياة أخرى فيها جد كثير ، وزهد فى اللذات ، وانصراف عن متاع الدنيا ، وقناعة بما قسم الله له من الرزق .

١٩

قالت نفيسه لصديقتها زبيدة وهى تواسيها بين نوحتين ، حين انقطع لجاءة تعديد المعددة ، وسكت المأتم ودارت عليهن قهوة يشربنها فى صمت عميق ودموع منها ما لا يزال يساقط قطرات متقطعة ، ومنها ما لا يزال ينهل وابلا غزيراً ، ومنها ما يريد أن يجف لولا قطرة تمده بين حين وحين — قالت نفيسة لصديقتها زبيدة هامسة كأنما تسر إليها شيئاً : لو تعلمين أنى لا أحزن على فقد أمى بمقدار ما أحزن على دفنها فى هذه المدينة من وراء النهر بعيدة عن أبى وأخوى أولئك الذين دفنوا فى القاهرة ، فهم لم يفترقوا فى الحياة قط إلا هذه الأسفار التى كان يعمد إليها أبى لتجارته ، وكانت أمى إذا حدثته عن كثرة هذه الأسفار وما تقتضيه من فراق ، سمعته يقول لها فى أناة : إنما نحن فى هذه الدار على سفر ، وسيكون بيننا جوار متصل فى الدار الآخرة إن شاء الله لا تشكين معه بيناً ولا فراقاً .

قالت زبيدة : وما يحزنك من ذلك ؟ لقد التقيا منذ يومين وهما يسعدان الآن بهذا الجوار المتصل الذى طالما تمنياه .

قالت نفيسة وهى تكفكف عبرة أخذت تنهل : قد التقيا ! وأنى يكون لهما اللقاء ! بل أنى يكون لهما التزاور وأحدهما فى القاهرة والأخرى فى هذه المدينة من وراء النهر والأمد بينهما بعيد ! .

قالت زبيدة : قد افترق جسماهما ، رقد أحدهما فى القاهرة ، ورقد الآخر هنا ، ولكن روحيهما قد التقيا فى رضوان الله ؛ حتى إذا كان يوم

القيامة التقى الروحان والجسمان جميعاً فى الجنة . بذلك حدثنا شيوخنا ، وبذلك يحدثنى سليم كلما ذكرنا الموت ، وما أكثر ما نذكره ! .

قالت نفيسة : افترق جسماهما والتقى روحاهما ! هذا كلام لا أفهمه ولا أصدقه . ولو كان حقـًّا لما رأيت أبى فى الليلة الأولى لوفاة أمى وهو يلقى إلى من بعيد هذا الأمر : قولى لهم يدفنوها معى فإنى إليها مشوق ، وقد وعدتها بذلك قبل أن أموت . ولو كان هذا حقـًّا لما رأيت أمى فى الليلة الثانية تلقى إلىّ هذا الأمر من بعيد: قولى لهم يدفنونى معه فإنى مشوقة إليه ، وقد وعدنى بذلك قبل أن يموت . أترين لو أن روحيهما التقيا أكانا يطلبان إلىّ هذا الذى تواعدا عليه قبل أن يموتا ؟

قالت زبيدة : وقد أخذ شىء من الخوف الخفى يتسرب إلى قلبها فتسرى له فى جسمها كله رعدة خفيفة — قالت زبيدة : أفتصدقين الأحلام وتكذبين مقالة الشيخ ؟ ! إن الأحلام كثيراً ما تكذبنا ، ولكن الشيخ لا يقول إلا الحق .

قالت نفيسة : أما إنى لا أدرى أيهما. يلم بى الليلة إذا غفوت فيلقى إلىّ هذا الأمر الذى لا أستطيع له تنفيذاً . فكيف لى بنقل أمى إلى القاهرة وأنا لا أقدر على شىء ! وكيف لى بالتحدث إليه أو إلى أبيه فى شىء من ذلك وقد فعلا أكثر مما كان ينبغى أن يفعلا . قالت زبيدة : إليه ! إلى من ؟ قالت نفيسة : إليه ! إنك لتعرفينه . ففطنت زبيدة إلى أنها إنما تشير إلى خالد ، وكانت لا تسميه إذا تحدثت عنه ، وإنما تشير إليه دائماً بالضمير . قالت زبيدة : قد فهمت سأتحدث إليه وإلى أبيه وإلى سليم .

واستأنفت المعددة غناءها الذى كان يمزق القلوب ، واستأنف المأتم الرد عليها والبكاء معها ، وانهلت الدموع غزاراً ، واضطربت الأصوات فى الحلوق ، وألمت النوبات العصبية ببعض النائحات فأسرع إليهن سائر نساء المأتم ، يهدئنهن بالقول والعمل ، وينضحن على وجوههن الماء . وانصرفت زبيدة من ذلك اليوم وهى تشفق على نفيسة من خطر جديد ، وتزمع أن تتحدث إلى زوجها فى نقل هذه المتوفاة إلى القاهرة . ولست أدرى أتحدثت فى ذلك أم لم تجد إلى الحديث فيه سبيلا ، ولكن الشىء المحقق هو أن الليل جعل يخيف نفيسة أشد الخوف كلما مالت الشمس إلى الغروب . وكان هذ الخوف يزداد قوة وعنفاً كلما تقدم الليل . وكان أبغض شىء إلى نفيسة أن تأوى إلى مضجعها مخافة أن يزورها النوم فيزورها معه طيف هذا أو تلك من أبويها ، فكانت تدافع النوم بالقهوة تسرف فى شربها إذا أظلم الليل ، لا تكاد تفرغ من كأس حتى تعمد إلى كأس أخرى . ثم أشفقت من العزلة التى كان الليل يضطرها إليها إذا هدأ من حولها كل شىء ونام من حولها كل إنسان ، فكانت تستبقى ابنتيها معها حتى يتقدم الليل ، فإذا عبث النعاس بالصبيتين ووضع رأس كل واحدة منهما على إحدى فخذيها ، أدركها شىء من الجزع وهمت أن توقظهما ، لولا أن نسيم كانت تسرع إلى الصبيتين فتحملهما إلى مضجعهما ، ثم تعود إلى مولاتها فتسليها بالقصص والحديث ، وما تزال بها حتى تسلمها إلى نوم مضطرب ثقيل . وقد اشتد هذا الأمر مع الأيام ، حتى اضطرت الخادم إلى أن تنام فى غرفة سيدتها ، تلقى لنفسها وسادة على الأرض ، وما تزال بسيدتها فى حديث وقصص ، حتى إذا

أحست منها استسلاماً للراحة أو إذعاناً لشيء يشبه النوم استلقت هي على وسادتها فنامت إحدى عينيها وظلت الأخرى مستيقظة لحراسة سيدتها من هذا الطائف المزعج الذى كان يلم بها كلما اطمأنت أو كادت تطمئن إلى النعاس .

وقد عاشت نفيسة ما شاء الله لها أن تعيش ، وعمرت ما أذن الله لها أن تعمر دون أن تطمئن إلى النوم ليلة كاملة ، إنما كانت تهب من نومها أثناء الليل فزعة جزعة ؛ لأنها رأت أمها أو أباها ، وسمعتهما يلقيان إليها هذا الأمر دائماً : قولى لهم يدفنوها معى فأنا إليها مشوق وقد وعدتها بذلك قبل أن أموت ، أو قولى لهم يدفنونى معه فأنا إليه مشوقة ، وقد وعدنى بذلك قبل أن يموت . وكثيراً ما رئيت شفتاها أثناء النهار تتحركان دون أن يصدر عنهما صوت ؛ فلم يشك من كان حولها فى أنها تردد هذا الأمر الذى صدر إليها من أحد أبويها أثناء الليل .

وقد قصت نسيم بعض هذا على سيدنا خالد ، فاستمع له ثم انصرف عن مولاته وهو يستعيذ بالله من الشيطان الرجيم ، ويقول : « أضغاثُ أحلام وما نحنُ بتأويل الأحلام بعالمين » . وقص خالد ما سمع من مولاته على أبيه ، فقال : يرحم الله عبد الرحمن ! ويرحم الله امرأته ! ويلطف الله بنفيسة ! هون عليك يا بنى وارفق بها ؛ فإنما طائف الليل هذا الذى يزورها كجنية البيت التى تراءت لها ذات مساء وأنبأتها بأنك تريد أن تدخل عليها ضرة فى بيتها . أتذكر جنية البيت ؟ ! ثم سكت على لحظة ، ثم استأنف حديثه قائلا : ومع ذلك فيحسن أن نعيد هذا الحديث على الشيخ ، فلعله أن يرى لنا فى الأمر رأياً . وأعاد على بمحضر

ابنه على الشيخ حديث نفيسة؛ فابتسم الشيخ ابتسامة حزينة وقال : يلطف الله بها ، إنما هو طائف من الشيطان قد أولع بها فصرفها عن الحياة وصرف عنها الحياة ؛ ومع ذلك فارفقوا بها وجنبوها العزلة ما وجدتم إلى ذلك سبيلا . ونظر الشيخ إلى على فإذا دمعتان تترقرقان فى عينيه ثم لا تلبثان أن تنحدرا على خديه لتضيعا فى لحيته الكثة ، وإذا هو يقول: اللهم ارحمْ أم خالد ، واغفر لى وللشيخ الكبير ولعبد الرحمن ، فقد أنبأتنى أنى حين أزوج هذين الشابين لا أزيد على أن أغرس فى بيتى شجرة البؤس . لقد والله غرستها ، فثبتت أصولها فى الأرض ، وارتفعت أغصانها فى السماء ، وأخذت تؤتى ثمرها خبيثاً مراً . قال الشيخ وهو يضحك : ما أشد ما تعبث الأوهام بعقول العقلاء ، وانصرف خالد إلى أهله وهو يطيل التفكير فى شجرة البؤس هذه ، يسأل نفسه عن أصولها التى رسخت فى الأرض ، وفروعها التى ارتفعت فى السماء ، ولكنه لا يسأل نفسه عن ثمراتها المرة الخبيثة ؛ فقد ذاق بعضها ووجد طعمها المر الخبيث حين كشف له الغطاء عن قبح زوجه ، وحين ألزم المضاهاة بين وجهى الصبيتين ووجه أمهما ، وحين لعب الشيطان بنفسه فوسوس له ما وسوس ، بل زين له ما زين . بل لقد كانت شجرة البؤس هذه مبكرة فى إيتاء أكلها ، فقد ذاق أول ثمرها ولما يمض على زواجه إلا وقت قصير . رحم الله أمه ! لقد كانت كارهة إذاً لهذا الزواج نابية عنه. وأكبر الظن أنه هو الذى قتلها .

٢٠

وقد كان خالد سعيداً ناعم البال فى حياته الجديدة ، مغتبطاً بما أتيح له من نعمة حين تزوج « منى » وأصهر إلى الحاج مسعود . ولم يمض عام وبعض العام على هذا الصهر حتى رزقته « منى » غلاماً ذكراً سماه محمداً . وصور ما شئت من سروره بمقدم هذا الغلام الذى جاء حسن الطلعة جميل المنظر ميمون النقيبة بعد هاتين الصبيتين البائستين . نعم ! إن لله لحكمة تعيا العقول عن إدراك كنهها وتعمق حقائقها . لقد غرس أبوه فى داره شجرة البؤس فشقيت بها أمه ، وشقيت بها نفيسة وأسرتها ، وشقيت بها الصبيتان . ولقد غرس الحاج مسعود فى داره شجرة النعيم فسعد بها هو ، وسعد بها حموه ، وسعدت بها منى . فليت أم خالد عاشت حتى تشارك فى هذا النعيم وحتى تسعد بهذا الحفيد ! وكان قلب خالد يخفق كلما ذكر هذه النعمة ، وما أكثر ما كان يذكرها ! لأنه كان يشفق أن تسقط فى أثنائها ثمرة من أثمار تلك الشجرة البغيضة التى رسخت أصولها ونمت فرعها فى دار أبيه . وقد تواترت نعم الله على خالد ، فرزقته « منى » غلاماً آخر وغلاماً ثالثاً ، حتى شارك امرأته فى الخوف من حسد الحاسدين على هؤلاء الصبية الذكور الذين أخذ بعضهم يتبع بعضاً لا تخالف بينهم صبية .

ويصبح خالد ذات يوم وإذا الأسرة فى خلاف شديد وخصام يوشك أن يبلغ العنف . فقد تحدث الشيخ فى مجلسه أمس ، ولم يكن خالد

حاضراً هذا المجلس ، بأنه قد وجد لخالد عملا خيراً من عمله فى محكمة المدينة يؤجر عليه بما يعدل راتبه مرتين غير ما يسوقه إليه من رزق لا حرج فيه . فهذا العمل فى بعض مرافق الدائرة السنية ، وما أكثر الخير الذى يساق مباركاً موفوراً إلى الذين يعملون فى مرافق الدائرة السنية ! . ولاعيب لهذا العمل إلا أنه سيضطر خالداً إلى ترك مدينته وأسرته وشيخه وذوى قرابته لينتقل إلى مدينة أخرى فى أعلى الإقليم مما يلى الصعيد . ولكن خالداً رجل لا يجد بالانتقال بأساً ولا يلقى فيه مشقة ، والأمد بعدُ قريب بين المدينتين وما هى إلا ساعات لمن يقطع الطريق ماشياً ، وساعات أقل لمن يقطعها على دابة ، فأما إذا اتخذ المسافر هذا البدع الحديد الذى جاء من القاهرة منذ حين والذى هو حديد يمشى على حديد ، ويرسل بين يديه دخاناً وغباراً ، ويشق الجو من حوله بالصفير والأزيز والشهيق ، هذا الذى يسمونه القطار ، فإنه يقطع المسافة فى ساعة وبعض ساعة . وما ينبغى لخالد أن يضيع هذه الفرصة أو أن يخيب أمل الشيخ فيه . فلم يكن الشيخ حين وجد هذا العمل واختار له خالداً يفكر فى هذا الفتى وأسرته وحدهما ، وإنما كان يفكر مع ذلك فى نفسه وفى طريقته أيضاً ، فقد كانت هذه المدينة التى يريد أن يرسل إليها خالداً هى المدينة الوحيدة التى استعصت عليه بين مدن الإقليم ، فلم ترسل إليه الوفود والهدايا فى المواسم والأعياد ، ولم تنتدب من فقرائها ولا من أغنيائها من يصحب الشيخ فى حجه على نفقته الخاصة أو على نفقة الشيخ ، ولم تكن تحفل به إن عبرها مع أصحابه مسافرين على ظهور الخيل أو مرّ بها مع أصحابه مسافرين على ظهر النيل ، قد استقر الشيخ فى ذهبيته واستقر أصحابه فى السفن التى

كانت تتلوها . بل كثيراً ما تجهمت المدينة لهؤلاء السفر الغرباء ، حتى كان الشيخ يأمر ألا ينزل أصحابه بها ، وألا ترسو سفنه على شواطئها مخافة أن يصيبه ويصيبهم من أهلها بعض ما يكرهون . ذلك أن هذه المدينة وما حولها من القرى كان لها شيخها أو كان لها بيت طريقتها الذى تلتف حوله وتعتز به وتثوب إليه عند الملمات ، وتنافس به غيره من المشايخ وبيوت المشايخ .

وكان الشيخ الكبير رحمه الله لا يعنى بهذه الأشياء ، ولا يحفل بهذه الصغائر ، ولا يلتفت إلى من يقبل عليه أو يدبر عنه ؛ لأنه لم يكن يبتغى استعلاء ولا جاهاً ولا بعد صوت ، وإنما كان يرى حياته جهاداً فى سبيل الله ؛ فمن ثاب إليه تلقاه لقاء حسناً وعلمه مما علمه الله ، ومن نأى عنه لم يفكر فيه إلا مستغفراً له وراجياً له الخير والصلاح . فأما الشيخ الشاب فمع أنه لم يقصر فى ذات الله فإنه على ذلك لم يقصر فى ذات الدنيا . ولم يكن يطمئن إلى أن تقوم المدينة مستعصية مريبة بين مدن الإقليم . فكان يتمنى أن يرسل إليها رسولا ، أو يقر فيها داعية ، أو يكون له فيها منزل ينزل فيه إذا مرّ بالمدينة برًّا أو من طريق النيل . فلما وجد هذا العمل — وأكبر الظن أنه قد جد حتى وجده — رضيت نفسه واستبشرت ، وحزم أمره واصطنع السياسة والحكمة ، فلم يفكر فى أن يرسل إلى المدينة رسولا أو يقر فيها داعية ، وإنما اكتفى أول الأمر بأن يذهب هذا الموظف فيقيم فى المدينة كغيره من موظفى الدائرة السنية ، ويتخذ لنفسه فيها داراً رحبة وينفق فيها راتبه وأكثر من راتبه ، فسيأتيه فيها رزق كثير ، وسيمده حموه بخير كثير ، وسيألفه أهل المدينة ويطمئنون إليه ويجعلون له بينهم مكاناً رفيعاً . فإذا استقر هذا الموظف فى بيئته .

الجديدة تلك عاماً وعاماً ، ومر الشيخ بالمدينة مصعداً أو مصوباً ، لم يكن بأس من أن ينزل ضيفاً عليه هو وأصحابه . وما كان أكثر أصحابه هؤلاء ! وهناك يفرح من يفرح ، ويحزن من يحزن ، ويغتاظ من يغتاظ ، ولكنه سينزل فى المدينة ويقيم فيها اليوم أو الأيام ، ويقيم فيها حلقة الذكر أيضاً . وكان الشيخ يطرب طرباً غريباً إذا رأى فى خياله أنه سيقيم حلقة الذكر فى هذه المدينة التى استعصت على أبيه ولكنها لن تستعصى عليه .

ولم يتحدث الشيخ بشىء من هذا إلى أصحابه حين ذكرهم أنه وجد هذا العمل واختار له خالداً ، وإنما ذكر مزايا هذا العمل الجديد وحاجة خالد إلى اتساع الرزق ؛ فقد أصبح صاحب أسرة ضخمة له بنون وبنات ، وينبغى أن يلتمس لهم من رزق الله . ولمح تلميحاً خفيفاً بأننا قد نزور خالداً بين حين وحين . فرضى أصحابه ، وحمد بعضهم للشيخ هذا السعى الحسن ، ووجد بعضهم على الشيخ فى دخيلة نفسه ؛ لأنه لم يجد إلا خالداً يؤثره بهذا العمل الذى يغل على صاحبه خيراً كثيراً . فأما على ومسعود فقد سمعا ورضيت قلوبهما وابتهجت نفوسهما ، وشكرا للشيخ عطفه وحبه : يشكره على باسماً ، ويشكره الحاج مسعود ودموعه تنهل . ويجد الشيخ ما يرضيه من بكاء هذا وابتسام ذاك .

وعاد على ومسعود إلى أهلهما حين تقدم الليل . وأصبح خالد فغدا على عمله فى المحكمة . فلما عاد إلى أهله رأى فى داره اضطراباً واختلافاً . فلما سأل عن ذلك أنبأته « منى » وهى تضحك بأن الشيخ قد وجد له عملا آخر فى مدينة أخرى من مدن الإقليم ، وأن أمها ضيقة بهذا الانتقال رافضة له ؛ لأنها لا تحب أن تفارق ابنتها ولا أن تفارق حفدتها ، وإنما

تريد أن تراهم متى شاءت ، تريد أن تراهم مصبحة إن أعجبها أن تراهم مصبحة ، وأن تراهم ممسية إن أحبت أن تراهم آخر النهار ، وأن يزوروها إن أرادوا وتستزيرهم هي إن أرادت . فأما هذه المدينة التي يسافر المسافر إليها على ظهور الخيل أو الإبل أو الحمر أو في هذا القطار البغيض ، فليس لها فيها أرب . لن تأذن بأن يفرق مفرق بينها وبين ابنتها ، وحسبها بالموت مفرقاً للمحبين . فإذا ذكر لها ارتفاع الراتب وكثرة ما سيصيب ابنتها من الخير سخرت من ذلك ورفعت له كتفيها وقالت : ما حاجة خالد إلى ارتفاع الراتب وإلى هدايا الناس والخير عندنا كثير !! وهل شكا خالد أو أحد من أهله تقتيراً في الرزق أو ضيقاً في ذات اليد ؟ ! فإذا ذكر لها أن الشيخ هو الذي وجد هذا العمل واختار له خالداً ، أخذها غيظ شديد وقالت : إن أتباع الشيخ كثيرون ، منهم الشباب والكهول والشيوخ ، فما باله لم يختر إلا خالداً ؟ خلوا بيني وبين الشيخ ، فلئن لقيته لأغيرن من رأيه ، فإن لم أستطع فسأعصي أمره مجاهرة له بالعصيان . أفتظنون أني أخاف الشيخ أو أفرق منه ؟ ! لقد رأيته صبيًّا يدرج ، ولقد لاعبته وداعبته قبل أن يبلغ العاشرة من عمره . اتخذوه لكم شيخاً ؛ فأما شيخي أنا فقد مات ، ولو كان حيًّا ما فرّق بيني وبين ابنتي . وكان زوجها يحاول إرضاءها عن اختيار الشيخ ، يلطف لها حيناً ، ويعنف بها حيناً آخر ، فلا يبلغ منها شيئاً . فلما ارتفع الضحى أقبلت إلى ابنتها ثائرة تريد أن تنتقل إليها الثورة ، عصية تريد أن تحملها على العصيان ولكنها تحدثت وتحدثت إلى ابنتها ، فلم تر فيها ميلا إلى الثورة ، ولا استعداداً للعصيان . فلما سألتها مغيظة عن رأيها ، قالت « متى » في صوت

هادئ مضطرب بعض الشيء : ومتى كان لى فى مثل ذلك رأى ؟ ! إنما الرأى لخالد ، فأنا مقيمة إن أقام ، ومرتحلة إن ارتحل . هنالك تحولت ثورة الأم فجاءة إلى حزن عميق ، فانحازت إلى زاوية من زوايا الحجرة التى كانت تتحدث فيها إلى ابنتها ، وأغرقت فى بكاء صامت متصل . ولو كشف للناس عما كان فى قلبها إذ ذاك لرأوا فيه شيئاً من خيبة الأمل والاستعداد للإذعان ؛ فقد رأت من زوجها إصراراً ، ومن ابنتها إيثاراً لطاعة الزوج . وماذا تستطيع أن تصنع وحدها أمام هذه القوى التى تكاثرت وتظاهرت لا تريد إلا أن تفرق بينها وبين ابنتها ! ومتى لقيت من الحياة خيراً ؛ أما زوجها فمشغول بشيخه وتجارته . وأما بناتها فلا تكاد إحداهن تتزوج حتى تنسى كل شىء وكل إنسان إلا زوجها وبنيها . وماذا تنكر عليهن وهن لا يزدن على أن يسرن سيرتها ! فقد نسيت هى دارها وأمها منذ زفتْ إلى الحاج مسعود ؛ فلمَ لا تنسى « منى » دارها وأمها منذ زفتْ إلى خالد ، ثم تنجم فى قلبها الساذج عاطفة مؤلمة تشبه الغيرة وما هى بالغيرة ؛ فهى لم تلد لزوجها إلا بنات ، وهؤلاء بناتها يلدن لأزواجهن البنين . فهن أحسن منها حظاً وأعظم منها نصيباً من الخير ، وآثر منها عند أزواجهن . ولو أنها ولدت للحاج مسعود غلاماً أو غلامين لكانت له معها سيرة غير سيرته هذه . ثم تلوم البائسة نفسها على ما ساورها من سوء الظن بزوجها وهو الذى لم يقدم إليها إلا خيراً وبراً ، وهو الذى لم يفكر فى أن يدخل عليها ضرة لعلها تلد له غلاماً ، بل هو الذى لامها أشد اللوم وعنفها أشد التعنيف وأنذرها بأنه سيشكوها إلى الشيخ حين ألحت عليه منذ سنتين فى أن يتخذ زوجاً ثانية لعلها تلد

غلاماً ، فما ينبغى أن يؤول أمر هذه الدار إلى البنات وأزواجهن من الغرباء . وكانت جادة فى هذا الإلحاح ، وكانت قد اختارت للحاج مسعود فيما بينها وبين نفسها زوجته الثانية . ولكن الحاج مسعود كان جاداً فى رفضه وجاداً فى إنذاره بأن يرفع أمرها إلى الشيخ . وقد زاد حبه لها منذ تلك المحنة ، واشتد عطفه عليها ، حتى لقد كان يصطحبها معه إلى الحج إيثاراً لها بالخير وكراهية لفراقها ؛ فما ينبغى أن يسوء ظنها به أو يفسد رأيها فيه ، وما ينبغى لها إلا أن تطيعه وتذعن لأمره . إنه سيفرق بينها وبين ابنتها ؛ فليكن ما يريد ، فلولا أن الله قد كتب ذلك لما خطر هذا الخاطر للشيخ ، ولما ألح فيه الحاج مسعود . وهل خلق النساء فى هذه الحياة إلا لطاعة الأزواج والإذعان للقضاء المكتوب !

فلما عرف خالد ذلك تردد ساعة بين الرضا والسخط ، ولكنه لم يلبث أن اطمأن إلى الرضا ؛ فهو لم يتعود أن يخالف عن أمر الشيخ ، وهو مدين بما فى حياته كلها من خير وشر للشيخ ولأبيه . فأما الشيخ الكبير فقد زوجه نفيسة وأذاقه ثمرة البؤس ، ولكنه خطب له « منى » . وأما الشيخ الشاب فقد زوجه منى وفتح له أبواباً من الخير . « وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَنْ يَكُونَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ وَمَنْ يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا مُبِينًا » .

وهو يقبل مع امرأته على حماته يسليانها ويعزيانها ويترضيانها ، حتى تظهر الرضا وفى نفسها إذعان ، ولكنه إذعان ساخط مغيظ .

فإذا قص خالد أمره على أخيه وصديقه سليم ، قال له هذا ضاحكاً :

لم تنبىء بأمرك جاهلا ! فقد علمت منه مثل ما تعلم، وقد سررت له وحمدته للشيخ وإن كنت لأضمر له حبًّا عميقاً ، وأكاد أندم على أنى لست من أتباعه وشيعته . فلو قد كنت منهم مثلك لجاز أن يجد لى عملا كالذى وجده لك ، يبسط لى فى الرزق ويخرجنى من هذه المدينة التى أخذت أبغضها أشد البغض وأضيق بأهلها أشد الضيق . قال خالد أتحب أن أكلمه فى ذلك ؟ قال سليم : لا تفعل ؛ فإنى لم أحسن رعاية حقه ، ولا أرانى قادراً على أن أستأنف معه سيرة جديدة ! فقد ألحقنى أبوه بعملى كما ألحقك بعملك ، فوفيت أنت للرجلين ، ووفيت أنا للشيخ الكبير وقصرت فى ذات الشيخ الصغير . وماذا تريد أن أصنع ؟ لقد لاعبته صبيًّا ، وداعبته وخاصمته شابًّا ، فكيف تريدنى على أن أرى فيه الآن شيخاً له فضل أبيه ، أترانى أستطيع أن أدين لك بمثل ما تدين به للشيخ ، وإنما نحن أتراب ، لعبنا معاً ، ونشأنا معاً ، ثم افترقت بنا طرق الحياة ، فأصبح هو شيخ طريق ، وأصبحت أنا كاتباً فى المديرية ، وأصبحت أنت كاتباً فى المحكمة . أستغفر الله بل موظفاً فى الدائرة السنية يقبض فى آخر الشهر ثمانية جنيهات لا أربعة . قال خالد وهو يضحك : صدق الله العظيم : « من يهد الله فهو المهتد ومن يضلل فلن تجد له وليًّا مرشداً » . ثم سكت خالد حيناً ثم قال : ولكنى غير مطمئن إلى هذا الانتقال كل الاطمئنان . قال سليم : لا تكن محمقاً ، راتب ضخم ، وخير كثير ، وفراق لهذه المدينة ، ورضا الشيخ ، ماذا تريد أكثر من ذلك ! ؟ وهمّ خالد أن يتكلم فمضى سليم فى حديثه قائلا : لا تهتم لنفيسة وابنتيها ، فسأرعاهن بعد سفرك كما ترعاهن أنت الآن .

وأنت تعرف بر زبيدة بهن وحبها لهن . أليست جلنار خطب سالم ؟ ! قال خالد وهو يضحك : وصلتك رحم ! فما كنت أشك أنك ستقوم مقامى منهن . قال سليم : ولكن ذلك لن يعفيك من أن ترزقهن وتعين أباك . قال خالد : وهل فى ذلك شك ؟ سأيسر عليهن فى الرزق ، وسأضعف لأبى معونته . ولم تمض أسابيع حتى كان خالد قد استقر فى مدينته تلك النائية القريبة ، واستأنف عمله الجديد . ثم لم تمض أشهر حتى كانت « منى » قد رزقته غلاماً رابعاً .

٢١

قال سليم وهو مغرق فى الضحك — وكان قد جاء زائراً لخالد وأسرته — ماذا تريد ؟ لقد أصبحت تلك الناحية من دار أبيك بيمارستاناً ، وأصبحت زبيدة ممرضة لإحدى المجانين . فأما نسيم فقد أمرتها أن تعزل الصبيتين وأن تعنى بهما ، وألا تجعل بينهما وبين أمهما سبباً حتى تنجاب عنها هذه المحنة . وأظنك توافقنى على أن الدور لم تقم ليمرّض فيها المجانين ؛ فللمجانين دارهم الخاصة فى القاهرة . وأظنك توافقنى أيضاً على أن زبيدة ليست هى التى تحسن رعاية المجانين والقيام عليهم . فأطعنى يا بنى ، ولنرسل نفيسة إلى حيث ينبغى أن تقيم .

قال خالد وفى عينيه دمعتان تريدان أنتسقطا ولكنه يعلقهما بين جفونه فى شىء من الجهد : حاش لله ! لن يكون هذا وأنا حى . ماذا أقول لعبد الرحمن وزوجه إذا التقينا فى الآخرة ؟ ! وماذا أقول للشيخ إذا سألنى عن العهد الذى أعطيته على نفسى ؟ وكيف أرضى لابنتى أن يقال إن أمهما قد اضطرت إلى مستشفى المجانين ؟ !

قال سليم فى شىء من الجد : وماذا تريد أن تصنع إذاً ؟ فإن حال نفيسة لا تطاق ، لا سبيل إلى تمريضها حيث هى الآن . وهم خالد أن يجيب ، ولكن «منى» سبقته إلى الحديث فقالت : إنما مكان نفيسة هنا فى هذه الدار ، أقوم عليها أنا ومن معى ، ويرعاها أبو ابنتيها من قريب كما كان يرعاها قبل أن ينتقل إلى هذه المدينة . قال الرجلان معاً :

أو تفعلين؟ قالت منى : ولمَ لا؟ سأتخذ ابنتيها ابنتين لى ، وقد رزقنى الله أربعة غلمان ولم يرزقنى بنتاً واحدة . قال سليم وعلى ثغره ابتسامة راضية وفى صوته حنان لم يعرف منه : بل تتخذين ابنتيها أختين لك ، فما أرى أن الفرق بينك وبين سميحة عظيم . أما خالد فقد عجز عن ضبط نفسه فأرسلها على سجيتها ، وعن إمساك دموعه ففرق ما بين جفونه ، وإذا هو ينتحب ، وإذا دموعه تنهمل على خديه انهمالا . فلما رأى سليم ذلك من أمره عاد إلى المألوف من عنفه الظاهر وجفوته البادية ، فأغرق فى الضحك وهو يقول : ما رأيت كاليوم رجلا يشبه النساء وامرأة تشبه الرجال . انظر أيها الأحمق إلى امرأتك وتعلم منها كيف يكون لقاء المحن ، وكيف يكون الثبات للخطوب . ألا تستحيي أن يدخل بنوك وأن يروك فى هذه الحال ! ثم التفت إلى « منى » وهو يقول ـ جففى له دموعه أو ابغيه منديلا يجفف به هذه الدموع .. ولكنكما لم تسألانى كيف كان بدء هذه القصة التى انتهت بنفيسه إلى ما هى فيه؛ فإن هذه القصة مؤلمة حقًّا، ولكن فيها مع ذلك كثيراً من الغرابة وكثيراً من الفكاهة أيضاً . قالت منى : من الفكاهة ؟ ! قال سليم : نعم من الفكاهة . أتعرفين من دفع نفيسة إلى هذه الحال ؟ قالت منى : من دفعها إلى هذه الحال ؟ قال سليم : أتذكرين أم رضوان أم لعلك نسيتها ؟ قالت منى : أم رضوان ! وكيف أنساها ولم يبعد عهدى بها بعد ؛ قال سليم : فهى التى فتحت لنفيسة هذا الباب المنكر الذى لا نعرف كيف نخرجها منه . قالت منى : وكيف ذاك ؟ قال سليم وهو يلتفت إلى خالد : إنك لتعرف دار أبيك فى ذلك اليوم من الشهر حين يهيأ الخبز ، وإن أم رضوان هى التى تخبز لهم ،

فتذكرت إن كنت ناسياً ، كيف يكون الاستعداد لهذا اليوم : لا تكاد الشمس تجنح إلى مغربها حتى تكون إحدى نساء الدار مشغولة بإعداد الخميرة ، فإذا تقدم الليل شيئاً تعجل النساء نومهن ونامت فى الدار أم رضوان فلم يذقن النوم إلا غراراً ؛ فهن ينهضن إذا انتصف الليل أو قارب ثلثيه ، وهن يسرعن إلى عجينهن ينفقن فيه الساعة أو أكثر من الساعة ، يتنافسن فيما يبذلن من جهد ، لكل واحدة منهن وعاؤها الذى تعجن فيه . حتى إذا أتممن ذلك وفرغن من تنافسهن وما يكون بينهن من حديث يهمسنه همساً أو غناء يخافتن به مخافة أن يصل إلى آذان الرجال ، والجاهلات مع ذلك لا يلحظن أن ما يحدثن من الصوت فى أوعيتهن كاف لإيقاظ المغرقين فى النوم العميق ، ولكنهن لا يتحدثن إلا همساً ، ولا يتغنين إلا إسراراً ، فإذا فرغن من عملهن ثبن إلى مضاجعهن يلتمسن فيها علالة من نوم ريثما يرتفع العجين . وتنهض إحداهن قبل صاحباتها لتحمى التنور ، فتمتلئ القاعة وهجاً ، وتمتلئ الدار دخاناً ، ويهب أهل الدار مع الفجر : فأما الرجال فيصلون ويتعجلون قهوتهم ، ويغدون مع الطير . وأما النساء فيسرعن أو يبطئن إلى قاعة التنور ؛ فهن قد اتخذنها موعداً للقاء . هنالك تجلس أم رضوان إلى جانب الفرن لتنضج الخبز ترقصه على مطرحتها حيناً ثم تدفعه إلى التنور دفعاً ، ثم لا تلبث أن تخرجه بغصنها ذاك اليابس من سعف النخل . وما تزال ترقص رغيفاً وتخرج رغيفاً حتى يرتفع الضحى والنساء من حولها يداعبنها ويتلاغطن بأحاديث مختلفة ، فيها الجد وفيها الهزل وفيها الشكوى وفيها المؤاساة .

قال خالد وقد كاد يُرَدّ إلى صباه : فما شأن هذا كله وما نحن فيه ؟

قال سليم : شأن هذا كله وما نحن فيه ، أن نفيسة كانت بين النساء فى قاعة التنور . فقصت أم رضوان قصة سمعتها نفيسة فصدقتها وهمت أن تحققها ، فلما رُدتْ عن ذلك بعد جهد أى جهد أصابها ما هى فيه الآن . قال خالد : وما قصة أم رضوان هذه ؟ قال سليم : كان النساء يتجاذبن أحاديث الجن وأحاديث الجنيات خاصة حين يظهرن إذا تقدم الليل ويرقصن فى ضوء القمر . فقالت أم رضوان : لقد رأيت فى قريتنا أمراً عجباً ، رأيته بنفسى فلا أستطيع أن أكذبه ، لو حدثنى به أحد غيرى لرفضته كل الرفض . قال النسوة : وماذا رأيت يا أم رضوان ؟ قالت : إنى أخاف أن أقص عليكن ما رأيت . قال النسوة : بل قصيه علينا ، وألححن فى ذلك وفى نفوسهن ثقة بأن أم رضوان لم تر شيئاً ، ولكنه الشوق إلى القصص والرغبة فى الشعور بالخوف وهذه اللذة الغريبة التى يجدنها فى إثارة الفزع فى نفوسهن .

قالت أم رضوان : كنت أخبز فى قريتنا لجارة لنا ذات مساء كما أخبز الآن ، وكانت صاحبة الدار أم عثمان جالسة معى بين أتراب لها وجارات ، وكنا نتحدث كما نتحدث الآن ، وإذا امرأة من أهل القرية تدخل علينا متفزعة متفجعة ، فإذا سألناها عما بها زعمت لنا أنها خرجت مع صاحباتها من آخر الليل يملأن جرارهن . وإنهن لعائدات يغنين فى صوت خافت يستأنسن بالغناء من وحشة الليل ، وإذا هن يسمعن أصواتاً لا يكدن يتبينها ، فيصغين ويمددن أبصارهن فيرين نساء يلطمن وجوههن وهن يتغنين بمثل ما تتغنى به النادبات فيقلن :

يا ساريات فى السحرْ   يسعين فى ضوء القمرْ

إذا بدا الصبح الأغر فقلن يا نشر الزهر
إن أبا يحيي عمر أصابه سهم القدر
فهــو صريــع محتضر هل لك فيه من وطــر

قالت أم رضوان : ولم تكد هذه المرأة تتم حديثها حتى رأينا أم عثمان قد ثارت مولولة ، فنقضت شعرها ، ومزقت ثيابها ، وجعلت تلطم وجهها ، وتضرب صدرها ، ونحن نحاول أن نردها إلى الهدوء ونسألها عن أمرها ، ولكنها بعد حين تثوب إلى نفسها قليلا وتقول لنا فى صوت يقطعه الشهيق ، أنا نشر الزهر وعمر أبو يحيي هو أخى ! اقرأن تحيتى على زوجى واستوصين بعثمان خيراً ؛ فلا بد من أن أرى أخى قبل أن يموت ، وما أرانى أدركه ، ولعلى أعود إليكن وإلى زوجى وابنى إذا انقضت أعوام العزاء ؛ فالعزاء عندنا لا يكون فى الأيام ولا فى الأشهر وإنما يكون فى الأعوام الطوال . قالت أم رضوان : وكدنا نظن بصاحبتنا الجنون ، ولكن ما راعنا إلا أن رأيناها تقذف نفسها فى التنور ، فلا نرى لها أثراً ولا نسمع لها حساً . كانت جنية تمثلت لأبى عثمان امرأة فتزوجها وولدت له ابنه عثمان ، ثم جاءها النبأ أن أخاها يحتضر فأسرعت للقائه قبل أن يموت ، وسلكت إليه أقرب الطرق وهو التنور حين يكون ملتهباً . والجنيات يألفن التنور ؛ ولذلك لا ينبغى أن يحمى التنور دون أن يذكر اسم الله عند إشعال النار ؛ فإن ذلك يطرد منه الشياطين ، ويؤذن المسلمات بأنه سيحمى فيخرجن منه قبل أن يدركهن شىء من النار . ولم تكد أم رضوان تبلغ هذا الموضع من حديثها والنساء يسمعن لها مرتاعات ملتاعات ، منهن من تمسك الشهيق ومنهن من تدفعه ، حتى

ثارت نفيسة كأنها الجنية وقد نثرت شعرها وقدت ثوبها وأخذت تعول إعوالا متصلا ، وتلطم وجهها ، وتضرب صدرها ، وهي تصيح وا أبتاه وا أماه ! ثم تدفع نفسها إلى التنور تريد أن تدخل فيه لتسلك أقرب طريق إلى أبويها ، كما دخلت فيه أم عثمان لتسلك أقرب طريق إلى أخيها . هنالك يفيق النساء من خوفهن المتكلف وفزعهن المصطنع ويتكاثرن على نفيسة فيرددنها عن التنور بعد جهد ، ثم يحملنها في مشقة شاقة إلى حجرتها ، وهي تضطرب بين أيديهن ، تلطم هذه وتخمش تلك ، وهن على ذلك جاهدات في حملها حتى يبلغن حجرتها ، وقد سبقت إحداهن إلى أبيك وهو ذلك الصباح في غرفة أم خالد مغرق في صلاته ودعائه ، فإذا دخلت عليه وأنبأته النبأ ، أسرع ساخطاً إلى حجرة نفيسة . حتى إذا رآها ثائرة فائرة لا تستقر ولا تدع من حولها يستقر ، دنا منها يريد أن يضع يده على رأسها وهو يقرأ في صوت مرتفع : (قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ . مَلِكِ النَّاسِ . إِلٰهِ النَّاسِ . مِنْ شَرِّ الْوَسْوَاسِ الْخَنَّاسِ الَّذِي يُوَسْوِسُ فِي صُدُورِ النَّاسِ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ) ولكنه لا يكاد يبلغها حتى تهب كأنها الشيطان مندفعة إليه في عنف آخذة بلحيته أخذاً شديداً والشيخ يتراجع فزعاً جزعاً ، وهو يلعن الجن والإنس جميعاً . حتى إذا بلغ باب الغرفة قرأ آية الكرسي واستغفر الله العظيم ، ثم التفت إلى النساء وقال أوثقنها إن استطعتن ودعنها حتى تهدأ ، فلا بد من أن يدركها الإعياء بعد حين . وقد وفق النساء لإنفاذ أمر الشيخ ، ثم تركن نفيسة موثقة في حجرتها معولة تدعو أباها وأمها ، وتلعن الذين منعوها من أن تسلك إليهما

طريق التنور ، وامرأة قائمة من الغرفة غير بعيد تلحظها خائفة وهى تستعيذ بالله من الشيطان الرجيم . وينتهى الأمر إلى زبيدة فتسرع إليها ، وما تزال بها حتى ترد إليها شيئاً من هدوء بعد أن ردت إليها حريتها داخل الحجرة ، وهى منذ ذلك اليوم تلزمها لا تكاد تفارقها إلا ريثما تعود إليها بعد أن تعنى بما يمكن أن تعنى به من شؤون البيت . أفترين أنك قادرة على أن تسكنيها فى دارك وتمنحيها ما تحتاج إليه من الرعاية ؟ قالت منى : نعم ! يجب أن تأتى وأن تقيم معنا ، وأنا واثقة بأنها ستترك المرض وراءها فى مدينتكم تلك ؛ فقد كانت هذه المدينة عليها شؤماً .

وحملت نفيسة بعد أيام إلى دار خالد فى مدينته تلك متعبة منهوكة القوى. ولكن « منى » عرفت كيف ترعاها ، وترفق بها ، وتتلطف لابنتها حتى رُد إليها شىء من عافية ، فأقامت فى الدار ما شاء الله أن تقيم حية كالميتة ، ميتة كالحية ، وشبحاً على كل حال ، لا يكاد من يراها يظن أنها كانت امرأة وأنها كانت أماً .

٢٢

وستضعف الأسباب بيننا وبين المدينة التى نشأ فيها خالد ونشأت فيها أسرته ، والتى نشأ فيها علىّ وأسرته أيضاً ، والتى أقام فيها الشيخ الكبير وخلفه عليها ابنه الشيخ الشاب . ستضعف هذه الأسباب وترثّ حتى توشك أن تنقطع ؛ لأنها قويت بين خالد وبين مدينته التى استقبل فيها الحياة ؛ فقد استقر خالد فى وطنه الجديد حتى أصبح من أهله ، واتصلت المودة بينه وبين أهل المدينة وأهل القرى المجاورة ، وأخذت زياراته هو لمدينته تقل وتتباعد ، وأخذت زيارات أهل المدينة له تقل وتتباعد أيضاً . وجعل الشيخ يمر بالمدينة فى طريقه إلى الصعيد فيقيم فيها اليومين أو الثلاثة ، ويمر بها فى عودته إلى مدينته فيقيم فيها اليوم والليلة ، لا يلقى من أهلها كيداً ، بل يلقى منهم تجلة وتكريماً ؛ لأنه ضيف خالد ، ولأن إلمامه بالمدينة عيد للفقراء والأغنياء جميعاً . وجعل أبو خالد يرور ابنه فى الشتاء كل عام ، فينفق عنده الشهر أو الأشهر كريماً موفوراً ناعم البال . وجعل الحاج مسعود يزور ابنته مرتين فى العام لا يقيم فى كل مرة إلا الأسبوع يحملونه عليه حملا . ثم يعود إلى داره وشيخه وماله . واطردت أمور القوم على هذا النحو ، والأيام تمضى والأيام تجىء ، والصبية يكبرون ، والكهول يشيخون ، والشيوخ يسعون إلى الهرم أو يسعى إليهم الهرم . ومن أولئك وهؤلاء من يدركه الموت فى إبانه أو يختطفه قبل أوانه ليكون البكاء والحزن ثم يكون العزاء والسلوة . فقد ماتت زبيدة

ولما تتقدم بها السن ، وتركت لزوجها ابنيها سالماً وعلياً ، فحزن سليم وبكى ، ثم تعزى سليم وسلا ، واتخذ له زوجاً ثانية وثالثة ، وكاد يسلك طريق عمه الشيخ لولا أن الحوادث أدبته فأحسنت تأديبه ، ولولا أنه كان يلقى من زوجيه نكراً أى نكر . ولو استطاع لطلق إحداهما . ولكنه كان يكره الطلاق ، ويشفق على زوجيه أن يصيب إحداهما المكروه إن تحولت عن داره . فكانت عشرته لهما محنة ، ويحتسب ما كان يلقى منهما عند الله ويقول لصديقه وأخيه خالد : كل امرئ يجاهد كما يستطيع : شيخك يجاهد بالحج فى كل عام ، فيكسب منه مالا وثواباً إن أراد الله أن يثيبه على مثل هذا الحج . وأنت تجاهد فى تربية أبنائك وتعليمهم ، تتكلف فى ذلك ما لا تطيق ، وتسلك بهم طريقاً لم تسلكها أنت ؛ لأن أباك لم يدفعك إليها ، ولأنه لم يفكر فى أن يجعلك خيراً منه كما تفكر أنت فى أن يكون بنوك أحسن منك حالا . وأنا أجاهد فى احتمال الشر ولقاء الضر من امرأتى ، تسوءانى فى كل يوم وأسوءهما من حين إلى حين ، وتلقيانى بالنكر من القول والشر من العمل ، فأصبر على ذلك ما وسعنى الصبر ، حتى إذا لم أطق عليه صبراً عمدت إلى العصا فشفيت بها نفسى من جسم هذه أو جسم تلك . وقد يبلغ الغضب بى أقصاه ، فأقرنهما فى حبل واحد ، وما أزال أعمل فيهما السوط أريحه من هذه لأتعبه مع تلك حتى تتوبا وتثوبا وتعتنقا والعذاب ينصب عليهما انصبابا . فإذا رفعت عنهما السوط وأطلقتهما من الحبل لم تهدآ ، إلا ريثما تستأنفان ما كان بينهما من الشر ، فتعود الدار جحيما ، وأذوق أنا فيها العذاب الأليم .

قلت لك : كل امرئ يجاهد كما يستطيع . ولست أشك فى أن حظى

من رضوان الله لن يكون أقل من حظك ؛ لأنى أحتمل مثل ما تحتمل من الألم ، بل أكثر مما تحتمل من الألم ، وأحمل نفسى على مثل ما تحمل نفسك عليه من الجهاد ، بل على أكثر مما تحمل نفسك عليه من الجهاد . وكان خالد يسمع هذا الحديث فيبسم له ، ويظهر إقراره ، ثم يعود به على امرأته فيضحكان من بعضه ضحكاً كثيراً ، وينكران بعضه الآخر إنكار شديداً . والشباب والصبية من أبنائهما يسمعون من ذلك ما يسمعون فيضحكون ويقلدون ، ويعبثون إذا خلوا إلى أنفسهم أو إلى أمهم ، بأبيهم حيناً ، وبعمهم حيناً ، وبجدهم الشيخ حيناً ، وأمهم تسمع فتظهر الغضب وتكتم الرضا ، وربما قصت من ذلك على زوجها أطرافاً فضحك له وارتاح إليه ، وربما استخفى زوجها فى بعض الحجرات ليتسمع على بنيه وهم يعبثون بالأسرة ويقلدون شيوخها وكهولها . يقلدونهم فى اللهجة ، ويقلدونهم فى الصوت ، ويقلدونهم فى حركات الوجه واليدين ، وقد يقلدون فى طرق التفكير أيضاً . وكان الاختلاف بين خالد وسليم قد اشتد وظهرت آثاره واضحة كل الوضوح على مر الأيام وتتابع السنين . فأما خالد فقد أقام فى مدينته تلك بين جماعة من الموظفين يختلفون فى الطبقة والثروة والثقافة والذوق . وكان خالد طموحاً ، ولم تكن امرأته أقل منه طموحاً إلى الرقى ؛ فكان خالد يحرص على أن تكون داره كدار كبار الموظفين ، حسنة النظام ، جميلة التنسيق ، نفيسة الآنية والأداة . وكانت امرأته تعينه على ذلك أحسن معونة ، وتدبر له ذلك أحسن تدبير ، ولم يكن خالد يطمئن حتى يدعو إلى داره كبار الموظفين وأهل الثراء . فإذا رآهم يطعمون وينعمون ، ولا ينكرون من أمر الدار شيئاً امتلأت نفسه غروراً وفخراً ،

وعاد على امرأته بذلك يمنحها أخلص الحب . ويثنى عليها أجمل الثناء .

وأما سليم فأقام فى مدينته الأولى لم يبرحها ، وعلى عمله الأول لم يغيره ، وعلى عاداته القديمة لم يبدل منها شيئاً ؛ فكان كل شىء يتجدد من حوله وهو مقيم على قدمه . يكره التطور وينفر من التجديد ، ولم يكن له حظ من طموح ولا أمل فى رقى . رضى بما قسم الله له ، ورأى أنه أبعد آماده وآخر غاياته ، فاطمأن إلى نهاره وليله ، وإلى ما يلقى فى نهاره وليله من حوادث الحياة ، وشغل بما كان يلقى من زوجته من شر وضر . وكان إذا ضاق بالحياة أو ضاقت الحياة به فى مدينته عمد إلى صديقه وأخيه يزوره ، يقضى عنده الأيام ، وقد يقضى عنده الأسابيع ، يجد فى ذلك السعاده والراحة والرضا ، وتجد الأسرة فى مقامه عندها سعادة وراحة ورضاً أيضاً . فقد كان كثير العبث بأخيه وأبناء أخيه ، يتندر على هذا الترف الذى يتكلفونه ؛ فقد كان يرى كل شىء عندهم تكلفاً ، ويسخر من هذه المكانة التى يرفعون إليها أنفسهم وهم أبناء ذلك الشيخ الذى أنفق حياته فى تجارة انتهت إلى كساد ، وفى صلاح كاد ينتهى إلى فساد . يجلس إلى مائدتهم تلك المرتفعة قد صفت حولها الكراسى ، فلا يملك نفسه أن يغرق فى الضحك ، وأن يذكر خالداً بأيامه تلك القريبة وأيام أبيه حين كانوا يجلسون إلى طعامهم متربعين على الأرض ، يغمسون أيديهم فى صحافهم إلى الأرساغ ، وقد يغمسونها إلى المرافق حين تقدم لهم صحاف الفتّ والكشك فى بيوتهم أو فى أعقاب الذكر . وكانت الأسرة تسمع هذا منه فتضحك له ضحكاً كثيراً ، ربما صرف الصبية والشباب عن طعامهم ، وربما أشرق بعضهم بشرابه . وكانت « منى » تسمع له فتضحك أول الأمر

فإذا أكثر سليم همّت أن تظهر غيظها ، ولكن سليما يضطرها إلى الضحك حين ينتقل من عمه علىّ إلى أبيها الحاج مسعود ، ذلك الذى أتاح الله له تجارة رابحة وصلاحاً متصلا ، ولكنه ما زال يجلس على الأرض إذا أراد أن يطعم ، وما زال أحب الطعام إليه الثريد والكشك يغمس فيه يده إلى مرفقه : فلا تفخرى يا سيدتى ، فلم يلدك الترك ولا أنت بنت المدير . هنالك لا تملك الأسرة نفسها من الضحك والإغراق فيه . وكان سليم أسرعهم إلى الضحك وأبطأهم فى الرجوع إلى الجد ، لا يسخر من الأسرة وحدها ، وإنما يسخر من نفسه قبل أن يسخر من أى إنسان آخر . وكان أشد الأشياء إثارة للغيظ فى نفسه أن يرى الأسرة تعاف الماء الكدر وتحرص على أن تروقه فى الزير وتقطره فى هذه الآنية تضعها تحت الأزيار وتضع فوقها المصفاة . كان يرى ذلك فيغتاظ ويهتاج ، ويلتفت إلى أخيه وإلى أبناء أخيه وهو يصيح فى صوته المرتفع المضحك : آه يا أولاد الكلب ، من أين جاءكم هذا العزّ ؟ إنكم لتحرمون أنفسكم خيراً كثيراً . إنكم حين تشربون هذا الماء المصفى أشبه الناس بالذين يشربون اللبن بعد أن استخرج منه الزبد . ثم أسرع إلى الكوز فيغمسه فى الزير ويعبّ فيه عبًّا شديداً ، ويقول : هكذا رأينا آباءنا يشربون ؛ لأنهم لم يكونوا من الترك ولا من الأرنؤوط .

ولم يكن هذا كل الاختلاف بين الأخوين الصديقين ، وإنما كان بينهما اختلاف آخر أبعد من هذا فى حياتهما وصلاتهما أثراً . فقد كان خالد يحرص على أن يعلم بنيه كما يعلم كبار الموظفين أبناءهم ، لا يكتفى بأن يحفظوا القرآن ويحسنوا شيئاً من الكتابة والحساب ، وإنما يحرص على

أن يرسلهم إلى المدارس ليلووا ألسنتهم بهذه الرطانة الأجنبية ، وليلبسوا هذه الأزياء الأجنبية ، ولتطلق المدارس عليهم هذه الأسماء التركية : فهمى ، وشوقى ، وصبحى ، وليصبحوا إذا شبوا موظفين كباراً . وأما سليم فكان يضيق بذلك أشد الضيق ، ويرى أن أباه لم يرسله إلى المدرسة ، وأن جده لم يرسل أباه إلى المدرسة ، وأنه قد فر ببنيه من المدرسة فراراً ، ويرى أن هذه المدارس لم تنشأ للفلاحين ، وإنما أنشئت لأبناء الذوات ، وأن أبناء الفلاحين إذا ذهبوا إليها فسدت أخلاقهم وتقطعت الصلات بينهم وبين آبائهم وأمهاتهم ، وطمعوا فيما لا يقدرون عليه . وانتهوا إلى فساد لا فساد بعده . وكان يقول لخالد : ألا تنظر لبنيك فى هذه الأزياء الضيقة التى لم تخلق لهم ، فهم إذا اتخذوها أشبه شىء بالعفاريت ! ألا تسمع لهم حين يتراطنون فيما بينهم بما لا تفهم ! ما يدريك ! لعلهم يشتمونك وأنت لا تعى . وكان هو قد أرسل ابنه سالماً إلى حذاء يتعلم عنده صناعة الأحذية ، وأرسل ابنه علياً إلى خياط يتعلم عنده صناعة الأزياء الأوربية . وكان يقول متضاحكاً : قد كبرت يا خالد وكبر أبناؤك ، وأصبحتم لنا سادة وأصبحنا لكم خدماً . سيصنع أبنائى لأبنائك ما يحتاجون إليه من الأحذية والثياب . ولكن احذر أن يدفعك ذلك إلى البطر ، وأن تبخل بجلنار على سالم لأنه حذاء ، وأن تبخل بأولى بناتك من « منى » على على لأنه خياط ، ثم يغرق فى الضحك وتغرق الأسرة فى الضحك معه أيضاً .

وكذلك رثت الأسباب قليلاً قليلاً بين الأسرة وبين المدينة الأولى ، حتى أصبح التزاور بين أفراد الأسرة فى المدينتين طرفة من الطرف ،

تشتد فيها الرغبة أحياناً وتقصر الآمال عن تحقيقها . وكذلك استقلت أسرة خالد قليلاً قليلاً ، حتى أصبحت وكأن لم يكن بينها وبين أصولها فى المدينة الأولى عهد ، وحتى شغلتْ بأمورها وخطوبها عن أمور الآخرين وما يعرض لهم من خطوب .

فلندع هؤلاء الآخرين لحوادث الأيام ونوب الدهر تصنع بهم ما تصنع بالناس جميعاً ، ولنقم مع هذه الأسرة الناشئة التى أخذت تنمو فى سرعة ؛ فقد نجد فى الإقامة معها ما يكفى لإتمام هذا الحديث .

٢٣

لبثت « سميحة » فى دار أبيها عامين لم تاق فيهما إلا خيراً ، ولم تذق فيهما إلا هناءة ، رغد كثير لم تألفه فى عزلتها تلك بين أمها وأختها ونسيم من جهة ، وجدها القاسى الجافى الغليظ من جهة أخرى ، وفى حياتها تلك التى لم تكن ضيقة كل الضيق ولكن لم تكن واسعة كل السعة ، وإنما كانت شيئاً بين ذلك ، فيه الرخاء أحياناً وفيه الشدة والعسر أحياناً أخرى . فى تلك الحياة لم تعرف سميحة حنان الأب ولا حنو الأم . وأنى لها حنان الأب ولم يكن أبوها يراها إلا بين حين وحين ، ولم يكن يراها إلا الوقت القصير يبسم لها ويلقى إليها كلمات حلوة لعلها لم تكن تخلو من تكلف ثم ينصرف عنها وقد ألقى فى يدها نصف القرش أو المليمات ، وأنى لها حنو أمها وقد كانت مريضة أكثر الوقت ، لا تحفل بابنتيها ، وربما نسيت فى بعض الأوقات أن لها ابنتين ! وفى تلك الحياة لم تعرف سميحة فرحاً ولا مرحاً ولا ابتهاجاً . وأنى لها ذلك وقد كانت مقصورة أو كالمقصورة على عشرة أختها جلنار ، وبين أمها البائسة وخادمها السوداء ، لاتكاد تختلط بصبيان الدار من أعمامها وعماتها الصغار ؛ فقد كان يحال بينها وبين ذلك، يرى أبوها أن فى مخالطتها لهم شرًّا عليها ، ويرى جدها أن فى مخالطتها لهم شرًّا عليهم . فأما فى حياتها الجديدة فقد تغير كل شىء : أمها بائسة سقيمة من غير شك ، ولكنها لاتكاد ترى أمها فضلا عن أن تطيل المقام معها . وخادمها السوداء كعهدها تلقاها بابتسامها العابس ،

ولكن فى الدار أشخاصاً آخرين وكائنات أخرى وأشياء أخرى لم تكن تألفها من قبل ، فالدار فسيحة مترامية الأطراف كثيرة الحجرات واسعة الأفنية ، وفيها إخوتها وقد بلغوا الآن خمسة ، ويوشكون بعد قليل أن يبلغوا ستة ، منهم من شبّ حتى لم يكد يبقى بينها وبينه فرق فى السن والقد ، منهم من لا يزال صبيًّا فيه كثير من المرح والفرح ، وفيه كثير من الحركة والنشاط ، ومنهم من لا يزال طفلا يحبو أو يدرج وهو يقدم لإخوته ضروباً من اللذة وفنوناً من المتعة ، يوشك أن يكون لهم لعبة لولا أنهم لا يستطيعون أن يعنفوا به أو يقسوا عليه . وفى الدار عَلتّها التى كانت تدعوها خالتّها ، وهى « منى » ، هذه ذات الوجه الطلق ، والثغر الباسم ، والشباب الغض ، والقلب الذى يفيض رحمة وحناناً . وفى الدار خدم رجال ونساء ، منهم من يَعنى بأمور الدار تنظيفاً وتنظيما وتنسيقاً وإعداداً للطعام والمائدة ، ومنهم من يُعنى بهذه الحيوانات التى كانت تقيم مع أهل الدار فى أماكن خصصت لها والتى كانت تمثل ما ألف فى المدن والقرى من هذه الحيوانات التى تعاشر الناس وتمنحهم خفض الحياة ولينها . ففى الدار البقر والجاموس ، وفيها الحمر والخيل ، وفيها الدواجن ذوات الريش على اختلافها . وقد كان الحاج مسعود قد قضى فيما بينه وبين نفسه ألا يولد لابنته مولود إلا أهدى إليه شيئاً من هذا الحيوان ، فلهذا جاموسة ، ولهذا بقرة ، ولهذا فرساً . وكانت الأسرة تتخذ الدواجن وتستكثر منها ؛ فكانت دار خالد خليطاً غريباً من دور أهل المدن ودور أهل الريف . وكان هذا كله يملأ الدار حياة صاخبة كثيرة الضجيج والعجيج ، كثيرة الحركة والنشاط ، مختلفة أنواع العمل . وكان أبناء

الدار يجلون فى هذا كله اللذة كل اللذة والحياة كل الحياة . ولو تُركوا وما يشاءون لما ذهبوا إلى الكتاب ولا إلى المدرسة ، ولآثروا أن ينفقوا أوقاتهم يشهدون هذه الحركات الكثيرة المتنوعة ، يلوذ بعضهم بالمطبخ حيث يهيأ الطعام وحيث لا يعدم من تُلقى إليه طرفة من طرف هذا الذى تهيئه . ويلوذ بعضهم بقاعة التنّور حيث يهيأ الخبز وتتخذ ألوان الكعك والفطير . ويقف بعضهم عند هذه التى تحلب البقرة أو الجاموسة ، أو عند هذه التى تمخض اللبن ، أو عند هذه التى تدعو الدجاج لتلقى إليهن الحب . ولكن خالداً كان قاسياً على بنيه يأخذهم بالحزم فى أمر الكتاب والمدرسة ولم تكن زوجه أقل منه شدة ولا حزماً ؛ فكانوا يذهبون كارهين إلى كتّابهم ومدرستهم ، ثم يعودون فرحين إلى دارهم . وكانت سميحة وأختها بين هذا كله سعيدتين راضيتين قد أنسيتا ما أحستا من ألم أو وجدتا من شظف فى حياتهما الأولى . وما كان أحرص سميحة على أن تتصل هذه الحياة الناعمة الفرحة ، لولا أن أباها كان بعيد الصوت فى مدينتيه الأولى والثانية ، متهماً بأن له حظّاً من يسار ، متهماً أيضاً بأن حياته حديثة ، فيها كثير من حضارة وترف وتأنق ، ولولا أن سميحة نفسها كانت على حظ من جمال يتحدث الناس به فى المدينتين ، فلم تكد تبلغ الرابعة عشرة حتى خطبها الخاطبون ، ولم تكد تبلغ الخامسة عشرة حتى عادت إلى مدينتها الأولى لتزف فيها إلى زوج له شيء من ثراء ومكانة ، ولكن له بنين وبنات تركتهم له امرأته الأولى . فاستأنفت سميحة حياة ثالثة لسنا فى حاجة إلى أن نعرض لها ولا أن نقص أنباءها ؛ فلم تكن هذه الحياة الثالثة إلا حزناً متصلا وعذاباً مقيما ، أبناء لا يلمون بالحياة إلا ليسرعوا إلى الموت أو

ليسرع إليهم الموت ، وثروة تضخم ويطمع فيها أبناء الضرة ، وزوج تتقدم به السن فيدركه الضعف قليلا قليلا ، ويعظم حظه من الأثرة شيئاً فشيئاً ، ويزداد سخطه على هذه الزوج الجميلة ذات الحسب والنسب ، ولكنها على ذلك ميلاد مفقاد ، كأن بينها وبين الموت عهداً أن تلد له وأن يسرع إلى بنيها فيختطفهم اختطافاً . وقد عرفت سميحة الدموع ولما تتم السابعة عشرة من عمرها ، وقد نيفت سميحة على السبعين ولم يعرف أنها أنفقت يوماً لم تسفح فيه عبرة ولم تذرف فيه دمعاً ، إنما كانت حياتها بكاء متصلا : بكاء يأتى من الثكل ، وبكاء يأتى من قسوة الزوج ، وبكاء يأتى من كيد أبناء الضرة ، وبكاء يأتى من فقد الزوج آخر الأمر ، وبكاء يأتى بعد هذا كله من سيرة من سلم لها من البنين والبنات ومما كان يختلف على حياتهم من ظروف وخطوب .

فأما جلنار فقد ظلت الفتاة الوحيدة فى هذه الأسرة بين إخوتها الشباب والصبية والأطفال ، وبين أمها السقيمة ، وعلتها الكريمة ، وأبيها الرحيم . وكانت تجد فى حياتها النعمة كل النعمة ، ولكنها لم تكن تجد فى حياتها الرضا كل الرضا ؛ فقد كانت تعرف قبح وجهها وترى دمامة صورتها ، فتكره ذلك وتضيق به ، ولم يكن الشباب من إخوتها يتحرجون من التندر عليها والسخرية منها ، يجدون بذلك حيناً ويمزحون أحياناً ، ويؤذونها به على كل حال . وقد كانت فتاة الأسرة ، وكان فيها جلد وقوة ونشاط وحب للعمل وسبق إليه ؛ فما أسرع ما ألفت الأسرة منها ذلك ورأته لها طبيعة ، ثم رأته عليها حقًّا ، ثم رأت تقصيرها فيه ذنباً ، فاندفعت الفتاة إلى العمل ثم دفعت إليه . وأي بأس فى ذلك وقد كان عملا كريماً

شريفاً ! . وأى حرج فى أن تعنى الفتاة بإخوتها الصغار تحملهم وتنشئهم وتعللهم ، وقد شغلت أمهم عنهم بأمور البيت وبمن كان يولد لها من البنين كل عامين أو فى أقل من عامين ! فهؤلاء الصبية إخوتها ، وهى أرأف بهم وأعطف عليهم من الخدم . وأى حرج فى أن تعمل الفتاة مع العاملات فى إعداد الطعام وتهيئة الخبز وغسل الثياب ؛ ففى ذلك كله تعليم لها أي تعليم ، وهو يعدها أحسن إعداد لتكون ربة البيت يوم يصبح لها بيت . وإذا لم تكن الفتاة جميلة رائعة الجمال ولا حسنة بارعة الحسن ، فلا أقل من أن تكون صناعاً تحسن الإشراف على أمور البيت والنهوض بأعبائه المختلفة. فليس من المحقق أنها ستجد لنفسها داراً كدار أبيها ، فيها الرخاء والثروة ، وفيها الخدم من الرجال والنساء . ومن الممكن بل من المرجح أنّ بيتها سيكون متواضعاً متضائلا مقترًا عليه فى النفقة ، فسترفّ يوماً ما إلى سالم . وهل سالم إلا حذاء يعيش من عمل يده وعرق جبينه ؟ ! فيجب أن تكون زوجه ماهرة فى تدبير أمرها ، والعناية ببيتها ، والقيام على تربية من سيتاح لها من الولد . وقد أُلقِى فى رُوع الفتاة قبل أن تجاوز الصبا وتبلغ الشباب أنها خطبُ سالم الآن وزوجه غداً ، قد اتفق على ذلك الأبوان خالد وسليم ، واتفقت على ذلك نفيسة وزبيدة ، وألحت زبيدة فى ذلك أثناء مرضها الذى ماتت فيه ؛ فليس عنه منصرف وليس إلى تبديله من سبيل . ومن أين يأتى التبديل وقد أصبح هذا أمراً مقرراً تراه الأسرتان كما تريان مقدم النهار ومقدم الليل ! فكانت الفتاة تتحدّث إلى نفسها بهذه الخطبة الواقعة وبهذا الزواج المنتظر . وكانت تفكر كثيراً فى هذا الشاب الفتىّ القوى الجميل

المرح ؛ الذى يحسن الدعابة ويؤثر المزاح على كل شىء ، والذى كان ينتهز كل فرصة ليزور عمه وأبناء عمه فى مدينتهم هذه ، فيطيل الزيارة ، ويقيم بينهم فيطيل المقام ، وربما أسرف فى ذلك حتى يدعوه أبوه بالكتاب يتبع الكتاب ، وفيه اللوم والتأنيب ، وفيه التوبيخ والتقريع . وكانت الفتاة البائسة مستيقنة فيما بينها وبين نفسها بأنها الغرض من هذه الزيارات الكثيرة ومن هذه الإقامة المتصلة ؛ فقد كانت تحب الفتى حبًّا شديداً وتؤثره على كل إنسان وعلى كل شىء . لم تكن تتحدث بذلك ؛ فحياء الفتيات وآداب الريف تمنع من مثل هذا الحديث ، ولكنها كانت تديره فى رأسها مصبحة ممسية ، وتستحضره فى قلبها أثناء يقظة النهار ونوم الليل . وكان ذلك يعينها على عملها المتصل المرهق الذى جعل يزداد اتصالا وإرهاقاً كلما تعقدت أمور الدار . وكانت أمور الدار تتعقد فى سرعة مدهشة ؛ فقد كثر الأبناء وكثرت حاجاتهم ، وعظم أمر الأسرة وكثر الزائرون لها والملمون بها من الضيف . وجعلت « منى » تخفف شيئاً فشيئاً من أثقال أعبائها على الفتاة . والفتاة ماضية فى العمل جادة فيه مخلصة له ، تستعين عليه بهذا الحب الدفين ، وبهذه الآمال العراض التى كانت تزين لها كل شىء فى الحياة إلا وجهها وخلقها ؛ فلم يكن إلى تزيينهما سبيل .

وكان حب الفتاة على شدة كتمانها إياه وحفظها له يظهر فجاءة إذا ذكر اسم سالم أو حضر شخص سالم على غير انتظار . هنالك تبرق عيناها ، ويضطرب على وجهها المظلم الجهم نور ضئيل لا يلبث أن ينمحى كأنه هذه الأضواء الطارئة الضئيلة التى تنبسط على قطعة من ظلمة

الليل لحظة ثم تزول كأنها لم تكن . وكان هذا الحب الكمين يظهر ملحوظاً حين يقيم سالم فى الأسرة قليلا أو كثيراً ؛ فقد كانت الفتاة تلحظه لحظات مختلسة لها معناها ، وكانت تتجنب الحديث إليه ، وتتجنب أن تدعو حديثه إليها ، ولكنها كانت تلتهم حديثه إلى غيرها من إخوتها التهاماً ، تتسمع عليه إذا تحدث إلى رفاقه من بعيد ، ثم كانت تؤثره بكثير من الطيبات . وكان لها إلى ذلك مسالك تملأ القلوب رحمة وحناناً ؛ فلم تكن تختصه بشىء دون غيره من إخوتها ، وإنما كان عطفها على إخوتها وإيثارها إياهم بطيبات المطبخ والتنور ، ودعوتها إياهم إلى ما يلهى ويسر ، كان هذا كله أكثر حين يزور سالم الأسرة ويقيم فيها . وكانت الأسرة تلحظ ذلك كله فتمازح به وتداعب الفتاة فيه . وكانت الفتاة تسمع المزاح والدعابة فلا تجيب إلا برفع الكتفين وضحك فيه استهزاء بما يقال ، واعتراف فى الوقت نفسه بأنه صحيح .

ولم تلق جلنار من خالتها شيئاً يسوءها فى السر أو فى الجهر ، وإنما مضت أمورها على ما تحب وعلى ما تحب الأسرة . ولم تكن الفتاة تعنى بأمها عناية كثيرة ولا تلتفت إليها التفاتاً خاصاً ، بل ربما شاركت إخوتها فى مداعبة هذا الشبح الذى لم يكن يعقل كثيراً مما يقال له أو يجرى حوله ؛ فإذا عقل شيئاً وهمّ أن يتكلم فيه نطق بما يملأ الدار ضحكاً ، وضحك الشبح نفسه مع الضاحكين . فقد ألفت نفيسة أن تعيش على هامش الأسرة لاتشارك فى جدها وهزلها إلا أيسر المشاركة ؛ فإن دخلت فى شىء من أمر الأسرة أخطأت موضع العمل أو موضع القول ، فأضحكت منها وضحكت من نفسها ، وعادت إلى عزلتها

هادئة مطمئنة ، لا يعرف أساخطة هى أم راضية ؛ وأكبر الظن أنها لم تكن ساخطة ولا راضية ، وإنما كانت تحيا حياة سلبية من كل وجه . تعيش نهارها لا تعمل شيئاً ولا تقول شيئاً ، إنما تدخن ، وتشرب القهوة . وتنظر إلى ما فى الدار من حركة ، وتسمع إلى ما يدور حولها من حديث ، تعقل من ذلك أقله وتغفل عن أكثره ، وتأوى مع الليل إلى مضجعها لا يدرى أحد أتنام فيه أم لا تنام ، ولكنها كانت تأوى إليه فى ساعة معينة ، وتثب منه فى ساعة معينة . فأما ما يكون بين هاتين الساعتين فعلمه عند الله . وأكبر الظن أن نفيسة لم تكن تعلم منه إلا قليلا . وقد كانت الأنباء تأتى بأن سميحة ابنتها رُزقت غلاماً أو صبية ، وبأن سميحة ابنتها فقدت هذا الصبى من بنيها أو هذه الصبية من بناتها ، وكان هذا كله يقال أمامها فتسمع وكأنها لا تسمع ، ثم لا يظهر عليها فرح ولا حزن ، إنما هى الحياة الآلية التى لا تترك لصاحبها إرادة ولا تفكيراً . إنما كانت « منى » هى التى تفرح وتحزن لما يصيب سميحة من خير أو شر ، وهى التى تسافر لتجامل سميحة أو تواسيها ، وربما عادت بسميحة إلى دار الأسرة لتجد فيها عزاء عما أصابها من خطب ، أو سلواً عما نزل بها من هم . فإذا دخلت « سميحة » على أمها تلقتها هذه باسمة وقبلتها واجمة ، ثم لم تزد على هذا الوجوم الباسم شيئاً .

٢٤

على أن الأمور قد أخذت تتغير قليلا قليلا فى الأسرة ، وبدأ التغير فى قلب « منى » ذات يوم أو ذات عام ؛ فهذه أشياء لا يمكن أن تؤرخ باليوم ولا بالشهر . فقد كانت « منى » تنتظر المولود السابع ، وتتمنى أن يكون هذا المولود طفلة ، تتحدث بذلك إلى زوجها فيرفع كتفيه ويهز رأسه ، لأنه لم يكن يحفل بأن تولد لها صبية أو يولد له صبى . ولعله كان يؤثر فى أعماق نفسه أن يكون ولده جميعاً ذكوراً . وكانت « منى » تضيق بذلك ، وربما اشتدت على زوجها فى اللوم حين ترى منه هذا الإعراض عن البنات أو قلة الاكتراث للبنات . وربما قالت له : وما يعنيك من ذلك ولك ابنتان سميحة وجلنار ؛ فأنت رجل مجدود وقد رُزقت البنات والبنين جميعاً ، فما عليك أن أحرمَ أنا هذه النعمة ! وكان خالد يضحك لهذا الحديث ، ولكن « منى » كانت تغتاظ لهذا الضحك ، وكانت تقول : إن الصبى لا يكاد يدرج حتى يرسل إلى الكتاب ثم إلى المدرسة ثم يسعى فى حياته ؛ فأمه تحرم لذة الاتصال الدائم به قبل أن يتجاوز السادسة من عمره ، ينصرف عنها إلى درسه ولعبه ، ثم إلى عمله وامرأته وبنيه إذا تزوج . فأما الصبية فإنها لا تبرح البيت إلى كتاب أو مدرسة أو عمل ، فهى معاشرة لأمها دائماً ، هى متعتها صبيةً وصديقتها شابة ، وأختها إذا تقدمت بها السن حتى لو تزوجت . وكان خالد يسخر منها فيقول : نعم ! أخت لأمها حتى لو تزوجت ، كما أنك الآن أخت

لأملك بعد أن تزوجت ورزقت البنين ! . فتجيبه « منى » ثائرة : وهل شغلني عن أمي إلا أنت وبنوك ، فيقول خالد وهو يضحك : فستشغلُ ابنتك عنك بزوجها وبنيها كما تشغلين أنت الآن عن أملك . ولكن الله حقق لمنى رجاءها واستجاب دعاءها فرزقها صبية ، ثم تتابع البنات فى الدار حتى بلغن أربعاً ، نشأتهن جميعاً جلنار . ومنذ أصبح لمنى بنات ومنذ أخذ بناتها يسرعن إلى النمو أخذت نظرتها إلى جلنار تتحول قليلا قليلا ، وكأن ما أودع الله قلبها من الحنان للبنات لم يكن يسع إلا بناتها هى ، فجعلت نظرتها إلى الفتاة تقسو ، وجعل صوتها إذا تحدثت إلى الفتاة يجفو ، وجعلت معاملتها للفتاة تغلظ من يوم إلى يوم . والفتاة غافلة عن ذلك أول الأمر ، ثم محتملة له بعد ذلك ، ثم ضيقة به وصابرة عليه آخر الأمر . وسالم يزور المدينة ويعود منها لا يتحدث فى الزواج ولا يشير إليه . وسليم يزور المدينة ويعود منها لا يتحدث فى الزواج ولا يشير إليه . وقد كانت « منى » نفسها تتحدث فى أمر هذا الزواج قديماً فقد أصبحت الآن لا تتحدث فيه ولا تشير إليه ، إنما يلمح به الفتيان من شباب الأسرة تلميحاً قليلا ضئيلا لا يلبثون أن يكفوا عنه ويخوضوا فى غيره من الجد والمزاح . ثم تنسى الخطبة نسياناً تاماً ، ولا يعرض أحد لهذا الزواج بلفظ أو إشارة . والفتاة ترى وتفكر ، وتألم ، وتصبر ، وتنظر إلى وجهها فى المرآة ثم تعكف على نفسها فى صمت حزين . ولعلها أن تخلو إلى نفسها إن وجدت للخلوة وقتاً ، فتعدد وتبكى كما تعدد النساء ويبكين ، حتى إذا أحست نبأة أسرعت إلى بكائها فالتهمته التهاماً ، وإلى دموعها فشربتها حتى تشرق بها ، ووثبت مقبلة على بعض العمل كأنها لم تكن فى بكاء

ولا تعديد . وبمقدار ما كانت سيرة « منى » تتغير مع جلنار كان عطف جلنار على أمها يشتد ويزداد ؛ فقد أخذت تعنى بها عناية خاصة فى اللفظ واللحظ والإشارة والمعاملة . وكانت فى الفتاة جفوة هى خير مظهر من مظاهر الحب والحنان ؛ فكانت إذا جفت على إنسان فى قول أو عمل دل ذلك على أنها تؤثره بالود الخالص والحب العميق . وقد أخذ حظ أمها يزداد من صوتها الغليظ وألفاظها الجافية ونظراتها الحادة وحركاتها العنيفة ؛ فكانت تقدم إليها القهوة إذا أصبحت وكأنما تنهرها نهراً شديداً ، وكانت تتحدث إلى أمها فى صوتها المرتفع الحاد . فإذا ظلت أمها ذاهلة كعهدها اندفعت إليها عنيفة بها فهزتها هزاً شديداً ، وهى تقول : إنى أكلمك ألا تسمعين ؛ وإذا سمعت فهلا تجيبين ؛ وربما اختطفت من أمها أثناء هذا العنف قبلة سريعة خفيفة لا تكاد تلحظ . وقد صبرت نفيسة على هذا العنف ، لم تحسه أول الأمر ولم تلتفت إليه ، ولكنه اتصل واتصل ، وتكرر أثناء النهار ، وتكرر فى أول الليل . وأخذت الأسرة تلاحظ أن فى نفس الفتاة شيئاً أو أنها تريد من أمها شيئاً . ولكن قلوب الشباب قاسيات وقلوب الأمهات أشد قسوة إذا شغلن بولدهن ؛ فلم يحفل أحد من الأسرة بهذا العنف الذى كانت تهديه الفتاة إلى أمها . وما يعنيهم من ذلك ؟ ؛ فتاة حمقاء ، وأم مجنونة . فليفرغ الشباب لأمرهم ، ولتفرغ الأم لبنيها ولبناتها خاصة .

وفى ذات يوم أقبلت الفتاة ضجرة إلى أمها تتحدث إليها عنيفة بها فى الحديث . فلما أبطأت الأم فى الجواب هجمت الفتاة عليها كأنها الغول تريد أن تلتهم فريستها . فارتاعت الأم شيئاً ، وهبت من مجلسها مذعورة .

وأسرعت إليها الفتاة وأخذتها بين ذراعيها دون أن تجد منها امتناعاً أو إباء . وتنظر « منى » ومن حولها من بنيها ومن نساء الدار فإذا المرأتان قد اعتنقتا ، وإذا دموع غزار تمتزج وتجرى على وجهين قبيحين ملتصقين . فأما الشباب فيوشكون أن يضحكوا لولا بقية من حياء وخوف من أمهم . وأما « منى » فلا تملك دموعها أن تنهل ، وإذا هى تبكى صامتة ، ثم تنهض متثاقلة وتسعى بطيئة حتى تبلغ هاتين المرأتين ، فتضع على رأس كل واحدة منهما قبلة مبللة بالدموع . ومنذ ذلك اليوم عاد إلى نفيسة شىء من رشدها ، فعرفت أنها أم ، وأن لها ابنة بجوارها تدعى جلنار ، وابنة أخرى بعيدة عنها تدعى سميحة . عاد إليها شىء من رشدها ، ففارقها الذهول ، ولكن لم يفارقها بؤس النفس هذا الذى يضطر صاحبه إلى الإذعان ، ويلجئه إلى زاوية ضئيلة من زوايا الحياة يلزمها ولا يبرحها ، يرى أنها خلقت له وأنه خلق لها ، وأن القضاء قد جعلها له قبراً حياً حتى يأتى اليوم الذى ينقل فيه من هذا القبر الذى يدفن فيه الأحياء إلى ذلك القبر الذى يدفن فيه الموتى .

أفاقت نفيسة من ذهولها وعرفت بعض أمرها ، ولكنها ظلت ضئيلة ذليلة ،، تتحرك فكأنها الشبح ، وتتكلم فكأنها الصدى ، ولكن أى شبح وأى صدى ! شبح هو الحزن بعينه ، وصدى هو إلى الغناء النادب أقرب منه إلى الصوت المألوف . ولكن منذ ذلك الوقت عاد إلى جلنار شىء من ثقة وحظ من أمل ، لا لأنها انتظرت أن تزف إلى سالم ، فقد جعلت تيأس من هذا الزواج يأساً يزداد من يوم إلى يوم ، ولا لأنها كانت تستطيع أن تلجأ إلى أمها فتبثها ما تجد من حزن ، ولكن لأنها كانت تنتظر

إلى أمها فلا تقابل نظرتها تلك النظرات الغافلة الذاهلة الشاردة ، وإنما كانت تقابل نظرات تفهم عنها ، وتتحدث إلى قلبها حديثاً تفهمه دون أن يدور لسانها فى فمها بالكلام القليل أو الكثير ، وكان هذا الحظ الضئيل من الحب الصامت يغنى هذه الفتاة وينقع ظمأها إلى الحنان ، بعد أن فقدت حنان خالتها وكادت تفقد حنان إخوتها الذين جعلت قلوبهم تقسو ، وأكبادهم تغلظ ، ونفوسهم تجفو ، وذاكرتهم تنسى ما قدمت إليهم أختهم من معروف .

ولم تكن جلنار فى حاجة إلى أن تبحث عن العلة التى أجلت زفافها إلى سالم ثم ألغت أمر الزواج إلغاء ؛ فقد كان يكفى أن ترى وجه أمها وأن تنظر إلى وجهها فى المرآة فيغنيها ذلك عن كل سؤال .

والواقع أن أمر سالم لم يكن يسيراً ولا سمحاً ، وإنما كان عسيراً لا يخلو من تعقيد . لقد نشأ هذا الفتى ساخطاً أشد السخط ، يرى أنه تعس سيء الحظ ، لم يكد يخرج من صباه حتى فقد أمه وحتى ذاق مرارة اليتم وعرف قسوة العلات . ثم لم يكد يعقل حتى رأى نفسه يختلف إلى حذاء يعمل عنده فى صناعة الأحذية ، وكان يرى أبناء عمه يختلفون إلى الكتاب ثم إلى المدارس يتخذون هذه الأزياء التى لا تخلو من ظرف ، وعليهم هذه الشارة التى لا تخلو من جمال ، وفيهم شىء من أنفة وكبرياء يغريهم بهما ما كانوا يحسون فى أنفسهم من امتياز . فأنكر الفتى نفسه فى منزله بين هاتين العلتين ، وأنكر نفسه عند معلمه ذلك الحذاء ، صانعاً للأحذية ممارساً أقدام الرجال ، وأقسم فيما بينه وبين نفسه ليهجرن دار أبيه متى استطاع ، وليهجرن عمل الحذاء متى وجد إلى ذلك سبيلا .

وكان أخوه عليّ يشاركه فى هذا كله : يشاركه فى الضيق بحياة البيت ، وفى الضيق بهذه الصناعة التى يكرهه عليها أبوه إكراهاً . وكان الفتيان بعد ذلك يختلفان اختلافاً شديداً : فلسالم حظ حسن من ذكاء ، ولعلى حظ عظيم من الغباء والغفلة . ومهما يكن من شىء فقد اتفق الشابان على هذا السخط ، واشتركا فى هذا الضيق ، ورأى كل واحد منهما نفسه بائساً مضطهداً ، واجتهد كل واحد منهما فى أن يلتمس لنفسه مخرجاً من هذا البؤس وهذا الاضطهاد . فأما سالم فقد أحسن صناعته ثم انصرف عنها . ولما همّ أبوه أن يلومه فى ذلك أجابه الفتى فى حزم قائلا : إنك إنما علمتنى هذه الصناعة لأعيش وأكفيك مؤونتى ، فسأعيش وسأكفيك مؤونتى . ثم أخذ يضطرب فى حياته كما يضطرب الشاب الذكى الذى يحسن القراءة والكتابة ولم يُحرم يداً صناعاً وعقلا يحسن التصرف فى الأمور ، فجعل يتنقل من عمل إلى عمل يكسب القليل مرة والكثير مرة أخرى ، ويدفع إلى أبيه الجنيه أو الجنيهات من حين إلى حين . وقد اطرح زى أترابه ، واتخذ زىّ بنى عمه ، فأصبح أفندياً مطربشاً . ولكنه كان يشعر دائماً بالنقص إذا لقى بنى عمه ، لأنه لا يرطن كما يرطنون ، ولا يسعى إلى الشهادات كما يسعون إليها . وكان يشعر فى الوقت نفسه بالتفوق على بنى عمه لأن يده لم تصفر من المال قطّ ، فكان فى جيبه من الذهب والفضة ما لم يكن فى جيوبهم . وكان على ذلك خرّاجاً ولاّجاً لا يضيق بشىء ولا يعييه شىء ، ولا يعرض له حرج إلا خرج منه ، ولا تلم به مشكلة إلا انسل منها كما تنسل الشعرة من العجين . وكان بعد هذا كله طلق الوجه ، باسم الثغر ، فصيح اللسان ،

عذب الدعابة ، منشرح الصدر ، لا يعرف الهم إلى قلبه سبيلا. وما دام قد اجترأ على أبيه مرة فترك صناعة الأحذية واستقل بأمره ، فما يمنعه أن يخرج على أبيه مرة أخرى ؟! وقد فعل ؛ فقال لأبيه ذات يوم لا أسمعك تحدثنى عن جلنار ، فإنى لم أخطبها ولم يخطر لى قط أن أتخذها لى زوجاً . قال سليم : ولكنى قد خطبتها لك . قال الفتى : فإنى لم أفوّضك فى ذلك . قال سليم : وقد خطبتها أمك لك . قال الفتى : ولم أفوضها كما أنى لم أفوضك . قال سليم : ولكن أمك قد ألحت على فى هذا الزواج قبل أن تموت . قال الفتى : ألحت عليك أنت ولم تلح علىّ أنا . قال سليم وقد استيأس من ابنه : أنت وما تشاء ! ولكن لا تجهر بذلك حتى أفضى به إلى عمك ، وسأجد فى ذلك جهداً وألماً . قال الفتى : لن أجهر بذلك ولن أسره ؛ لأنى لا أحفل به . ولا حاجة إلى أن تفضى به إلى عمى ، فإنى لن أتزوج من جلنار ولا من غيرها . ثم انطلق الفتى وترك أباه متردداً بين السخط والرضا . وأكبر الظن أنه ارتاح إلى خطة ابنه ، فلم يكن يحفل بأن يقضى على ابنه بهذه الفتاة الدميمة ، فيكون حظه كحظ عمه خالد حين تزوج أمها نفيسة .

وأما على فلم يقل لأبيه شيئاً ، ولم يترك صناعة الخياط التى اضطر إليها ، ولم يتصرف فى أمره كما تصرف أخوه ، وإنما كان يذهب إلى معلمه وجه النهار فلا يصنع عنده شيئاً . فلما آنس المعلم منه غفلة وكسلا سخره فى قضاء الحاجات البعيدة ولم يعلمه شيئاً . وكان الفتى إذا أقبل المساء تنقل بين المساجد وحلقات الذكر ، يصلى هنا ويذكر هناك ، وهو لا يذوق من الذكر ولا من الصلاة شيئاً . وكان يلم بدار أبيه فيصيب

فيها شيئاً من طعام ثم ينصرف إلى حياته الفارغة خارج الدار . فإذا تقدم الليل أقبل فاستلقى على فراشه حتى يصبح فيستأنف حياة البطالة والفراغ . كان كلاًّ على أبيه ، كلاًّ على أخيه ، ضحكةً لبني عمه إذا زارهم ، ولم يكن يزورهم إلا قليلا . وكان فرحاً دائماً لا يأسى على شيء ، ولا يفكر في شيء ، ولا يستطيع أحد أن يؤذيه بقول أو فعل ؛ لأن الأشياء كانت تنزلق على نفسه الملساء دون أن تترك فيها أثراً حسناً أو سيئاً .
وكان سليم محبًّا لابنيه ضيقاً بهما في وقت واحد ؛ ولكنه كان يؤثر سالماً ؛ لأنه أكبر أبنائه ، ولأنه كان كثير النشاط حسن الشارة ، يعود عليه بالدينار أو الدينارين من حين إلى حين ، فيفرج أزْمة أو يعين على حق . ومع ذلك فقد كان يحنو على عليّ حنوًّا شديداً ، يرى فيه فتى ضعيفاً ضيق الحيلة ، ويرى في الرفق به والعطف عليه والشقاء ببطالته ، هذه لوناً من الجهاد كهذا الجهاد الذي كان يحتمل مشقته بين امرأتيه .
وكان مع ذلك مشغولا عن هذين الشابين بعمله وأهله وببنين وبنات ولدوا له ، فمضى في تربيتهم كما مضى في تربية سالم وعليّ ، أسلمهم إلى الصناع . وكان يقول لصديقه وأخيه خالد : ماذا تريد ؟ لا ينبغي أن نغالب القدر ولا أن نعاند القضاء ، ولا أن نكون جميعاً سادة ممتازين . يجب أن يكون أبنائي هملا كأبناء أبيك ، وأن تمتاز أنت ويمتاز أبناؤك ؛ فحسبُ الأسرة أن يمتاز فرع من فروعها . ولكن صدقني ، إني أراك أحمق مغفلا ، تنفق مالك الكثير دون أن تدخر منه شيئاً . أليس غريباً أنك لا تملك داراً تقيم فيها ! فدارك هذه ملك للحكومة ، وستخرج منها يوماً من الأيام . وما أظن أنك ستأوي بأهلك وبنيك وبناتك إلى

دار أبيك الخربة المهدمة . فأطعنى وأرسل إلىّ جنيهاً فى كل شهر أدخره لك ، حتى إذا اجتمعت لى عشرون أو ثلاثون جنيهاً اشتريت لك قطعة من الأرض ، واتخذت لك فيها داراً . أطعنى وأرسل إلىّ جنيهاً فى كل شهر ، وأحتجز أنا جنيهاً فى كل شهر أيضاً ، ونشترى قطعة واسعة من الأرض نقيم عليها دارين متجاورين ، إحداهما لك والأخرى لى . فسيتفرق أبناؤك فيما ينتظر لهم من عمل ، وسيتفرق أبنائى أيضاً ، وسيعود كل منا إلى صاحبه فى الشيخوخة كما كان كل واحد منا لصاحبه فى الشباب . كان يتحدث إليه فى ذلك ملحاً دائماً ، يجد حيناً ويمزح حيناً . وكان يتحدث إليه فى أمور كثيرة إلا شيئاً واحداً لم يستطع أن يتحدث فيه لا مصرحاً ولا ملمحاً ، وهو هذه الخطبة التى بعد بها العهد ، وهذا الزواج الذى كثر تأجله ، وهذه الفتاة التى طال انتظارها ولم يخطبها أحد ؛ لأن الناس قد تسامعوا بأنها خطبٌ لابن عمها منذ الصبا . لم يكن يجرؤ على أن يعرض لهذا الحديث فقد كان يعلم علم ابنه . ولم يكن خالد يجرؤ على أن يعرض لهذا الحديث فقد كان الحياء يمنعه من ذلك . وكان سالم يمرح بين المدينتين ، وربما أتيح له السفر إلى القاهرة ، فكان مرحه فيها أكثر تنوعاً وأبعد مدى . وكانت الفتاة تعمل وتعمل وتشقى بالعمل ، لا يدرى أحد أتفكر فى خطبها أم لا تفكر ، أتشقى بهذا التفكير أم لا تشقى . ولكن المحقق أنها كانت شقية بقسوة خالتها التى كانت تزداد كلما تقدم بناتها نحو الشباب .

٢٥

ومن الحماقة الحمقاء والجهالة الجهلاء أن يحاول محاول إحصاء الأيام والليالى وهى تتابع ويقفو بعضها أثر بعض ، لا يدرى أحد متى ابتدأت ، ولا يعلم أحد متى تنتهى . وأشد من ذلك حمقاً وأعظم من ذلك جهلا أن يحاول محاول إحصاء الحوادث التى تقع فى هذه الأيام المتتابعة والليالى المتناصية ؛ فليس إلى إحصاء هذه الحوادث من سبيل حين تحدث لفرد واحد ، فكيف بها حين تحدث لأسرة كبيرة أو صغيرة ؛ وكيف بها حين تحدث لمدينة من المدن أو إقليم من الأقاليم أو جيل من أجيال الناس ! فهى متنوعة كثيرة التنوع ، مختلفة عظيمة الاختلاف ، يعظ بعضها ويجل خطره حتى يصبح له فى حياة الفرد والجماعة أبعد الأثر . ويهون بعضها ويدق شأنه حتى لا يحفل به حافل ولا يلتفت إليه ملتفت ، وهو مع ذلك خيط مهما يكن دقيقاً هين الشأن فله مكانه ذو الخطر فى هذا النسيج الذى ينسجه مر الأيام وكر الليالى والذى نسميه الحياة . وقد فطن لذلك الذين يكتبون التاريخ ويسجلون الأخبار ، والذين يقصون القصص ويتحدثون بأنباء الماضى ، فقال قائلوهم : عاش ما شاء الله أن يعيش ، وأقام ما أتاح الله له أن يقيم . وقال قائلوهم : مرى يا أيام وكرى يا ليالى ، فما أسرع ما يكبر أبناء الأحاديث ! . وليس لهذا كله إلا معنى واحد ، وهو أن محاولة إحصاء الأيام والليالى عبث ، ومحاولة إحصاء ما يقع فيها من الحوادث والخطوب سخف ، فالخير أن نطوى من

ذلك كله ما يجب أن يطوى ، وألا نقف من ذلك كله إلا عند ما يستحق أن نقف عنده ونفكر فيه . ونحن مع ذلك لا نحسن تمييز اليوم ذى الخطر من اليوم الذى لا خطر فيه ، ولا التفريق بين الحادثة ذات الأثر البعيد والحادثة التى ليس لها أثر قريب أو بعيد ، وإنما نحن نقدر الأيام والحوادث كما نستطيع وكما يصور لنا العقل والخيال . فأما تقديرها كما ينبغي أن تقدر ، وتصويرها كما يجب أن تصور ، فذلك شيء أكاد أعتقد أنه أبعد منالا من أن يبلغه طمع الطامعين وطموح الطامحين . والشيء الذى أستطيع أن أقرره وأنا صادق عند نفسى سواء أصدقنى القارئ أم لم يصدقنى ، هو أنى تتبعت حياة هذه الأسرة من قرب وفى كثير من العناية والدقة ، فرأيت كثيراً من الأحداث التى عرضت لها والخطوب التى ألمت بها خليقاً أن تكتب فيه القصص وتنشأ فيه الكتب وتؤلف فيه الأسفار الطوال . وأكبر الظن أن هذا ليس مقصوراً على هذه الأسرة ، وإنما هو شأن كثير من الأسر المصرية فى هذا العصر الخطير من حياة مصر ، حين أخذ القرن الماضى ينتهى وأخذ القرن الحاضر يبتدئ ، وأخذت الحياة المصرية تنقل من طورها القديم إلى طورها الجديد فى عنف هنا وفى رفق هناك ، فى هذا الطور من أطوار الحياة المصرية اختلفت على أسر المدن والأقاليم خطوب ، لم يكد يحفل بها أحد ، ولا يلتفت إليها إنسان ، وهى مع ذلك قد خلقت مصر خلقاً جديداً وبدلتها من خمولها القديم نباهة ، ومن جمودها القديم نشاطاً . وما من شك فى أن الذى أقصه من أنباء هذه الأسرة — أسرة خالد — يمكن أن يقص مثله من أنباء أسر أخرى كانت تتصل بها بصلة الجوار أو صلة المشاركة فى العمل وفيما كان

العمل يترك فى حياتها من آثار . وأنا مع ذلك أقص من أنباء هذه الأسرة ولا أقلها وأيسرها ؛ فقد أكثر أبناؤها وبناتها ، واختلفت بهم وبهن نوب الأيام ، وذهب كل واحد منهم مذهبه فى الحياة ، كما دفعت كل واحدة منهن إلى طريقها التى رسمت لها من قبل ؛ لم ترسمها لنفسها ولم يرسمها لها أبوها ، وإنما رسمها لها القضاء الذى ليس للإنسان عليه سلطان .
وحسبى أن أسجل أن الأعوام لم تكد تتقدم بهذه الأسرة فى موطنها الجديد حتى كان أبناؤها قد شبوا واستنفدوا ما كا يمكن أن تمنحه الأقاليم لشبابها من العلم والمعرفة فى ذلك الوقت . فلم يكن بد من أن يرحلوا إلى القاهرة حيث يطلب العلم ويلتمس الرقى ، وقد فعلوا . وهذه كلمة يسيرة تقال فى لحظة قصيرة ، وتكتب فى حيز ضيق جداً من الورق ، ولكن التفكير فيها ينحل إلى آلام لا تحصى ، ومتاعب لا تعد ، وجهود لا يكاد يتصورها العقل ، وعواطف منها ما يسر ويرضى ، ومنها ما يسوء ويؤذى .
فلم يكن انتقال الأبناء من الأقاليم البعيدة إلى القاهرة فى آخر القرن الماضى وأول هذا القرن من السهولة واليسر كما هو فى هذه الأيام ، وإنما كان شيئاً عسيراً كل العسر ، معقداً أعظم التعقيد . كان يحتاج إلى كثير من النفقات لم يكن راتب خالد يستطيع أن ينهض به . وكان يحتاج إلى كثير من الجهد فى إسكان هؤلاء الشباب فى المنازل التى تلائمهم ، وتمكنهم من العيش الذى يستطيعون أن يطمئنوا إليه ، وحمايتهم من الخطر الذى يمكن أن يتعرضوا له فى هذه الدنيا التى كان أهل الأقاليم يرونها عالماً غريباً مملوءاً بما يعرض الشباب لأعظم الأخطار وأشدها نكراً . وكان هذا كله يشغل نهار خالد وامرأته ، ويؤرق ليل خالد وامرأته ، ويصرفهما عن كل شىء ، ويملأ

رءوسهما بالخواطر المقلقة ، وقلوبهما بالعواطف المزعجة . وكان سليم يرثى لهما ويشمت بهما ، لايخفى شماتته ولا يبخل برثائه . كان يحبهما ويعطف عليهما ، فكان يؤذيه ما يجدان من مشقة وجهد . وقد نهاهما منذ الزمان الأول عن هذا الطموح الذى لا يلائم بيئتهما ، وعن هذه الآمال التى لا يقدران على تحقيقها ، كم نصح لهما بأن يدفعا أبناءهما إلى المصانع ليتعلموا فيها ما يكسبون به القوت وما يعينون به أبويهم إذا تقدمت بهما السن . وكم قال لهما : إن المدارس لم تنشأ لأبناء الفلاحين وأوساط الناس . وإنما أنشئت لأبناء الذوات من الترك والأغنياء من المصريين . فلم يسمعا ولم ينتصحا ، فهما الآن يذوقان مرارة الغرور ، ويبلوان ثمر العناد . وأغرب من هذا أن شيطاناً مريداً قد استقر فى بيت خالد ولزم أذنيه وأذنى امرأته وجعل يوسوس لهما فى النهار ألا يسمعا لنصيحة سليم وأضرابه ، وألا يقنعا لأبنائهما بالشهادات اليسيرة والمناصب التى تنال بقليل من الجهد وتغل على أصحابها رواتب ضئيلة يراها أهل الإقليم شيئاً عظيماً وهى فى حقيقة الأمر لا تقيم الأود ولا تحمى من الجوع ، فضلا عن أن تبيح لأصحابها ماهم أهل له من الترف وخفض العيش . وكان هذا الشيطان المريد يقول لخالد وامرأته مصبحاً وممسياً : انظر إلى رئيس المصلحة وقاضى المحكمة ومأمور المركز ، فأما أحدهم فيعلم ابنه ليكون قاضياً . وأما الآخر فيريد لابنه أن يكون مهندساً . وأما الثالث فيطمع لابنه فى أن يكون طبيباً . فأى فرق بين أبنائكما وأبناء هؤلاء الناس ؟ ! إن قاماتهم جميعاً تعتدل فى السماء ، وليس أبناء هؤلاء الموظفين الكبار وحدهم هم الذين تعتدل قامتهم فى السماء على حين يمضى أبناؤكما على أربع . إنهم جميعاً قد سلكوا إلى الحياة طريقاً

واحدة ، وسيسلكون بعد أعمار طوال إلى الموت طريقاً واحدة ، فما بالهم يختلفون فى الطبقة ويتباينون فى المنزلة بين الحياة والموت ؟ ! وكان هذا الشيطان المريد يقول لخالد وامرأته فيما كان يقول : انظرا إلى رئيس المصلحة كيف يستكبر ويستعلى ، وكيف يثنى عطفه ويلوى جيده إذا تحدث إلى مرءوسيه ومنهم خالد ؛ وانظرا إلى امرأة هذا الرئيس كيف تدل وتتيه وتنظر من عل إلى نساء الموظفين حين يسعين لزيارتها ! . وانظرا إلى أبناء هذا الرئيس إنهم لا يستكبرون على أبنائكما ولا يستعلون ، كما يستكبر أبواهم ويستعليان ، لأنهم قد ذهبوا إلى كتاب واحد ثم إلى مدرسة واحدة . فإن أمسكتما أبناءكما عندما حفظا من العلم وحصلا من الشهادات وقفوا هم وتقدم أترابهم ، ثم لا تمضى الأعوام حتى يكون أبناؤكما فى نفس منزلتكما ، وحتى يكون أبناء هؤلاء الموظفين لهم سادة وعليهم رؤساء ، ومع ذلك فقد كان أبناؤكما يتفوقون فى المدرسة على أبناء هؤلاء الموظفين ، وهم جديرون أن يتفوقوا عليهم فى المدارس الأخرى ، وهم جديرون آخر الأمر أن يسبقوهم ويظفروا بما لم يظفروا به من وسائل الفوز . فانظرا كيف تجدان أنفسكما يوم يظفر أبناؤكما بالشهادة أو المنصب ويقصر على الشهادة أو المنصب أبناء الرئيس والقاضى والمأمور ؛ . وكان هذا الكلام يقع فى قلب خالد وامرأته موقعاً غريباً ، ينسيهما كل شىء ويدفعهما إلى التضحية بكل شىء . فكان كل عام دراسى يشهد بيع شىء مما كانت الأسرة تعتز به وتحرص عليه ، فيبيع البقر والجاموس والخيل شيئاً فشيئاً ، ثم بيع حلى « منى » شيئاً فشيئاً حتى أصبحت أعطل من الفقيرات بين نساء المدينة . فلم تكن فى المدينة امرأة فقيرة إلا ولها القرط من الذهب

أو الفضة تعلقه فى أذنيهما ، أو الخلخال من الفضة تديره حول ساقيها ، وقد كان لمنى من هذا الحلى أنفسه وأكرمه ، ولكنها جعلت تنزل عنه عاماً بعد عام للمعلم جرجس هذا الذى كان يلم بالبيت إذا دعاه خالد فيأخذ الحلى فى يده ينظر إليه فيطيل النظر ، ثم يزنه ثم يؤدى ثمنه إلى خالد ، ويدفعه خالد إلى بنيه ليؤدوا منه أجور التعليم . ثم اضطر خالد أن يقتصد فى زيه ؛ فقد كان ثيابه من أزهى الحرير وأجود الصوف ، ينفق فى ذلك ما لا ينفق أصحابه مثله ، فإذا هو يزهد فى هذا كله ، ويتخذ ثيابه من القماش الأبيض والصوف الرخيص . وليس هو وحده الذى يقتصد فامرأته وبناته يذهبن فى الاقتصاد مذهبه ويسرن سيرته ؛ فقد كان يجب أن يتعلم الأبناء وأن يعيشوا فى القاهرة عيشة راضية .

ولم يكن أمل فى أن يستعين خالد أباه ، فقد بعد العهد بثروة أبيه ، وأصبح على شيخاً فانياً ضريراً أعزب عيالا على أبنائه ، يرزقونه فى المدينة ويودون لو أقام عند كل واحد منهم جزءاً من السنة ليعيش مع أهله كما يعيشون حتى لا يكلفهم نفقة خاصة . ولكن علياً مصمم على أن يبقى فى داره ليعيش فى غرفة أم خالد . وهو لا ينتقل من هذه الدار إلا إذا أقبل الشتاء من كل عام ؛ فإنه يحب أن ينفق الشتاء عند خالد حيث يجد من الدفء والراحة والخدمة ما لا يجده فى داره . ولكنه قد أخذ على خالد عهداً إن أصابته علة أن يرده إلى داره وإلى غرفة أم خالد من هذه الدار ؛ لأنه يريد أن يموت حيث ماتت زوجته الأولى . وليس أمل فى أن يستعين خالد حماه الحاج مسعود ؛ فقد عبث الحاج مسعود بالثروة ، وقد تعرضت تجارته لمثل ما تعرضت له تجارة علىّ من هذا الخطر الذى جاءها من القاهرة على

أيدى هؤلاء الشياطين الذين نظموا التجارة تنظيماً حديثاً ويسروها تيسيراً لا يقدر عليه الحاج مسعود وأمثاله . ولولا أن الحاج مسعود كان رجلاً صالحاً بأدق معانى الكلمة لتعرض من البؤس لمثل ما تعرض له علي ، ولكنه ضبط نفسه وحزم أمره وكف عن التجارة حين رأى أن المضى فيها خطر ، واكتفى بما كان عنده من مال ينفق منه على نفسه ويبر منه بناته وأصهاره فى اعتدال ورفق ، ثم لزم شيخه أشد ما يكون له لزوماً ، حتى إذا مات الشيخ لم يلزم ابنه الحدث ، وإنما أقعدته السن فى داره ، فكان يزور الشيخ الفتى بين حين وحين . ولو قد بقيت على الحاج مسعود ثروته عريضة وتجارته نامية لما استعانه خالد على ما كان يلقى من الجهد فى تعليم بنيه . فقد كان خالد شديد الحياء ، وكانت امرأته أشد منه حياء ، وكان الزوجان يجدان لذة غريبة فى هذا البؤس الذى كانا يضطران الأسرة إليه لتعليم أبنائهما . ومن الحق أن هؤلاء الأبناء كانوا يكافئونهما أحسن المكافأة على ما كانا يبذلان من جهد ويحتملان من ضنك . فقد كانوا نابهين على الجملة . وكانوا على كل حال ممتازين على أترابهم من شباب المدينة ، فكانوا ينجحون حين كان يخفق أبناء كبار الموظفين ، وقد ظفر أحدهم بالشهادة الثانوية لم يرسب مرة واحدة ، على أن قرينه ابن المأمور الذى دخل معه المدرسة الثانوية فى عام واحد لم يزل فى السنة الأولى ، وقد كاد يفصل من المدرسة لولا أن أباه استعان ببعض أصحاب الجاه . فكان المأمور وكبار الموظفين يحسدون خالداً ، لا يكادون يخفون هذا الحسد . وكان خالد وامرأته يجدان هذا الحسد لذة منكرة لا يكادان يخفيانها . وكان خالد يتقى هذا الحسد بقراءة القرآن والإلحاح فى الدعاء ، كما كانت

« منى » تتقى هذا الحسد بالبخور وبهذه الأدعية التى لا يعرف أمتجهة إلى الله أم إلى الشيطان . وكان الشباب يضحكون من هذا كله ويعبثون من أمهم وأبيهم جميعاً . وفى أثناء هذا كله كان بنات « منى » ينمون ويتقدمن نحو الشباب حساناً رائعات . وكان الأبناء يتتابعون لا يكاد يدرج واحد منهم حتى يتبعه آخر . وجلنار هى القائمة على أمر هذه الدار بإرشاد خالتها وبتعنيف خالتها أيضاً . وقد كثر العمل على جلنار ، فالصبية كثيرون ، وشئون الدار لم يقل تعقيدها ، ولكن قل فيها الخدم ؛ فلم يكن بد من الاقتصاد . وكان العمل يثقل على جلنار بنوع خاص أثناء الصيف وفى إجازات الأعياد حين يقبل هؤلاء الشباب فيملئون البيت حركة ونشاطاً . والغريب أن أحداً من هؤلاء الشباب لم يخطر له أن حال الأسرة قد تغيرت ، وأن ثراءها قد ذهب ، وأن مالها قد قل . ومع أنهم كانوا يرون الدار خالية مما كان فيها من الحيوان ، ومع أنهم كانوا يرون أن أثاث الدار يبلى شيئاً فشيئاً دون أن يجدد ، ومع أنهم كانوا يرون أمهم عاطلا لم يبق لها خاتم تديره حول إصبعها ، فقد كانوا مطمئنين إلى أن أباهم قادر على كل شىء ، وكانوا واثقين بأنهم سيجدون فى الدار ما تعودوا أن يجدوا من السعة والرخاء . والشىء المهم هو أن جلنار كانت تنهض بخدمتهم لا تكل ، تستيقظ مع الفجر قبل أن يستيقظوا ، وتنام عند منتصف الليل بعد أن يناموا ، لا تفتر عن العمل ساعة ، ولا تذوق الراحة لحظة ، وهى بذلك سعيدة وإليه مطمئنة ، لولا ما كانت تلقى من تعنيف خالتها الذى لم يكن ينقطع ، ولولا ما كان يوجه إليها هؤلاء الشباب الأشرار الجاهلين للجميل من مزاح لا يخلو مما يؤلم ، ولولا أن سالماً كان ينتهز هذه الفرصة فيزور

الأسرة ويطيل الإقامة فيها ، ويكون أشد أترابه رغبة فى الدعة والرخاء وحاجة إلى الخدمة ، وأطولهم لساناً بما يسوء . وكان أحب أوقات جلنار إليها وآثرها عندها هذه اللحظات القصار التى كانت تقدم فيها القهوة إلى أبيها مع الصبح وخالتها نائمة لم تنهض بعد ، فكانت تقف بين يدى أبيها وهو يأكل كسرة الخبز المجففة يغمسها فى الملح ويشرب فنجانيه من القهوة السادة ، ويتحدث إلى ابنته حديثاً هادئاً عن إخوتها كيف أنفقوا أمسهم وكيف يريدون أن ينفقوا يومهم ، وماذا يجب أن تعد لغدائهم أو عشائهم من طعام . وكانت تحب أيضاً هذه اللحظات القصار التى كانت تصب فيهن الماء أثناء وضوئه إذا نهض من نومه بعد الغداء ، حتى إذا أسبغ وضوءه تركته يصلى العصر ، ثم عادت إليه بفنجانيه من القهوة ، فأخذ يشربهما مستأنياً ، ويداعبها حول ما أعدت من طعام ، يمدح هذا اللون ويعيب ذاك ، والفتاة ترد على أبيها مداعبة ، ترق له حيناً وتعنف به حيناً آخر ، ويبلغ بها العنف أن تشبه أباها بالقطط التى تأكل ثم لا تتحرج من أن تنال مطعمها بالمخالب . وكان أبوها يسمع منها ويضحك لها وينصرف وفى قلبه كثير من حنان ، وعلى لسانه شىء من دعاء لا يسمعه إلا الله ، لأنه كان يخشى أن يسمعه أحد أبناء الأسرة . فقد استقر فى الأسرة كلها أن جلنار حمقاء ورهاء ، لا تقدر على خير ، ولا تستحق خيراً . وكانت جلنار تجد شيئاً من الراحة والروح حين تقدم إلى أمها قهوة الصباح بعد أن ينصرف أبواها وقبل أن تنهض خالتها ، فتلقى إلى أمها كلمات سريعة كأنما تخطفهن خطفاً ، وتلقى إليها أمها كلمات سريعة كأنما تختلسهن اختلاساً . ثم يفرق العمل بين الأم وابنتها ، فالفتاة

مضطربة فى البيت لا تستقر كأنها خذروف الوليد ، وأمها مقبلة على ما كانت موكلة به منذ عاد إليها بعض رشدها من الحياطة وإصلاح ما كان الشباب والصبية يمزقون من الثياب .

وكذلك مضت حياة الأسرة أعواماً وأعواماً حتى اكتهل الشاب وشب الصبى وصلح البنات للزواج ، واختلف أصغر الأبناء إلى المدارس يسيرون على آثار إخوتهم الكبار . وخالد الشيخ سعيد بما يرى من تقدم بنيه واستقلال من يستقل منهم ، شقى بما يرى من إعراضهم عنه وازورار أكثرهم عليه ، باذل على ذلك فى شيخوخته مثل ما كان يبذل فى شبابه من جهد ليعين من يحتاج من أبنائه إلى العون وليبر أبناءه الآخرين ، وقد كانوا خليقين أن يعينوه ويبروه . وكان خالد وامرأته يتحدثان ببر الأبناء وعقوقهم ، فيفرحان بأبنائهما ويحتسبان عند الله ما بذلا فى تربيتهم وتعليمهم من جهد . وكان خالد يختم هذا الحديث دائماً بهذه الجملة : لن أترك لأبنائى ثروة ، ولو شئت لتركت لهم مالا كثيراً ؛ ولكنى سأتركهم غير محتاجين إلى ميراث ، ولعلهم يستطيعون أن يؤدوا إلى أبنائهم مثل ما أديت إليهم من المعروف . وكانت جلنار تسمع هذه الجملة فتقع من قلبها موقعاً غريباً ، فيه عطف على أبيها ، وفيه عتب عليه أيضاً . إنه لم يترك لأبنائه ميراثاً ؛ لأنهم أغنياء عن الميراث ، ولكنه لم يترك لبناته ميراثاً وهن لسن غنيات عن الميراث ، ولا سيما من لم تجد منهن زوجاً .

٢٦

وفى ذات صيف كانت الأسرة كلها مجتمعة ، وكان الأمر فى الدار قائماً على قدم وساق كما يقال فقد تعمد أبناء الأسرة جميعاً أن يلتقوا عند أبويهم ، فكان منهم الكهل معه زوجه وبنوه ، والشاب معه زوجه التى لم تلد بعد ، والشاب الآخر الذى لما يتزوج ، والفتى الذى لما يتم الدرس ، والصبى الذى لما ينل شهادته الابتدائية . وكانت الأسرة كأحسن ماتكون الأسرة فرحاً ومرحاً . وكان خالد الشيخ كأحسن ما يكون الشيوخ الآباء غبطة وابتهاجاً ، أحب أوقاته إليه أن يجلس إلى المائدة وحوله هذه القبيلة الضخمة من الأبناء والحفدة وهم يتحدثون فى صيحة وجلبة لا يكاد بعضهم يسمع حديث بعض . وأمهم قائمة على رأس المائدة تشرف على غدائهم أو عشائهم ، توصى هذا بهذا اللون من الطعام ، وتنبه ذاك إلى هذا اللون الذى كان يحبه صبياً ، وتحث المقصر فى الأكل على أن يأكل ، وتحمس الفاتر على أن ينشط . وجلنار ذاهبة جائية ومعها أخواتها والخدم يطوفن بالصحاف ، ويصببن الماء فى الأقداح ، ويلتقطن من الأحاديث والنكت ما يستطعن ، يدخرنه لتلك الساعة التى يجتمع فيها النساء إلى المائدة فيعدنه متندرات به مستمتعات بما يثير فى نفوسهن من لذة وابتهاج.

وأيام الأسرة تمضى فى هذا الصيف السعيد على خير ما يحب خالد وامرأته. والناس يتحدثون فى المدينة بهذه الأسرة الضخمة ، وبهذا النشاط الشديد الذى يذيعه أبناؤها فى المدينة كلها ، فلا يبقى فيها بيت ذو خطر إلا دعا -

كهول الأسرة وشبابها إلى غداء أو عشاء . ولم تجد الأسرة بدًّا من أن تلقى الجميل بالجميل وترد التحية بمثلها أو بأحسن منها . فالولائم متصلة فى المدينة ، يوماً هنا ويوماً هناك . وأبناء الأسرة هم مصدر هذا النشاط وسبب هذا الرخاء . ولكن رسالة برقية تصل إلى الأسرة فتحدث فيها شيئاً من رضاً يمازجه شىء من عجب ؛ فقد حملت هذه الرسالة إلى خالد أن صديقه وأخاه سليما سيزور الأسرة من غد ، وسيصحبه فى هذه الزيارة ابنه سالم . أما الشباب فيسرون لمقدم سالم هذا الفتى المرح الذى سيزيد إقامتهم بشراً وسروراً . وأما خالد فيسر لأنه سيرى أخاه ، ولأنه سيرى أبناءه سعداء مبتهجين . ولكن خالداً يسأل نفسه : ما بال سليم يصطحب ابنه ؟ والشباب يتساءلون : ما بال سالم يصحب أباه ؟ ثم هم يتساءلون : ما بال هذه الزيارة ينبئ بها البرق ولا تتم مفاجأة كما جرت عادة سالم وسليم ؟ فأما « منى » فلم تسأل نفسها عن شىء ولم تجب عما كان يلقى حولها من الأسئلة بشىء ، وإنما ظلت هادئة باسمة فى وجهها شىء من غموض . ثم يكون الغد ويقبل الزائرون ، ولكنهما لا يقبلان كما تعودا أن يقبلا ، معهما أمتعتهما اليسيرة وبعض ما تعودا أن يحملا من الطرف والهدايا اليسيرة أيضاً ، وإنما يقبلان هذه المرة ومن حولهما مايحتاج إلى حمالين كثيرين وما يعيا بحمله هؤلاء الحمالون ؛ فألوان مختلفة من الفاكهة ، وضروب مختلفة من الطعام المصنوع ، ثم الأرز والسكر والبن وأشياء أخرى لا تكاد تحصى . فأما الشباب فيدهشون ولا يقولون شيئاً ، وإنما ينصرفون إلى سالم يفرحون به ويمرحون معه . وأما خالد فيقول لأخيه : وماذا تركت لأهل المدينة وقد حملت ما كان فى سوقها من عروض ؟ ، وأما « منى » فلا تقول

شيئاً ، ولكنها تتلقى هذه الهدايا فرحة بها مبتهجة لها أكثر مما تعودت أن تفرح بالهدايا أو تبتهج ، وابتسامتها كما هى ، وصمتها باق كما هو ، والغموض فى وجهها باق كما هو . وأما البنات فلا يحفلن بذلك ولا يكدن يلتفتن إليه ؛ فهن مشغولات بما فى الدار من نشاط وبما تحتاج إليه الدار من خدمة . إلا جلنار فإنها قد حدثت نفسها بشىء وساءلت نفسها عن شىء : أيمكن أن يكون سالم وأبوه قد ذكرا تلك الخطبة القديمة وفكرا فى هذا الزواج المنتظر ؟ ولكنها لا تجيب على هذا السؤال ، وإنما تترك نفسها معلقة مضطربة ، يدفعها الشك إلى هنا وهناك ، وهى تألم لهذا الشك الثقيل . ويمضى يوم ويوم والأسرة فيما هى فيه من حياة فرحة مرحة ، يزيدها فرحاً ومرحاً نشاط سالم ودعابة سليم .

ولكن الأخوين يخلوان ساعة بعد الغداء من اليوم الثالث وقد أحس الشباب أن لهذه الخلوة ما بعدها . ولم يلتفت إليها بنات « منى » . وأكبر الظن أن منى نفسها قد كانت فى غرفة مجاورة تتسمع لما يقول الأخوان ، أو تنتظر أن يصل إليها بعض ما يقول الأخوان . وأما جلنار فقد لاحظت هذه الخلوة وابتسمت لها ابتسامة غامضة ، ومضت فيما كانت فيه من عمل ، ولم يعرف قلبها قط من الخوف والرجاء مثل ما عرف فى تلك الساعة . ثم يفترق الأخوان ، يذهب كل منهما إلى مضجعه ليستريح بعد الغداء . فأما خالد فقد خلا إلى زوجه . وأما سليم فقد خلا إلى ابنه . والشباب يتساءلون متضاحكين ، وجلنار تسائل نفسها فزعة هلعة دون أن يفطن أحد لما تضطرب به نفسها من فزع وهلع .

فإذا صليت العصر كان وجه « منى » ممتلئاً بشراً ، وكانت جلنار أول من

لحظ ذلك ، فلم يزدها إلا فرقاً وقلقاً . ولكن خالداً يدعو إليه الكبار من أبنائه ويتحدث إليهم حديثاً يلقونه بثورة لا يكادون يخفونها . فقد جاء سليم خاطباً يريد أن يزوج ابنه ، ولكنه لا يخطب جلنار ، وإنما يخطب تفيدة كبرى بنات «منى» . وخالد حائر فى أمره لا يدرى كيف يرد على أخيه قوله : أيقبل هذه الخطبة فيضحى بجلنار البائسة ، أم يرفض هذه الخطبة فيؤذى أخاه وهو لم يتعود قط أن يرد لأخيه طلباً ؟ وقد عرض الأمر على زوجه فلم تنكر منه شيئاً . ومعنى ذلك أنه إن رفض فلن يؤذى أخاه وحده بل سيؤذى معه زوجه منى ، وسيؤذى معهما سالماً .

فأما الشباب فلم يفكروا فى شىء من هذا ، وإنما اجتمعت كلمتهم على الرفض وعلى أن فى هذه الخطبة الجديدة قحة لا تبلغها قحة ، وسماجة لا تشبهها سماجة . ثم أخذ الشباب يتضاحكون ويتندرون بعمهم وابن عمهم وبهذه الهدايا الكثيرة التى لم يتعودوا أن يحملا مثلها . ولم يصل المغرب حتى كانت الأسرة كلها قد عرفت نبأ الخطبة ، وحتى كان الفساد قد شمل أخلاق الشباب والشيوخ والصبيان جميعاً . وكأن سحابة كثيفة من الغم قد أظلت هذه الدار التى كانت فرحه مبتهجة منذ حين فملأتها حزناً وبؤساً . فأما الشبان فقد تفرقوا فى أنحاء المدينة يلتمسون الرياضة ويخلو بعضهم إلى بعض . وأما الصبية فقد عشتهم أختهم جلنار فأكل منهم من أكل وأعرض منهم من أعرض عن الطعام ، واضطروا آخر الأمر إلى مضاجعهم . وأما بنات «منى» فقد لذن بأمهن صامتات مثلها ، باسمات مثلها ، غامضات مثلها أيضاً . وأما جلنار فقامت على خدمة الدار كما تعودت ، وهيأت للرجال طعامهم . فلما لم يقرب به أحد منهم دعت النساء إلى

طعامهن ، فلما امتنعن رفعت كتفيها وهزت رأسها وأصابت قليلا من طعام وجلست مكانها مع النساء صامتة تنتظر أن يأوى الرجال إلى مضاجعهم لتدور فى البيت دورتها المألوفة ، فتثق بأن الأبواب مغلقة ، وبأن كل شىء مستقر فى موضعه الذى يجب أن يستقر فيه . فأما قلبها فقد كان حزيناً ، ولكن عهده بالحزن قديم . وأما نفسها فقد كانت يائسة ، ولكن السبب الذى كان بين نفسها وبين الأمل قد كان واهياً واهناً ، حتى إذا انقطع لم تكد تحس له انقطاعاً .

وهم خالد فيما أقبل من الأيام أن يرضى أخاه ويضحى بابنته الكبرى ، ويكره أبناءه على ما لا يحبون ؛ فهو صاحب الحق آخر الأمر فى أن يرفض أو يقبل . ولكنه وجد من بنيه مقاومة لم يعهدها من قبل ؛ فهم قد أقبلوا على حقائبهم يهيئونها ؛ وهم يتحدثون بالقطر الذى سيركبونها ليعود كل منهم إلى موطنه الذى يعمل فيه . وهم يؤذنون الأسرة بأن الصلة بينهم وبينها مقطوعة إن قبلت هذه الخطبة الوقحة . وخالد يلجأ مع أخيه إلى رئيس المصلحة يستعينان به على هؤلاء الشباب الذين أفسدهم التعليم ، وأضاعت الحياة الحديثة من نفوسهم كل حياء ، فهم يدخلون فيما لا يعنيهم ، ويخالفون عن أمر أبيهم . ويتوسط الرئيس فيدعو إليه شباب الأسرة ، فيمتنع أكثرهم ويذهب أقلهم ، ثم يعودون كما ذهبوا وقد امتنعوا على الرئيس كما امتنعوا على أبيهم . وهنا بدأت دموع « منى » تسيل ولكنها لم تبلغ من قلوب أبنائها شيئاً . واضطر سليم أن يعود أدراجه ومعه ابنه ، وقد هم الشباب أن يبالغوا فى مساءته فيردوا عليه ما حمل من الهدايا ، لولا بقية من رشد وفضل من وقار . وقد انقضت إجازة الصيف حزينة بعد مرح ، عابسة بعد

ابتسام . وتفرق الشباب عن أبويهم وانصرفوا إلى أعمالهم وقد استوثقوا أنهم كسبوا الموقعة . ولكن كتب أبيهم تصل إليهم بعد أشهر تحمل إليهم هذا النبأ الأليم ، فقد تم الزواج ، فزوجت تفيدة من سالم ، وزوجت جلنار من على . وكانت هذه هى الحيلة التى اهتدى إليها سليم للخروج من هذه المشكلة . إن الشباب يأبون أن تزوج أختهم الصغرى وتترك أختهم الكبرى . فلنزوج الأختين . وما دام سالم يحب تفيدة ويخطبها فليزوج من تفيدة . فأما جلنار فإن علياً لا يكره أن يتزوجها إذا ألح أبوه عليه فى ذلك . وقد اطمأنت « منى » ورضى خالد وتم عقد الزواج ، لم تستشر فيه تفيدة ولم تسأل فيه جلنار ، وإنما أجريت هذه الصورة المألوفة فكان خالد وكيل ابنتيه ، وكان سليم وكيل ابنيه . وانتهت أنباء ذلك إلى الشباب متفرقين فلم يصنعوا شيئاً ؛ لأنهم لم يكونوا يستطيعون أن يصنعوا شيئاً . ولكن قائلهم قال : أقسم ما هذه إلا حيلة ولتزفن تفيدة إلى سالم ولتطلقن جلنار قبل الزفاف . وأقسم الشباب لا يحضرون من أمر هذا الزواج شيئاً .

ومضت أشهر وجاءت إجازة الصيف ؛ فلم ينعم خالد وامرأته بزيارة أبنائهما . وقد تحقق ما قدر الشباب ، فزفت تفيدة إلى سالم ، وأقبل كتاب ذات يوم يحمل إلى خالد وثيقة الطلاق لجلنار .

وفى الإنسان خصال بغيضة لم تستطع الحضارة تهذيبها ، بل ليس أحد يدرى أخلقت معه فعجزت الحضارة عن إصلاحها أم خلق الإنسان مبرأ منها ثم كسبته الحضارة إياها بما فرضت عليه من ظروف مرتبكة مشتبكة ، وبما امتحنته به من خطوب متسابقة متلاحقة ، ولكنها مركبة فيه على

كل حال ، تفسد عليه أمره ، وتضطره إلى كثير من البغى ، وتورطه فى كثير من الإثم . فلست أعرف أقسى منه إذا أبطرته النعمة ، ولا أغنى منه إذا ازدهاه الغرور ، ولا أجهل منه إذا سيطرت عليه الأثرة ، ولا أغفل منه إذا أحس خطراً قريباً أو بعيداً على ما يختص به نفسه من الخير .
وأكبر الظن أن كل هذه الخصال مجتمعة هى التى دفعت « منى » إلى أن تتشدد فى أن تزف تفيدة إلى سالم أو يزف سالم إلى تفيدة فى دار الأسرة وفى أن يجد خالد لختنه عملا فى نفس المصلحة التى يعمل فيها ، بحيث لا تفارق ابنتها ، وبحيث تستطيع أن ترى ختنها الأثير عندها فى الصباح والمساء من كل يوم . وقد نسيت منى أن أمها حاولت شيئاً مثل ذلك فكانت هى أشد الممانعين فيه ، وتركت الأمر إلى زوجها ، ولم تحفل بما أظهرت أمها أو أضمرت من حزن ، ولم تأبه لما سفحت أمها وأمسكت من دموع . نسيت ذلك ولم تذكر إلا شيئاً واحداً ، وهو أنها لا تريد أن تفارق ابنتها فلا ينبغى لأحد أن يفرق بينها وبين ابنتها مهما تكن الأحوال ومن يدرى ! لعل عواطف خفية أثيمة كانت تعبث بهذا القلب الكريم فتجرده مما عرف به من رحمة ، وبهذا العقل النافذ فتحرمه ما قدر له من ذكاء ؛ فقد انتصرت على زوجها وبنيها وضرتها التى لم تحارب قليلا ولا كثيراً ، وينبغى أن تستغل انتصارها إلى أقصى غاياته وأبعد آماده ، وأن ترى ابنتها مقيمة فى دارها ، سعيدة بحبها ، مستأثرة بهذا الزواج الذى لم تكن تنتظره ، والذى كانت الأسرة قد أعدته لغيرها ، ولم يخطر لمنى أن فى الدار فتاة خليقة أن يؤذيها هذا الجوار البغيض وأن يمزق قلبها تمزيقاً ويحرقه تحريقاً ، وأن فوزها الأول خليق أن يحملها على شىء من رحمة ورفق ،

فتجنت هذه البائسة رؤية هذا الفتى الذى انتظرت أعواماً وأعواماً أن يكون لها زوجاً ، والذى عقدت به آمالا وآمالا ، ثم نظرت ذات يوم فإذا هى تجزى من هذا الانتظار الطويل والصبر المتصل بالهجران والحرمان ، ثم بهذه الإهانة التى لا تطيق المرأة صبراً عليها ، وهى هذا الزواج الصورى الذى لم يرد به حتى خداعها هى أو تضليلها ، فلم يحفل أحد حتى بخداعها وتضليلها ، وإنما أريد به خداع أولئك المعارضين من إخوتها ، ليتم هذا الزواج الذى هو إلى الغصب والعدوان أقرب منه إلى أى شىء آخر .

لم يخطر هذا لمنى ، بل لعله خطر لها فكان دافعاً على الإلحاح فى أن تقيم ابنتها معها فى الدار .

ولم يقف الأمر عند هذا الحد ، بل أخذت جلنار تعمل فى الدار كما كانت تعمل . وكان من بين عملها بطبيعة الحال أن تمضى فى خدمة أختها متزوجة بعد أن كانت تخدمها قبل الزواج ، وأن تمضى فى خدمة هذا النزيل الجديد بعد أن تحول عنها قلبه ، وبعد أن أهدى إليها هذه الخيانة البشعة ، كما كانت تخدمه من قبل حين كانت ترجو حبه ، وحين استيأست من حبه ، ولكنها لم تكن تنتظر أن تنتهى به القسوة إلى الخيانة . ويجب أن نعترف بأن جلنار مضت فى حياتها وفى عملها كما كانت تمضى من قبل لم يظهر أحد من الأسرة على أنها محزونة أو يائسة ، إما لأنها لم تظهر حزناً ولا يأساً ، وإما لأن الأسرة لم ترد أو لم تستطع أن ترى عليها مظاهر الحزن واليأس .

إنما هى امرأة واحدة لم تستطع أن تقيم فى الدار ، ولا أن تحتمل هذا البؤس الأليم ، وهى نفيسة التى طلبت فى حياء يمازجه الذهول أن تزور

ابنتها سميحة ، وودت لو أن لجلنار فى صحبتها . ولكن « منى » أجابتها فى قسوة هادئة : تستطيعين أن تزورى ابنتك إن شئت ، فأما جلنار فلن تستغنى عنها الدار فى هذه الأيام .

وقد آثرت الأم البائسة أن تفارق ابنتها على أن تراها فى هذا العذاب البغيض . وكذلك خلت الدار حتى من هذا الشعاع الضئيل الذى كان ينفذ إلى قلب الفتاة من حنان أمها البائسة ، فيشيع فيه شيئاً من الطمأنينة والراحة ، ولم يبق لها إلا وجه أبيها الذى كان يبتسم لها على استحياء ؛ لأنه كان يقدر بؤسها فى أعماق ضميره ، ويقدر قسوته عليها وتقصيره فى ذاتها . ولكنه لم يكن يستطيع أن يظهر لها أو لغيرها من ذلك شيئاً ، فاتخذه سراً بينه وبين الله ، يستغفر الله منه ويستعينه على احتماله إن استطاع أن يخلو إلى نفسه ، وما أقل ما كان يستطيع أن يخلو إلى نفسه! .

وأقبل مع ذلك ذات يوم شيخ متقدم فى السن من أصدقاء خالد يكاد يكون ترباً له ، وكان هذا الشيخ قد فقد أهله منذ حين . أقبل إلى خالد ذات يوم يخطب جلنار ، ولم يدر أحد أدفعته الرحمة إلى هذه الخطبة أم دفعته إليها الحاجة إلى من يؤنس وحدته ، أم دفعه حرصه على أن تزداد الصلة بينه وبين صديقه متانة وتوثيقاً ، ولكنه خطب الفتاة إلى أبيها على كل . ووجد خالد فى هذه الخطبة روحاً من الله يخفف عنه بعض ندمه ويغسل عن نفسه بعض ما علق بها من الإثم والحوب ، فوعد صديقه خيراً على أن يشاور ابنته . ثم خلا إلى الفتاة بعد أن آذن زوجه بالأمر بهذه الخطبة فى صوت هادئ لا يخلو من اضطراب ، وفى ابتسامة متكلفة لا تخلو من حزن . ولكن الفتاه استمعت له مطرقة ، ثم أجابته دون

أن ترفع رأسها إليه قائلة : ليس لى فى الزواج أرب ، وما أحب أن أفارق هذه الدار . فلما أراد أبوها أن يحاورها فى ذلك رفعت إليه رأسها باسمة فى صوتها الذى لم يخل من عنف : ومن ذا الذى يقدم إليك وضوءك وقهوتك فى الصباح والمساء ؟ ثم تولت عنه معرضة وقد استيقن أنه لن يظفر منها بشىء . فلما أعاد حاديثها على زوجه قالت « منى » فى صوت ساخر بعض الشىء : إن شجرة البؤس ما زالت تؤتى ثمارها . قال خالد ولم يستطع أن يخفى عبوس وجهه : فعسى الله ألا تذوقى أنت ولا بناتك بعض هذه الثمار ؛ ولكن الله لم يستجب لخالد دعاءه فى هذه المرة ؛ فقد لقيت تفيدة من زوجها ما لقيت ، وابتأست فى حياتها ما ابتأست .

ورأى الضحى ذات يوم بعد حين من الدهر نسوة مجتمعات يبكين أو يتباكين ، وما أكثر دعاء النساء لدموعهن! وما أيسر ما تستجيب الدموع لهن إذا دعونها ؛ رأى الضحى ذات يوم هؤلاء النسوة مجتمعات يبكين أو يتباكين ، ولم تكن فيهن إلا أيم أو مطلقة . ولم يكن هؤلاء النسوة إلا « منى » قد تقدمت بها السن والأرامل من بناتها ومعهن جلنار كما عرفها الضحى من كل يوم منذ حملت إلى هذه الدار . فلما فرغ هؤلاء النسوة من بكائهن أو تباكيهن وأقلعت دموعهن بعض الإقلاع ، أخذن يتذاكرن آمالهن الضائعة وآلامهن الملمة ، وما كتب عليهن من الشقاء والبؤس . إنهن لم يلقين من الدهر قط رحمة أو روحاً . تقول « منى » لتفيدة : والله ما جر عليك آلامك ، وهذا البؤس المتصل الذى أنت فيه إلا الحسد والغيرة ؛ فقد زففت إلى زوجك وإن فى هذه الدار لقلباً يكاد الحسد يهلكه . قالت تفيدة فى شىء من غضب : والله يا أماه

ما أدرى ! لعلى أكون قد جنيت على نفسى حين أخذت ما ليس لى بحق . وتسمع جلنار فلا تقول شيئاً ، وقد تعودت منذ أعوام طويلة أن تسمع كثيراً ولا تقول شيئاً ، ولكنها تنهض بعد حين متثاقلة ، فتذهب إلى حجرتها فتلزمها أياماً ، ثم لا تخرج منها إلا إلى جوار أبيها فى تلك الدار التى لا يعرف أهلها تحاسداً ولا تباغضاً ولا تعادياً ، والتى لا لغو فيها ولا تأثيم .

بيت مرى أغسطس وسبتمبر سنة ١٩٥٤



تم طبع هذا الكتاب على مطابع
دار المعارف بمصر سنة ١٩٥٨